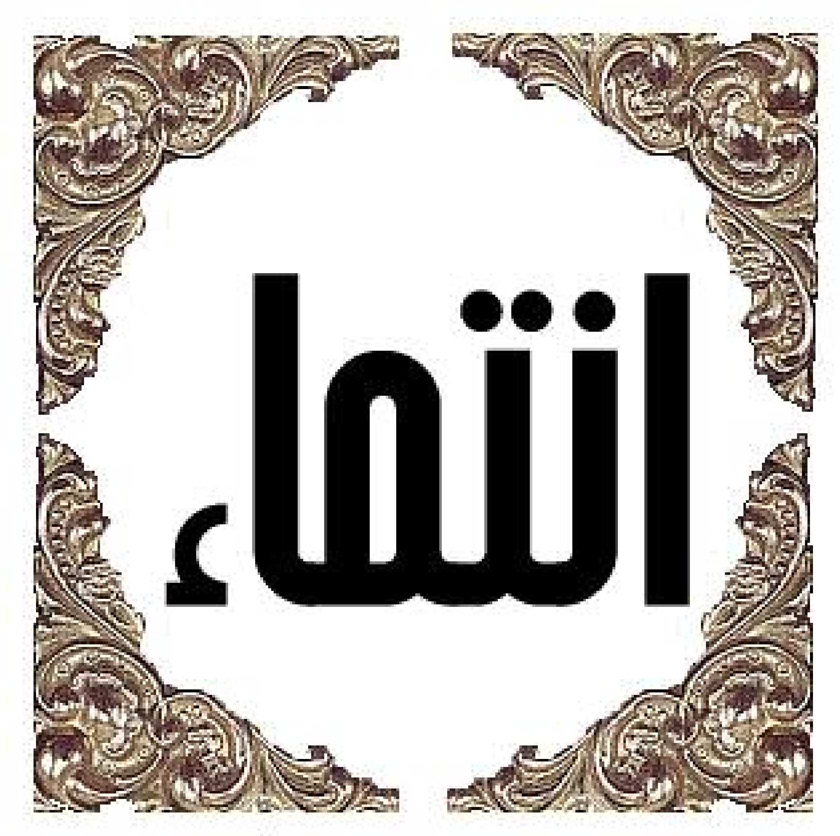


مقالات مختارة في التربية و الأدب و الاحتماع

لطفي زغلول

محتويات الكتاب

مقدمة

بقلم : د. أميرة سعدالدين
جامعة القدس

الانتماء والمنتمى من أقدم المفاهيم الانسانية المتحضرة ، منذ أن كان للانسان موطىء قدم ألقى رحاله على ترابه واستقر فيه ، ومنذ أن كان هناك جماعة من بني جلدته ولسانه يتعايش معهم تعايشا أفرز سلوكات تكررت على مدى الأيام والسنين ، ورؤى أينعت ابداعا متعدد الأشكال والألوان والاتجاهات .

ومن هذا وذاك تشكل المنتمى ، فكان هو الوطن ، أو العقيدة ، أو الفكر ، أو الجماعة الانسانية " الأمة "، أو أنه أصبحها جميعا . فالمنتمى مصب كل عناصر الانتماء ، وبوتقة انصهارها ، وتربة تتعمق فيها جذورها ، ومنطلق الى فضاءات يضيئها التفرد والتميز والخصوصية ، باعتبار أن هذا الثالوث اكليل يزين هام كل ثقافة انسانية .

والانتماء حالة انسانية يفترض أنها تولد مشاعر الاعتزاز والفخار للمنتمين في اطار بعيد عن عقد التفوق العرقي والاستعلاء ، وفي اجواء منفتحة على الآخر بعيدة عن الانغلاق والتقوقع في خبايا الذات .

وفي غمرة عولمة لا تؤمن بالتعددية الثقافية أو التسامح مع الآخر ، تستر الغزو الثقافي بقناعها ، يطل علينا الكاتب والشاعر لطفي زغلول بمقالاته هذه في الثقافة والأدب والتربية والاجتماع مدافعا دفاعا اخلاقيا وموضوعيا عن كثير من الأسس التي تقوم عليها ابداعات الثقافة العربية الاسلامية باشكالها المتعددة ، ذلك أنها اصبحت مستهدفة في مرمى الاتهام والهجوم ، وحالات حصار توطئة لاجتياحها بهدف اجتثاثها واقامة مستوطنات ثقافية غريبة على انقاضها .

واذا كان المستعمر في الماضي هو العقل واليد وراء هذه الهجمة الشرسة ، ففي هذه الأيام تتكالب عقول وأياد محلية خرجت من ساحة الانتماء الى الارتماء في احضان مرجعيات ثقافية أخرى تقوم بالتسويق لها ، هدفها الظاهر الحداثة والتحديث والعصرنة والعالمية ، وباطنها شيء آخر هو الاقتلاع من الجذور .

ويأتي " انتماء "دفاعا عن منتمى ، وردة فعل قد لا تكون بحجم الفعل والتحدي ، ولكنها رؤى كاتب وشاعر يؤمن بعروبته وعقيدته دون ادنى تعصب وانحياز . وبقدر ما هو منفتح على الآخر الا انه يرفض أن يقتلع من الجذور .

" انتماء " أقولها بصدق وموضوعية مقالات مختارة من حصاد الكاتب والشاعر لطفي زغلول ذات منظور نابع من منتمى تاريخي عريق مفعم بالانسانية والتسامح ومنفتح على التجدد .

الاهداء

الى أولئك الذين ما زال المنتمى
في ضمائرهم هو المنتمى
وما زال الانتماء
يضيء مساحة شاسعة
من فضاءات وجودهم
الى كل المنتمين
الى جذور ثقافية متجددة منفتحة
عاصية على الاقتلاع
في عصر العولمة

لطفي زغلول

الحداثة
وثقافة عبـّــادي الشمس

❋) الحداثة او الحدوثة مفردة عربية تحمل معاني كثيرة منها الايجاد او الابتداع او الوصول بالشيء المقصود الى اقصى حالات التغيير في كل من الشكل والمضمون وارقاها في زمـــن معين . وهي حالة نسبية لا مطلقة كونها تتغير بمرور الزمن وتبـــدل المكـــان والمنطلـــق والرؤيا.

❋) والحداثة من الصفات التي لازمت الانسانية عبر مراحل تطورها الثقافي والحضـــاري ، علاوة على انها لم تكن حكرا على أي من الحضارات او الثقافات . وفي الحقيقة انها كانـــت تشكل قاسما مشتركا لها في شتى الميادين . الا انها في نفس الوقت كانت متفاوتة الـــوتيرة في سرعة ايقاعها واتجاهاتها .

❋) وقد عايشت الحضارة العربية الاسلامية هذا المفهوم الذي لازمها على مـــر عصـــور ازدهارها ، كونها اساسا لم تكن منغلقة على نفسها . وعلى النقيض من ذلك كانت منفتحـــة على الآخر ومتسامحة معه ايا كان . الا انها ظلت تحتفظ بمزاياها وتميزهـــا وخصائصـــها وخصوصيتها ، وترفض الذوبان في أي ذات اخرى ، او الانصياع لها او اتخاذها مرجعية . وهي في ذات الوقت عالية غير متعالية ، ومعتزة معزوزة غير وضيعة مهزوزة بعطاءها.

❋) وفي التاريخ العربي المعاصر ، وتحديدا منذ خمسينات القـــرن العشـــرين المنصـــرم ، يشهد الوطن العربي تنامي موجة حداثة طغت على تفكير شريحة من المثقفين والمبـــدعين العرب آخذة في الاتساع . وتنعكس مظاهر هذه الموجة فـــي " ابـــداعات فكريـــة او ادبيـــة والشعر واحد منها " . وقد افرزت ادبا وشعرا يصر مبدعوه الحداثيون على ان هويته عربية حديثة وعصرية وحتى عالمية . وحقيقة الامر هو ابداع قوالبه واشكاله واساليبه ومدارسه ومنطلقاته ورؤاه مستعارة من الثقافة الغربية التي يبشر بها هـــؤلاء الحـــداثيون اعـــرب ، ويقومون بتسويقها على انها الحل الجذري لتخلف المشهد الثقافي العربي الذي سوف يظـــل يعاني من التحجر والانجماد والتقوقع اذا لم يأخذ –على حد ادعاء هذه الشريحة – بالتجربة الثقافية الغربية التي لها الهيمنة السياسية والعسكرية والعلمية والتقنية ، وبالتالي فان كـــل

ما يصدر عنها من هذا المنظور يشكل المرجعية الاخيرة لكل بني البشر . واما الخصوصيات والكماليات فقد انتهى مفعولها وزمانها .

❋) وقبل الخوض في فعاليات تسويق هذا النوع من الحداثة على ايدي هذه الشريحة المثقفة العربية ، يجدر بداية اضاءة فضاءآت هذه "الحداثة " والتحليق في مساراتها ومعارجها . فالحداثة هنا والتي يجري الترويج لها في الوطن العربي ، هي في الحقيقة نموذج اوروبي هدفه اصلا ان يواجه الانسان مصيره مستقلا . وهي تعتمد الذات البرجوازية . ولدى دراسة الابداعات الاوروبية التي تنتمي الى مدرستها فانها باختصار تضعنا امام نماذج من الابداع حطم كل اشكال التقاليد وتجاوز منظومة المحظورات والمحرمات والتحفظات التي تقوم عليها فلسفات المجتمع .واطلقت في ذات الوقت العنان لكافة المشاعر والاحاسيس والرغبات والنزعات والغرائز الكامنة في الانسان الى فضاءآت من الحرية ليس لها حدود ، مخلفة وراءها كافة الاساليب والقوالب الابداعية الجماعية التي كان متعارفا عليها على مذبح الفردية. وبمعنى ابسط فالحداثة الاوروبية قبل ان تكون في القوالب والمدارس الابداعية كانت في الفكر والرؤيا والايديولوجية . وقد يكون هذا الشكل الحداثي مقبولا في اوروبا نظرا لتطور مفهوم الحريات ، ونظرا لوجود مؤسسات قوية قادرة على ان تحافظ على الموروث والاصيل .

❋) الا ان الخطورة تتمثل في فرض هذه الحداثة على العالم الثالث وفي مقدمته العالمان العربي والاسلامي . فهذه الحداثة لم تنطلق من صميم الفلسفات المحلية لهذا العالم ولا لصالحه ، ولا على ايدي مفكريه ومبدعي . وانما تم تسويقها له لاعتبارات ودوافع سياسية واقتصادية وامنية على طريق هيمنة العولمة الشمولية الهادفة الى الاستحواذ على العالم .

❋) ان قراءة ثاقبة في حيثيات محاولات نشر هذا المفهوم الثقافي الحداثي الاوروبي خارج اسوار الحضارة الاوروبية يطرح يقينا حقائق كثيرة . فهي في مجملها افكار تحمل صفات الغزو . وهي تستهدف الى تهميش الثقافات الاخرى ايا كانت واستثناؤها بعامة ، وعدم الايمان بمبدأ التعددية الثقافية بخاصة ، ذلك انها تأتي في اطار حملة تنطلق من مركزية الثقافة الاوروبية وهي ثقافة الاقوياء المفروضة على الضعفاء . وهي في المشهد الاخير النموذج الثقافي المفترض ان يحتذى ، والمرجعية النهائية التي يلتجأ اليها . وهذه هي العولمة الثقافية بابسط معانيها .

❋) وعودة الى هذه الشريحة الحداثية العربية ، فلدى استقراء خارطة المشهد الثقافي والابداعي الخاص بها فانه يفرز حقائق لا لبس فيها . فالعملية بحد ذاتها لم تكن في مجملها تستهدف تحديث الواقع العربي الثقافي بمعنى التطوير وانما كانت تستهدف هدم صروح

الثقافة العربية الاصيلة بوساطة " جرافات الحداثة لاقامة مستوطنات ثقافية غربية الطــراز والشكل والرؤى " . لقد سمحت هذه الشريحة المثقفة الحداثية العربية لنفسها مثالا لا حصرا ان تتطاول على صروح الشعر العربي ، وان تتسلل الى عــرش القصــيدة العربيــة ، وان تعريها من كل ما يمت الى عروبتها بصلة فداست على اوزانها وقوافيها ورؤاها وخطابهــا وغيرت اتجاهاتها ، واغرقتها في بحر من الاساطير والطلاسم والتهاويم ، واخرجتها مــن ساحة نضالاتها اكراما لقصيدة الثقافة الغربية . ولكي تكون تابعة لا سيدة مستقلة وصدى لا صوتا .

❋) وهي لم تقف عند هذا الحد بل تجاوزته الى مجمل الفكر العربي ، والاسس التي يقــوم عليها وتطاولت على كثير من منظومة القيم والمثل والمفاهيم العقائدية والاخلاقيــة باســم الحرية التي تنادي بها هذه الحداثة او باسم حقوق الانسان . وثمة اخيرا تساؤل يطرح نفسه في هذا السياق يخص الابداعات العربية المعاصرة تحت ظل هذه الحداثة : هل قفزت قفــزة نوعية ترضى عنها الاوساط الثقافية الاوروبية ؟ . اغلب الظن ان هذه الاخيرة فــي قــرارة نفسها لا تحترم المقلدين التابعين وتظل تنظر الى المحليات الاصيلة باحترام وتقدير .

الشعر العربي
تعريب ام تغريب

حظيت قضية الشعر العربي بمساحة شاسعة من اهتمام الباحثين والنقاد والشعراء ، وهي قضية تتناول في مضمونها موضوع الحداثة والقدامة في كل من الشكل والمضمون ، وبمنظور آخر الصراع المحتدم بين دعاة تعريبه ودعاة تغريبه . فالفريق الاول يصر على الحفاظ على هويته القومية وعلى جذوره العربية ، واما الفريق الثاني فيطالب بالحاقه في موكب الحداثة القائمة على تجريده من كل مقوماته الاستقلالية وخصائصه المميزة ، وتفرده ، وتكريسه تابعا يدور في فلك الثقافة الغربية .

وهنا يجدر بنا على سبيل التذكير ليس الا ان نعرج على اهم خصائص الشعر العربي المعرفة ومزاياه ، وهي التي تعيها الذاكرة العربية عبر تاريخها الطويل والتي تتمثل بالقصيدة العمودية المصاغة على البحور الوزنية الستة عشر ، والتي تعتمد القافية موسيقى لها . هذا من حيث الشكل ، اما من حيث المضمون والاغراض الشعرية فقد كانت القصيدةالعربية بسيطة تطرح قضية او حالة سائدة في وقتها بلغة عربية سليمة كانت قريبة من افهام سامعيها الذين كانوا يتمتعون بحس مرهف وقدرة فائقة على التذوق ، وممارسة شكل بسيط من النقد اقتضته ظروف هؤلاء المتلقين والبيئة التي كانوا يتفيأون ظلالها . كانت القصيدة مباشرة لا تعرف الالتفاف ولا الالتواء ولا الاعوجاج ، وطريقها معبدة الى اسماع هؤلاء المتلقين وقلوبهم ، وهكذا كان الشعر العربي والقصيدة العربية .اما ما يخص الاغراض الشعرية فهي لم تخرج على التعبير عن الحالات والاحوال العامة التي كانت سائدة والتي كانت في مجملها تصويرا للاوضاع العربية الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية والفكرية ، ولم تخرج عن هذه الأطر . وبالرغم من ان العرب خالطوا الكثير من الأمم التي ترجموا ابداعاتهم الحضارية والثقافية الى العربية ، الا ان الشعر العربي ظل في منأى عن التأثر بالآخرين وشعرهم . فالشعر العربي كان معتدا بنفسه الى اقصى حدود الاعتداد ، واثقا من خطاه كونه راسخا له جذور عميقة في الأرض والتاريخ والأعتزاز والانتماء .

وغني عن القول ان الشعر العربي كان يحتل مكانة مرموقة عند العرب فقد قيل قديما انه كان "ديوان العرب" ولا يزال ، واذا كانت الحضارات القديمة قد عرف بعضها بالمنجزات

القانونية وبعضها بالطبية او النحت او الفلسفة او المسرح ، فقد عرف العرب مــن خـــلال شعرهم ببحوره واوزانه وموسيقاه وقوافيه مما شكل نسيج وحدة قل ان وجد له مثيل عنـــد الامم الأخرى ، ومن هنا اكتسب الشعر العربي صورة من الوحدانية والتفرد والتميز في هذا المجال .

والشعر العربي كان ولا يزال في كثير من الأحيان الرئة التي يتنفس الشعراء من خلالهـــا حرياتهم في التعبير والتفكير وابداء الرأى في ازمنة لم تكن فيها وسائل الاعلام غير الشعر. وحتى في عصر انتشار وسائل الاعلام وهيمنتها ، فكثير من الشعراء العرب لا يجدون فـــي هذه الوسائل غاياتهم ذلك انها في جل سياساتها الدائرة في فلك الانظمة السياسية لا تتقاطع وافكار هؤلاء الشعراء. وننوه هنا الى اننا ايضا لا نتحدث عن الشعراء الذين اتيح لهم نشر اعمالهم بوسيلة او باخرى ، ولكننا ايضا نوجه اهتمامنا الى آلاف الشعراء الذين يفكـــرون ويعبرون عن ما يعتمل في جوارجهم بواسطة القصيدة ، ولكن لم تتح لهـــم فرصـــة نشـــر اعمالهم .

ويقودنا الحديث عن الشعر الى الحديث عن مكانة الشاعر العربي ، فهـــو صـــوت قومـــه ورائدهم ينطق بلسانهم ويتحدث بلغتهم ويعيش قضاياهم ويدافع عنها ، وباختصار كان منهم ولهم صدقهم القول ، وصدقوه المشاعر والتجاوب ، ذلك انه لم يجرهم الى متاهات ، ولـــم يدر بهم في دوامات الفراغ والعدم ، ولم يحلق بهم الى مجاهل الغموض والخرافة والشعوذة والطلسمة ، بل قادهم الى فضاءآت أضاءها لهم بقصائده .

واذا كنا تحدثنا عن مكانة الشاعر ومصداقيته ، فنحن هنا ايضا لا يمكننا ان نتجاهل البنيـــة التحتية التي اقيم عليها الشعر العربي ونقصد بها الفصاحة والبلاغة والبيان والمعاني ، وما الى ذلك من رقة وعذوبة وعاطفة وفحولة ومتانة وجمالية وتصوير مجـــازي واســـتعاري وخيال وحكمة وفلسفة .

هذا هو الشعر العربي الذي ورثناه عن ثقافتنا وعشعش في ذاكرتنا عبر القرون ، وما زلنا نعيش كل دقائقه التي التصقت بجوارحنا ونزلت الى اعمق اعماق وجداناتنا وتقاطعت مـــع احاسيسنا وعواطفنا . ونحن هنا لا ننكر ان الشعر كائن يتغيـــر ويتطـــور تبعـــا للظـــروف والمتغيرات المختلفة . ولكنه ربما يكون اقل تغيرا من غيره او ابطأ ، ذلك ان التغيير فـــي العادة يكمن في المضمون وتصوير الحدث الآني وكل المستجدات .ومن المعروف ان الحياة العربية ظلت حبيسة الجمود قرونا طوالا ، ودخلت عصر الاستعمار وهـــي مقيـــدة باكبـــال التمسك بالقديم والحفاظ عليه ، الا ان صورة الحياة العربية وبالذات مشهدها الثقافي اخـــذا يتغيران طبقا للظروف الجديدة وذلك منذ اواسط القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين

. ومما لا شك فيه ان الاختلاط مع الغرب الاستعماري المتحضر قد شكل مرآة يـرى فيهـا الشرق العربي نفسه لأول مرة ، او بمعنى آخر معيارا يزن ب اموره واشياءه ايـا كانـت ويحكم على ثقلها ومدى مصداقيتها وملاءمتها لروح العصر الحـديث منطلقـا مـن ذاتـه وشخصيته الحضارية والسياسية والانتمائية والتراثية ، ولكن الأمور لم تقف عند هذا الحـد فالاستعمار الاوروبي يحمل في طياته اشكالا عديدة من الاستعمار وبخاصة الاستعمار الثقافي او الغزو الثقافي الذي ارتكز على آليتي "الاقتلاع والاحلال ". ففي المرحلـة الاولـى كانـت "جرافات الغزو الثقافي" تعمل جادة على هدم البنية الاساسية للثقافـة العربيـة الموروثـة واقتلاعها من جذورها ، وذلك من خلال حملات التشـكيك بمصـداقيتها والطعـن بروحهـا وافقادها المرجعية ، وطمس ايجابياتها والتعتيم عليها ، وابراز كل سلبياتها ومثالبها بحجة عدم قدرتها على مماشاة روح العصر ومقتضياته ، ومن هنا حدث الفـراغ الثقـافي الـذي اعقبته المرحلة الثانية والتي نشطت فيها العناصر الغريبة في زرع المسـتوطنات الثقافيـة والفكرية والمفاهيم الغربية المستوردة . ولعل الشعر العربي والقصيدة العربية بالذات كانـا من بين الضحايا الاكثر استهدافا ، ذلك انهما يمثلان نمطا تفكيريا سائدا ، وخطابـا خاصـا اتصف به العرب . وهنا نود ان ننوه الى ان اكبر انتصار للغزو الثقافي تمثل في ان مثقفين عربا امتدت ايديهم الى الشعر العربي والقصيدة العربية ليس بهدف التطوير الـذاتي وانمـا لهدم صروحه والغاء هيكليته البنائية وتغيير صورته الذاتية واحلال صورة اخرى لا تمـت اليه بصلة مكانه ، وذلك بدعوى الحداثة والتحديث .

وهنا يجدر بنا ان نعرج الى موجة الحداثة التي طغت على تفكير نفر من المثقفـين العـرب وتتمثل مظاهرها وتأثيراتها بالابداعات الفكرية والادبية والشعرية .وهـي نمـوذج تفكيـر اوروبي توصلت الي اوروبا جراء ظروفها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتحرريـة المطلقة من القيم التي كانت سائدة سواء كانت تراثية او دينية وترتكز اساسا على التفكيـر المادي الصرف والمناداة بمواجهة الانسان لمصيره مسـتقلا بغـض النظـر عـن الاطـر المؤسسية الآنية والتي ينبغي التخلص من كثير منها. الا ان ما يهمنا من موضوع الحداثـة كبضاعة غربية مستوردة انها :

لا تؤمن بمبدأ التعددية الثقافية .

انها تنطلق من مركزية الثقافة الغربية

تهمش الثقافات الاخرى ايا كانت وتستثنيها بالتالي .

تفرض على العالم الثالث باعتبارها ثقافة الاقوياء بهدف تبنيها من قبل هذا العالم بصـفته عالم الضعفاء المتلقين .

وبطبيعة الحال فان الشعر العربي بخاصة والفكر العربي بعامة وقعا فريستي هذه المنظومة الحداثية ، وسارا في ركابها على يدي شعراء وكتاب ونقاد اطلقوا على انفسهم تعبير الحداثيين ، فظهرت القصيدة الحداثية كآخر ما تفتقت عنه ذهنية الحداثة وهي " قصيدة النثر" تلك القصيدة التي تخلت عن روحها الانتمائية قلبا وقالبا ولغة ، وتعرت الى الحد الذي اغرت واغوت الكثيرين لمصاحبتها ومعاشرتها لسهولة الوصول اليها . وهي قصيدة تخلت عن مفهوم القصيدة الكلي سواء الموسيقي او الجمالي او اللغوي . ونحن هنا وان كنا تحفظنا على كل هذا السيناريو الذي فرض في ظل اجواء الغيبوبة الانتمائية والسير في ظل ركاب ثقافة الآخرين ، الا اننا كنا في نفس الوقت نأمل ان يكون هناك حوار عقلاني ومنطقي قد يصل بنا في النهاية الى اقرار مبدأ تعددية الهيكلية الشعرية . الا ان هؤلاء الحداثيين لم يكتفوا بما اقدموا عليه فشنوا حربا شعواء وما زالوا على العقلية العربية بعامة والشعر العربي بخاصة ، ولعل اخطر ما اقدموا عليه انهم صوروا الشعر العربي وكأنه بلا جذور وربطوا مستقبله بالشعر الغربي ، ووضعوه في اطار تجربة الآخر والغوا تجربته الذاتية ، وجردوه من كل الاتجاهات العقلانية والانسانية والفكرية ، والصقوا به تهم الخطابية والارتجالية والانفعالية والمباشرة والتسطيح واعتماد الجرس الموسيقي والغنائية . الا ان اقسى الاحكام التي اصدروها بحقه انهم حكموا عليه بموازين الراهن الحداثي الغربي ومعاييره ، وبذلك كرسوا دونيته تجاه فوقية الثقافة الغربية ، وليس هذا في مجال الشعر فحسب وانما في مجالات كثيرة تخص اللغة العربية بكل ميادينها ، وشاهدنا على ذلك موجة التسميات المسعورة باللغات الاجنبية التي غزت العالم العربي .

وعودة بنا الى تجربة تحديث الشعر العربي لنؤكد على الحقائق التالية:

الذين يكتبون الشعر كثيرون ، ولكن الشعراء قلة .

هناك محاولات جريئة جميلة ومبتكرة تستحق الوقوف عندها ، وفي نفس الوقت هناك حالات اكثر عبثية تصدر عن نوايا غير طيبة او بمعنى آخر هدامة .

الشعر العربي الراهن يمر في حالة التجريب أي انه لم يصل الى مرحلة الاستقرار بعد .

ان ذاكرة القارىء بطيئة ، فهو لا يعي الحركات الجديدة ولا تعنيه البتة ، والمتلقون لا يجدون انفسهم في هذا الشعر الحداثي المعاصر شعر الهذيان والاسطورة والطلسمة والخرافة واللغة المبهمة .

ان الشعر الذي يفترض ان يكرس وان توطد دعائمه ينبغي له ان يكون شعرا منفتحا على جميع الثقافات ، وليس اسير عزلة وفي نفس الوقت ان يكون ذا جذور انتمائية ضاربة في الاصالة لا خارجا عليها او متمردا او منشقا او عميلا لآخر .

وخلاصة القول ان التجريب من حيث المبدأ مقبول في كل المجالات ، ولكن في حالة الشعر ثمة تحفظ ذلك ان العصر هو عصر نشوء المدارس الشعرية المتعددة والمتغيرة على الدوام ، وان نشوء مدرسة يعني الغاء سابقتها ، ذلك ان كل مدرسة تحاول عن قصد تصفية سابقتها وان تجد لنفسها افقها المستقبلي . فعلى سبيل التذكرة هناك اربع عشرة مدرسة شعرية غربية واكثر من هذا العدد من الاتجاهات ، وان مجارات هذه المدارس والاتجاهات من قبل الشعراء العرب يجعلهم مجرد ظلال ميتة لأشجار مثمرة ، واصداء لأصوات ، وبالتعبير العربي "موال لأسياد" . ان الجري وراء الحداثة المستقاة من المدارس الاوروبية قد ادخل العقلية العربية عصر الجمود والتحجر ، وان ما يحلو للبعض ان يطلق عليه مسمى الابداعات ما هو في الحقيقة الا تقليد ليس له هوية ، واذا كان البعض يظن انه من خلاله يصعد درجات سلم العالمية ، فقد اكد القائمون من اصحاب العالمية الاصيلين انها لا تنطلق الا من المحلية الصادقة .

القصيدة العربية
من نعيم الأصالة الى بؤس الحداثة

❋) "بداية اود ان انوه الى ان هذه المقالة ليست دراسة علمية اكاديمية بقدر ما هي انطباعات وملاحظات تجمعت لدي حول ما يخص موجة الشعر الحداثي ومن يقف وراءه ويحركه في اطار انسلاخ عن واقع ثقافي اصيل ، لا يهدف الى التطوير والتحديث بقدر ما يهدف الى التدمير" .

❋) لمن يكتب الشعراء ؟ هل يكتبون لأنفسهم ، ام لخاصة من ذوي الفكر والثقافة ، ام لشعراء امثالهم ، ام للناس الآخرين ؟ سؤال يبدو محيرا ومعقدا ، ذلك ان هناك مذاهب في الاجابة عنه كون الشعراء وبالذات في العصر الحاضر قد غيروا المعادلة ، فأصبح كل يغني على ليلاه ، ولكل مآرب وغايات ومسارات ولغة يحاول من خلالها الوصول الى شط أمان في غمرة معترك يخوضه مع الكلمة والرؤيا . وفي حقيقة الأمر ، لا يهمنا لمن يكتب الشعراء ، ذلك انهم في كل مجموعة شعرية او ربما قصيدة ييممون صوب اتجاه ما لغاية ما . لكن ما يهمنا هنا " ماذا يكتبون؟" ، "ماذا يحرك اقلامهم ؟" ، " وفي أي الفضاءات تسبح رؤاهم ؟ " .

❋) وقديما ، وحتى عهد قريب كان الشعراء يكتبون وهم احرار ، لم يخضعوا لأي شكل من اشكال القيود التي فرضها شعراء اليوم على اقلامهم ، او انها فرضت عليهم ، فيمموا صوب كل الأتجاهات . كان ثمة قيد واحد يشد الشعراء اليه ، هو الانتماء للفكرة ، للعقيدة لاسلوب الحياة التي درجوا عليه ، للناس الذين احبوهم ، للجماعة الانسانية التي خرجوا من بين ظهرانيها ، للثقافة القومية التي تجذرت في ذاكرتهم .ويومها لم تكن هناك مدارس ولا اتجاهات نقدية او ادبية استوردها البعض "لزج حرية الابداع واصالته خلف قضبان الحداثة " . ويومها لم يستفحل الترف الأدبي بعد حتى يفرز اولي امر يطفون على سطح الابداع حراسا لنقائه واستمرارية حداثته ، محللين محرمين ، مانحين تأشيرات مرور لابداع دون آخر ، ومبشرين بعهد تنحر فيه رؤاه القومية في مذبح العولمة .

❋) ويوم بشر اول مبشر بالحداثة الشعرية ، فهمناها وفهمها كل غيور على ثقافة الوطن على انها تجاوز لراهن الجمود وعدم وقوف وتحجر عند اطلال الماضي والنسج على منواله . ونظرنا اليها على انها انطلاقة الى فضاءات ومدارات نستمطر منها رؤى جديدة لواقع

جديد حفاظا على ديمومة العطاء واستمراريته وتجدده ، وانها بادىء كل ذي بـدء وليـدة منظومة التاريخ والتراث والرؤية العربية ، تنطلق منها وتعود اليها .

❋) الا ان هذا المنظور القومي للحداثة اغتيل في مهده العربي على ايدي دعاة حداثة اخرى تسري في شرايينها دماء العولمة الثقافية القائمة على "الابدال والاحلال" ، ابـدال الثقافـة القومية موروثها ومعاصرها ، واحلال ثقافة السيد الغربي الذي لا يهادن ولا يتعايش الا مع ثقافته هو، وتشكل الثقافات الاخرى مصدر خطر وتهديد له واعاقـة لاسـتكمال مشـروعه العولمي الشامل .

❋) وفي عالم الكتابة الشعرية ، زحف اعصار الحداثة القادم من اصقاع الشـمال البـاردة جنوبا الى اجواء القصيدة العربية الحارة ، فجمد بحورها ، واخرس موسيقاها ، واعتقـل قوافيها وجردها من حليها ، وعراها من تفردها وتميزها وخصوصـيتها ، وقـدمها الـى محاكمة سريعة بتهمة الخطابية المباشرة ، والارتجالية الانفعالية ، والسـطحية الفكريـة ، والتخلف وعدم مسايرة روح العصر . وتمخض "جبل الحداثة " ليلد "فأر قصيدة النثر" . والى عهد قريب كانت وما زالت :القصيدة الحرة" التي على ما يبدو سوف تطيح بها "قصيدة النثر" لتنتهي بذلك كل علاقة وصلة بالقصيدة العربية الاصيلة شكلا ومضمونا . اما الشـكل فـلا بحور ولا قواف ولا اوزان ولا تفعيلات . اما المضمون فهو الاخر اعتمد على لغة ظاهرهـا عربى ، الا ان باطنها غير ذلك ، ذلك ان العربية هي لغة الفصاحة والبلاغة . وهذه اللغـة مبهمة مخادعة ماكرة متعالية لا تحترم عقل المتلقي وتلتف على ادراكاته وتشعره انه ناقص ، وان طرحها هو فوق مداركه . وفي الحقيقة ان نعتها بلغة ما هو الا من قبيل المجاز وفي الواقع هي "لغات" لا حصر لها ولا عد وكل شاعر من شعراء هذه الموجة له لغة منهـا ، لا يمكن لاي لغوي في كثير من الاحيان ان يفهم تراكيبها والعلاقة بين مفرداتها ومدلولات هذه المفردات ، او الصلات ما بين سطر واخر . ثمة اضاءة واحدة في خضم هذا الفضاء الغارق في الحلكة يخص ما يمكن ان تسقطه هذه اللغة فترسم لنا عواطف مضطربة منهكة مهترئة تتقيأ اضغاث رؤى اعياها العبث فتهشمت قبل الوصـول . ان قصـيدة الحداثـة بشـكليها المذكورين آنفا هي بمثابة رحلة عودة الى المجهول والتهويم حقائبهـا محملـة بالطلاسـم والاساطير في عصر قضى فيه العلم والمعرفة والتقنية عليها .ان قصيدة الحداثـة ليسـت عربية الجذور والمنتمى والتاريخ ، تسللت في عتمة ليل الثقافة العربية الحالك لكي تغتـال تاريخا وتراثا وذاكرة .

❋) لقد استبيحت القصيدة وابيحت لكل من يدعي فروسية الشعر ، فوجدها مطية سـهلة ، فصال وجال وملأ الميدان غبارا يظنه الجاهل سحابا ، وما هو الا سراب . ولكي ننتقل مـن

المجرد الى المحسوس ، نتساءل هل حقا ان شعراء الحداثة يكتبون ليجعلوا القارىء المتلقي يحلق معهم الى مزيد من التفكير ، او ان يفكر بالمعاني التي طرحوها ورسموها لــه علــى خارطة قصيدتهم ؟ وهل هم حريصون على ان يأتي هذا المتلقي بصور جديدة تضاف الــى صورهم ؟ وهل هم حقا يعملون بهدف تجسيد ثقافة التلقي ؟ . وما زلنا نتساءل هــل لــدى هؤلاء الشعراء قواعد ضابطة ومعايير تحدد مساراتهم اللغوية ؟ اننا نشك في ذلك ، فحقيقة الامر كما يبدو انهم يكتبون لكي يقال انهم معاصرون مجددون ينطلقون من مدارس مجــددة يرودها نقاد حداثيون عالميون في تطلعاتهم ورؤاهم . والحقيقة انهم سادرون في كتــابتهم سواء فهم المتلقون ام لم يفهموا هذه الشعوذة اللغوية ، اذ يبدو ان الهدف هنا لــيس هــو الفهم بقدر ما هو الغموض ، وليس هو التجلي بقدر ما هي الحيرة ، وليست في النهاية هي اوراق شاعر ، بقدر ما هي رقى ساحر . اغلب الظن انه لا هذا ولا ذاك هو الهدف مــا دام هذا المتلقي لا يفهم شيئا من هذه اللغة ، وقبله لم يفهم اللغويون الحقيقيون هذه اللغة .

❋) في غمرة هذه المتاهة تظل القصيدة العربية الأصيلة بكل اشكالها العموديــة وقصــيدة التفعيلة رمزا للأصالة ومنارا للانتماء وجهاز مناعة فاعلا وحصينا في وجه تحديات عمليات التذويب والتغريب. ويظل الشعر بخير ما دام هناك شاعر واحد يرفض هذه الحداثة الضــالة المضلة الدخيلة على تاريخنا وعلينا . واما المتلقي فله كل الاحترام والتقــدير ، فهــو فــي النهاية مصب الابداع وينتهي عنده . وعندما يكتب المبدعون والشعراء الحقيقيــون فــانهم يفكرون به حاملين له الوطن والحب والجمال وكل المشاعر الانسانية على اجنحة قصائدهم لتدخل بسلام الى كل جارحة من جوارحه ، فتسافر به الى فضاءات تلون مشاعره وتنقلهــا من حالة الجمود الى حالة الحركة ، وتحدث بها ايقاظا من غفوة ، لا صدمة ولا تهويما ولا سفرا الى مجهول وضياع .

في معترك الذود عن حياض التراث الثقافي:
لماذا الشعر العربي ؟

❋) اثارت مؤخرا احدى القنوات الفضائية العربية موضوع الشعر العربي ، ووضعته في دائرة الضوء والحدث ، وطرحته ساحة للنزال بين فرسانه ومبدعيه ونقاده وعشاقه الغيورين على اصالته باعتباره واسطة عقد التراث الثقافي العربي الذي يختزن في كل نبضة قافية من قوافيه اضاءة في فضاءات الضمير العربي ، ويجسد كثيرا من ملامح الشخصية العربية والاعتزاز الابداعي من جهة ، وبين اولئك الذين خرجوا عليه بدعوى انهم يريدون ان يضخوا له دما جديدا في عروقه ، وان يطلقوه من قمقم التقوقع الى رحاب فضاءات الانطلاق ، ومعايشة متغيرات العصر في الانسان العربي والاشياء المحيطة به .

❋) ومن حيث المبدأ فليس ثمة اعتراض البتة على ان يخوض الشعر العربي غمار فعاليات التطور الطبيعي التلقائي النابع من ضمائر مبدعيه واهله وذويه اسوة بكثير من الابداعات الانسانية مادية كانت او غير ذلك . ففي اعتقادنا ان هذا لا بد حاصل عبر قنوات التغير الحتمي في الانسان العربي وتطور مناحي حياته الأخرى . لكن الملاحظ هنا ان ما يتعرض له الشعر العربي بالذات يتعدى حدود ما يفترض ان يكون . فمن خلال هذه الدعوة المشكوك في نواياها، وضع مجمل الحياة العربية في مرمى الاتهام والقذف والتشهير والطعن والصاق النعوت السالبة التي تفوح منها رائحة التحقير والدونية والسذاجة والخرافية والسطحية والاسطورية والفردية الانانية ، وذلك كله يأتي رجما لمنظومة الفكر والتفكير والتقاليد والقيم العربية والابداعات وفي طليعتها الشعر العربي بالذات .

❋) وقبل الخوض في موضوع الشعر العربي وما يتعرض له ، ثمة حقائق تخص طبيعة التغيير وبخاصة في المجالات الابداعية الانسانية غير المادية في مقدمتها انه ينبع بداية من الداخل ، ولا يفرض فرضا من منظور فئة ما ، ولا تستورد قوالبه من ثقافات وابداعات غريبة ، وهذا بعكس ما يجري في الساحة العربية . فالذين اطلقوا على انفسهم مسمى"الحداثيين او رواد الحداثة" تجردوا في الواقع من صفة الابداع المحلي الوطني منه والقومي ، فكانوا مجرد مستوردين لقوالب ثقافية من فائض الحضارة الغربية التي بهرتهم واسكرتهم حتى الثمالة ، فاتخذوها مرجعية لهم . وفي غمرة غيبوبتهم الانتمائية اخذوا على عاتقهم افتتاح وكالات لتسويق بضاعاتهم التي استوردوها ، ظانين ان المتلقين العرب ايا

كانوا سرعان ما سيقلعون ثقافتهم وانتماءاتهم الاخرى ويخرجون من جلودهم ، وانهم في ما يخص ما نحن بصدده سوف يحاكمون الشعر العربي عبر عصوره ، وانهم سوف يصلبونها على اعواد حداثتهم ، وانهم سوف يجففون بحوره ، ويحطمون اوزانه ويخرسون موسيقاه ويغتالون قوافيه تمهيدا للغازي الجديد الذي يرطن بلغة طلاسم لا يفهمها حتى اصحابها ، لا تمت بأدنى صلة الى الشعر ، لغة غارقة في التهويم ، مقطعة الاوصال ليس بينها أي اتصال ، سابحة في معاني غريبة عن واقع الذات العربية محبطة لكل قيم الجمال والانتماء في شرايينها .

❋) ان مشكلة هؤلاء الحداثيين انهم لم ينطلقوا من الذات العربية ، وانهم منذ البداية تقمصوا ثقافة الآخر ومفاهيمه ورؤاه ونصبوا انفسهم في ابراج ، وقاموا بالتنظير على مقدرات امتهم الثقافية والفكرية ما ينبغي وما لا ينبغي من منظور تفوح منه رائحة الاستعلاء والفوقية والانخراط صفا واحدا ، سواء بقصد او غير قصد ، مع كل اعداء الأمة السياسيين والاجتماعيين والثقافيين وغيرهم .

❋) ان موضوع المساس بالشعر العربي خطير للغاية ، ذلك انه قلب الثقافة العربية النابض ووجدانها الحي . ولكننا مع ذلك نؤكد ان اضافة اضاءات في سماء فضاءاته شيء ، وتدمير بناه الاساسية من جذورها شيء آخر . فالشعر العربي امتداد تراث له من القداسة والخصوصية والتميز والشمولية بحيث انه لا يخص فئة واحدة في الوطن العربي اقل ما يقال فيها انها تتآمر عليه لكي تغير لونه وشكله وطعمه ومذاقه ورائحته وانتماءه الى الارض التي اخرجته والهمته ، والى الانسان الذي تغنى به بعفوية وببساطة فجرى على لسانه فائضا دفاقا من احاسيسه ومشاعره وجوارحه الأخرى سهلا ممتنعا يروي تاريخا للأجيال يفوح منه اريج الكبرياء والشمم والاباء والكرامة والاريحية والحمية والبطولة ، ويحكي قصة عشق الانسان العربي لكل ما هو جميل .

❋) والسؤال الذي يطرح نفسه هنا بالحاح : لماذا الشعر العربي بالذات ؟ وفي اعتقادنا ان الخطاب الشعري العربي هو مدرسة تربوية نشأت عليها الاجيال العربية وتربت عبر العصور، ولدى تحليل مكونات الاسس التربوية والقيمية العربية فان الشعر العربي الاصيل يحتل منها مساحة شاسعة ممتدة الاطراف عبر سنوات طوال من التحصيل الاكاديمي في كل مراحله . وعلى سبيل المثال الضيق لا الحصر ربّى الشعر العربي الانسان العربي على عزة النفس وفضيلة التضحية والذود عن حياض الوطن ، وعلّمه ان السيف اصدق واجدى في الدفاع عن العرض والارض والشرف ، وسافر به عبر مسارات من البهجة والحبور والتجلي ، ولمس شغاف قلبه بكلمات الحب والعشق ، وحلق به الى عوالم اخرى على

اجنحة الفلسفة والفكر والحكمة . فكان بحق ديوان العرب ورفيق رحلـــتهم مـــع الحيـــاة ، وذاكرتهم مع الايام .وهذه المعاني وغيرها ، يريد "شعر الحداثة" عبر مولوده غير الشـــريع "قصيدة النثر" ان يطمرها وبالتالي ان يلغيها ، وان يجر الانسان العربي الى دوامـــات مـــن التهويم والخرافة والذاتية المريضة القلقة والاسطورة وان يجعله يسير على غير هدى مـــع مفرداته وتكويناته ، ويريد منه ان يكون "الغاوي الذي يتبع شعراءه" وان يهيم معهم في كل واد يهيمون به . ان الانسان العربي بحاجة الى هذه القيم والمعاني التربوية التي فاضت من ينابيع الشعر العربي ، حاجته الى الماء والهواء في هذا العصر الذي تكالبت فيه عليه قوى الشر والعدوان ساعية ان تجرده من مقومات وجوده ليسهل افتراسه . ان الشعر العربي لن يغلق عليه الابواب ، ولن يتقوقع كما يظن هؤلاء . وان ساحاته وآفاقه من الرحابة بحيـــث تستطيع ان تستوعب تيارات التجديد والتحديث . لكنه يرفض بكل اباء ان يقتلع من جـــذوره او ينزل من على صهوة جواد فارسه العربي ، او ان يستبدل كوفيته العربية بقبعة الخواجا . وسيظل الشعر العربي الاصيل تلك الشمس التي تضيء نهارات الانسان العربـــي ، وذلـــك القمر الذي ينير لياليه بالحب والشوق الى الحياة الجميلة .

تحت ظلال المجامع اللغوية:
اللغة العربية .. مخاطر التراجع

❋) حينما نتحدث عن اللغة العربية ، فبالاضافة الى كونها لغة القرآن الكريم والحديث الشريف والعلوم الحياتية الاسلامية بكافة اتجاهاتها واشكالها ، فهي ايضا ذاكرة الحضارة العربية الاسلامية ببعديها المادي واللامادي ، وهي احدى اهم ركائز الانتماءين القومي والعقائدي . وفي التاريخ السياسي المعاصر للاقطار العربية تصدرت اللغة العربية المواد الافتتاحية الرئيسة للدساتير العربية التي اعلنت بكل وضوح لا لبس فيه انها هي اللغة الرسمية بكل ما ذكر آنفا يمكن الاستنتاج المطلق ان اللغة العربية تأتي في المقام الاول ولا تدانيها اية لغة اخرى ولا حتى تقف الى جانبها فهي لغة الحديث والقراءة والكتابة والاعلان والاعلام والتسمية والخطاب على طافة المستويات . وهي اولا واخيرا المركب الاساسي لضمير الامة والاضاءة الاكثر اشراقا في فضاءات تكوين الشخصية العربية ، وجزء لا يتجزأ من كرامتها ، وعامل رئيس في وحدتها المنشودة .

❋) وبصفتها كائنا عضويا –وهي بهذا لا تختلف عن بقية اللغات الاخرى– يمكن ان تتعرض للاصابة بحالات توقف النمو فالتراجع فالتقزم ، كما انها يمكن ان تتطور بصورة مضطردة مستجيبة لكافة التحديات التي تفرضها المتغيرات العلمية والتقنية . لقد شهدت اللغة العربية في الماضي عصور ازدهار كونها كانت لغة القران الكريم والحكم الاسلامي والادب والعلم ، كما انها شكلت رافداً رئيساً من المرادفات والمصطلحات لكثير من لغات الشعوب الاسلامية الحالية والتي اعتمدت الابجدية العربية . وفي نفس الوقت مرت عليها عصور من الانحطاط والتراجع ، ويرجع الفضل الاول في حفظها وحمايتها من الاندثار الى القرآن الكريم . وفي العصر الحاضر والى جانب الكم الهائل من الموروثين الديني والادبي بكافة اشكالهما ، فان احدى اهم الاليات واكثرها نجاعة والتي يمكن بواسطتها ان تزدهر اللغة بمفرداتها ومصطلحاتها وتصبح قادرة على استيعاب كافة اشكال العلوم الانسانية والتعبير عنها ، ان اهم هذه الاليات على الاطلاق هي المجامع اللغوية التي يفترض بها انها الاقدر على رعايتها وتعهد تطورها وحمايتها من التراجع والمحافظة على مكانتها وطابعها وتميزها وخصوصيتها ، مكونة بذلك جهاز مناعة يقيها من عوامل الغزو الثقافي السالبة ، وهي لذلك تكرس شتى الوسائل التقنية والاساليب العلمية الاكثر حداثة، وباسطة ظلال

تأثيرها على كافة المستويات السياسية والتربوية والثقافية والاعلامية والعلمية لتفعيل كل الوسائل والاهداف ذات الشأن .

❋) وفي الوطن العربي تأسست منذ زمن مجامع لغوية في كثير من الاقطار العربية . ولسنا هنا بصدد الحديث عما يدور داخل اروقة هذه المجامع ، او مناقشة اهدافها الخاصة باحياء التراث والبحث والتأليف والدراسات المقارنة ، ولا ما تتوصل اليه من قرارات عبر مؤتمراتها وندواتها ، ولكننا سوف نتناول في حديثنا بعض الجوانب التي تهم الشارع العربي وتلفت النظر اكثر من غيرها ، وتشكل بؤرة خطر حقيقية على اللغة العربية . وبهذا الصدد فاننا لا نرى ضيرا في الحديث عن بعض المظاهر السالبة التي لم تتمكن المجامع اللغوية من ايجاد حل لها ، او انها لا تعيرها الاهتمام الذي تستحقه . وهنا نود ان ننوه ان "الازدهار" في انتاج البحوث داخل هذه المجامع تقابله صورة اخرى اكثر واقعية في الشارع العربي يمكن ان نطلق عليها تعبير "التراجع" . وهنا فاننا نتساءل عن كمية المفردات التي ادخلت الى القاموس العربي والتي خرجت الى النور والتداول في الاسواق العلمية والتقنية والثقافية الاخرى ، ورسخت في ذاكرة المواطن العربي واستقرت ودرجت على لسانه بالتالي ، وفي نفس الوقت نتساءل عن مصير تلك المفردات والمصطلحات التي بذلت مجهودات كثيرة لاستحداثها نحتا او اشتقاقا ، ولكنها ظلت "مكمورة " في بطون الكتب والبحوث ولم تر النور ، او انها بصحيح العبارة ولدت ميتة .

❋) وهنا لا بد لنا من التنويه الى ملاحظة هامة تتعلق بطبيعة عمل هذه المجامع اللغوية . فهي منذ تأسيسها حتى اللحظة ظلت تدور في فلك النظرية والتجريد ، ويبدو ان جل الاهتمام كان منصبا على الجدال والغوص اللامنتهيين والهادفين اولا واخيرا الى ايجاد مفردات مرادفة ليس الا . ولكي لا نتجنى عليها فاننا نقدر لها كل مساعيها الحميدة الاخرى التي اشرنا اليها انفا ايا كانت . الا انها ومع ذلك وكما يبدو كانت ولا تزال تعمل في برج عال بعيد عما يدور في الشارع العربي المعاصر . فاللغة العربية تتعرض الى حملات غزو خارجية على ايدي لغات اجنبية اسفرت عن عمليات "استيطان لغوي اجنبي دخيل" آخذ في اقتلاع الابجدية العربية الامر الذي بدأنا معه نشاهد التراجع والانحسار في مكانة هذه اللغة التي بدأ جدار المناعة الانتمائية الثقافية والتراثية ينهار شيئا فشيئا جراء الغزو الثقافي ، وبفعل ارتماء شريحة مثقفة في احضان الثقافات الواردة وهي شريحة متنامية العدد والتأثير وبخاصة في عصر ما يسمى "بالحداثة والعولمة" ، وخلخلة عرى التواصل والارتباط بين الانسان العربي ولغته بصفتها احدى مقومات وجوده القومي والحضاري ، وبفعل ضعف

الاجهزة التربوية التي لم تعد تفرد لها مساحة من الاهتمام جراء مزامحة لغات وموضوعات اخرى ، وباختصار تآكل الشخصية الثقافية العربية .

❋) ولكي ننتقل من المجرد الى المحسوس نرى لزاما علينا ان نعرض بعض ما تتعرض له العربية من تحديات خطيرة تمثلت في موجة التسميات باللغات الاجنبية وبخاصة اللغتين الانجليزية والفرنسية . وقد شملت هذه الموجة الاسماء الشخصية وبخاصة اسماء الاناث ، والمحال والعلامات التجارية واسماء الشركات والمطاعم والفنادق ورياض الاطفال والمدارس،والمواد الغذائية والملابس والادوات والادوية والمجلات والنشرات الاخرى وكافة المنتجات الصناعية . ولعل اخطر ما في الامر ان هذه التسميات تعكس من وجهة نظر الذين يقفون وراءها ويمارسونها دلالة رقي وحضارة واعتراف ضمني واحيانا علني بفوقية هاتين اللغتين ، وبمعنى آخر مواز لكل ما يجري يمكن استقراء موجة تهميش وتقزيم للغة العربية والنظر اليها بدونية . ان خارطة اللافتات والشاخصات التجارية وحدها في العواصم والمدن العربية الاخرى تعكس بكل وضوح الصورة المحزنة لواقع اللغة العربية ومدى التراجع ، ونكران الجميل الذين حلا بها على ايدي ابنائها . وثمة مظهر أخر لا يقل خطورة عما اسلفنا يتمثل بشريحة واسعة من السياسيين العرب الذين يصرون على عدم استعمال العربية في مؤتمراتهم الدولية بكافة اشكالها مع ان العربية هي واحدة من اللغات الست المعترف بها دوليا والمتداولة في كافة اجهزة الامم المتحدة والمؤسسات التابعة لها . وهذا يجرنا الى الحديث عن "الاهتمام" المكرس للعربية في المؤسسات التعليمية والتربوية العربية بكافة مستوياتها ومراحلها مقارنا بالاهتمام الذي تحظى به اللغتان الانجليزية والفرنسية . ولعل ابسط مؤشر على ذلك تساوي مجموع الحصص المخصصة للعربية والانجليزية ، وبمعنى أخر فالعربية لا تحظى في غالبية المناهج التعليمية ولا يشفع لها كونها اللغة الرسمية بأي امتياز . ويمكننا ان نضيف الى كل ذلك ما نلمسه ونلاحظه ونسمعه ونقرأه من اخطاء فادحة يرتكبها المثقفون والخريجون وهم يتحدثون بلغتهم الام ، في حين ان هؤلاء يحرصون ان يتقنوا لغتهم الاجنبية دون اية اخطاء ويعتبرونها مظهر رقي وحضارة . وان سلسلة الاخطاء اللغوية الفاضحة التي يرتكبها المذيعون والمراسلون الاعلاميون وغيرهم اصبحت امورا عادية وهي ان دلت فانما تدل على ان هناك "عاهة وعلة" تكمنان في اساليب تعليم العربية في المؤسسات التعليمية الدنيا والوسطى والعليا . ونقف عند هذا الحد ولكننا نعترف اننا لضيق المجال لم نحص كل المشكلات .

❋) انما تعانيه اللغة العربية هو اكثر بكثير مما نستطيع في هذه العجالة ان نتناوله . فلغة الضاد كانت ولا تزال مهددة بشبح انتشار اللهجات العامية الدارجة التي تقف وراءها جهات

مشبوهة تهدف الى تقطيع اوصال الامة العربية وتوسيع مساحة الفرقة والتقوقع الثقافيين ، ويكرسان التباعد القومي وسيادة الاقليمية الضيقة . وحتى الدعوة الى ما يسمى "اللغة الثالثة" فهي الاخرى تشكل انتهاكا لفضاءات العربية وتخفيض مستوى سنا اضاءاتها . وفي هذا الصدد فنحن لا ننسى ايضا دعاة تغيير الابجدية العربية واحلال الابجدية اللاتينية محلها ، ولا أولئك الذين ينادون بالتحرر من قواعد اللغة العربية اسوة "بالتحرر" الذي فرض على الشعر العربي من قوافيه واوزانه .

❋) وعودة الى المجامع اللغوية ، ولكي لا نظلمها فنحن نقول انها يفترض بها ان تضيف الى برامجها وبحوثها واهتماماتها هذه المشكلات وان تحاول ايجاد حل وعلاج شافيين لها . ولكننا نستدرك بانها اذا كانت تعي هذه المشكلات فان عليها ان تقوم بتفعيل منهج علمي واع ومدرك لخطورة الاوضاع التي آلت اليها العربية وما يمكن ان تؤول اليه لاحقا ، اذ ان الواجب القومي والامانة يفرضان تغيير بعض الاساليب المتبعة حتى الآن . ونحن هنا نذكر انه حتى في مجال المفردات المرادفة ــ وهذا مثال لا حصر ــ لم تحقق المجامع اللغوية الا جزءا يسيرا لا يكاد يذكر من المهام الملقاة على عاتقها ، والنتيجة ان الاعلام المقروء والمسموع والمرئي ، والشارع بكل اتجاهاته ، والنشرات الصادرة والبحوث العلمية ظلت تردد الكلمات والمصطلحات الاجنبية ، وظل التعريب قاصرا امام التغريب .

❋) وما دمنا بيصدد التعريب والتغريب فان لنا في تجربة الجزائر عبرة وخبرة . فقد اصدرت مؤخرا "قانون التعريب" بقرار سياسي اعاد للغة العربية مكانتها في شتى مجالات "التعليم والاعلام والاعلان والخطابات والتصريحات والرسائل وكافة اشكال الكتابة" على المستويين الجماهيري والرسمي . وما يهمنا هنا هو حقيقية المشاعر الجزائرية القومية التي كانت وراء استصدار هذا القانون واصرارها على تطبيقه رغم كل التحديات والمعوقات والمواقف السلبية المعادية في داخل الجزائر وخارجها .

❋) وخلاصة القول ان المجامع اللغوية مطالبة ان توحد جهودها في كافة اقطار الوطن العربي ، وان تستشعر خطورة ما آلت اليه العربية من تراجع لمكانتها ، وتقدم لمكانة غيرها ، وان تتدارس الحلول بجدية ، وا ن تفرض وجودها بشكل اوسع واكثر تأثيرا وفاعلية عبر قنوات اتصال مع صناع القرار السياسي كيما يصل تأثير هذه المجامع الى المؤسسات التربوية والى الاعلام والشارع التجاري لعلها بذلك تحدث تغيير الصورة الكئيبة . ونود ختاما ان نؤكد اننا لسنا ضد اللغات الاجنبية ، ونرغب في تعلمها واتقانها ، ولكن بشرط ان لا تحل مكان لغتنا القومية او ان تنتقص من قدرها وقيمتها على كافة المستويات .

أيـــام .. في المغرب

(الجزء الأول)

❋) فجأة تعود بي الذاكرة الى ماض بعيد وايام خلت لم تقــو غائلـــة النســيان ولا طــول المسافة الزمنية على محوها . يومها كنا ما زلنا على مقاعد الدراسة الابتدائية نسافر علـــى اجنحة الحب عبر خارطة الوطن العربي الكبير جيئة وذهابا نردد الاناشيد الوطنية عن ظهر قلب ، تلك الاناشيد التي شكلت آنذاك وما زالت مساحة شاسعة من انتماءاتنــا القوميـــة ، واضاءت فضاءاتنا عبر رحلة الايام بالأمل الذي ظل صامدا فـــي وجـــه التحـــديات ، وروت ارواحنا المتعطشة لتحرره وحريته وسيادته ووحدته . وان كنت انسى فلن انسى ذلك النشيد الذي رددته ورفاق الصبا وما زال صداه اللامنتهي يدوي عبر الســنين والأيـــام ، يعطرهـــا بأريج التاريخ العربي الفواح بالعزة والسؤدد :

بلاد العرب اوطانـــي – من الشام لبغـــدان

ومن نجــــد الى يمن – الى مصر فتطــوان

واذا كانت الشام ومصر وكذلك بغدان وهي اسم من اسماء بغداد عاصمة العراق الأبي سهلة الوصول اليها ، وربما لا تكون نجد ولا اليمن بعيدتين لمن يقصدهما ، الا ان الســفر الـــى تطوان والاقامة فيها ظلا احتمالا بعيد التحقيق بالنسبة لي او انهما لم يخطرا في بالي . ذلك ان هذه المدينة كانت مجرد نشيد قومي سكن اللاشعور من ذاكرتي ظل بعيــدا عـــن حـــدود الجغرافية يسافر في جوارحي عبر رحلة الانتماء من مشرق الدنيا العربية الى مغربها . الا ان الامور تأتي احيانا على غير ما يفكر المرء ويعتقد ، فما هو مختزن في قرارة اللاشعور قد يطفو مرة اخرى على سطح الواقع والحقيقة . وذلك ما حدث يوم قابلت الأخ رئيس بلدية نابلس وابلغني انه تم اختياري لزيارة المملكة المغربية ومدينة تطوان بالذات وهـــي التـــي تربطها علاقة توأمة بمدينة نابلس ، للمشاركة في احتفالات عيد الكتاب الدولي الثالث المقام فيها والفعاليات الثقافية المرافقة له ممثلا لمدينة نابلس وبلـــديتها فـــي اطـــار المشـــاركة الفلسطينية للمركز الثقافي الفلسطيني في العاصمة المغربية الرباط .

❋) وبقدر ما اثلج هذا الخبر صدري ، وزادني اعتزازا بوطني ، بقدر ما ادهشـــني. فمـــن يصدق وبعد كل هذه السنين الطوال التي تبدو وكأنها العمر كله انني سأزور هـــذه المدينـــة التي رددت اسمها في الصبا كواحدة من منظومة مدن وطني العربي الكبير . لكنها الحقيقـــة الحلوة هذه المرة تطل على وقع انغام النشيد الخالد الذي تردده الجوارح ليل نهـــار لـــيعلن

للدنيا ان العروبة بخير وان الوحدة في المشاعر والاحاسيس والفكر وبين الانسان العربي واخيه العربي وان كانت ما تزال اسيرة الحواجز والحدود في المفهوم الجغرافي .

❋) شددت الرحال جوا الى المملكة المغربية عن طريق باريس وبعد حوالي عشر ساعات كنت اتجول في شوارع مدينة الدار البيضاء . وهي ترجمة حرفية للاسم الاسباني "كازابلانكا". فالاسبان هم اول من بنى هذه المدينة . والدار البيضاء هي العاصمة الاقتصادية للمغرب وتقع على المحيط الاطلسي ، ويتجاوز تعداد سكانها اربعة ملايين نسمة ، وتمتاز بمبانيها وعماراتها الشاهقة التي تعكس فن العمارة الحديثة ، وكذلك بمينائها البحري ومطارها الدولي وفنادقها السياحية الفخمة وميادينها الفسيحة . الا ان اهم معالمها الحضارية والهندسية التراثية الدينية يتمثل في "مسجد الحسن الثاني" الذي شيده الملك الراحل الحسن الثاني . وهو مقام على قاعدة فوق مياه المحيط الاطلسي ، ويشكل بحق تحفة هندسية مغربية رائعة يتجلى فيها الطابع الاندلسي الاسلامي التراثي . وهو من الضخامة والفخامة والاتساع بحيث انه يلي الحرم المكي الشريف ، علاوة على كونه شاهدا على ما يتمتع به المهندس المعماري المغربي من فن وخبرة وذوق واحساس بالأصالة والتصاق بالتراث وقدرة على استيعاب كل معطيات الحداثة.ولم تكن نشوة التجلي الروحانية من دخولي صحن المسجد الفسيح ومن ثم الصلاة في رحاب غابة اعمدته الرخامية الداخلية تعادلها اية نشوة تجل اخرى . وستظل زيارته ذكرى لا تقوى الايام مهما طالت على محوها .

❋) وتمضي الساعات وتقترب ساعة مغادرتي مدينة الدار البيضاء ، حيث التقيت صدفة وبدون موعد وفدا فلسطينيا آخر يتكون من موفدين يمثلان بلدية "الدوحة" الفلسطينية – وهي بلدة قرب بيت جالا– قدما الى المغرب لذات الغرض . وقد خيرني المرافق المغربي بين السفر بالطائرة الى مدينة "طنجة" وحيدا ومن ثم الى تطوان ، والمسافة عندها تكون اقل من ساعة ، وبين السفر برا برفقة الوفد الآخر ، وعندها تستغرق الرحلة اكثر من ست ساعات . وعلى الفور اخترت السفر البري رغم طول المسافة . فالمغرب يتمتع بتضاريس متنوعة حباها الله جمالا وسحرا فكسا سهولها وجبالها بالخضرة الدائمة ، فحيث توجه الانسان بنظره كانت هناك غابات فسيحة من الاشجار المورقة الخضراء ترصع الطبيعة المغربية وتلونها بجمال اخاذ .

*) كان اتجاه السفر نحو الشمال ، وبالتحديد نحو الريف المغربي الذي كان يعرف زمن الاستعمار "الريف الاسباني" . وكما هومعلوم فقد كان المغرب مقسما آنذاك بين الاستعمارين

الاسباني في الشمال واما الوسط والجنوب فكانا تحت الحماية الفرنسية . والمسافر في طرقات المغرب يلاحظ ان هناك نوعين من هذه الطرقات . يتمثل النوع الأول "بالطرق الوطنية" التي اقامتها الدولة والتي تمر عبر القرى والبلدات والمدن . واما النوع الثاني فهو "طرق الأداء" وتمتلكها شركات استثمارية ، وهي احدث اشكال الطرق التي تلتف حول المدن ، وهي ذات اتجاهين وتتمتع باحدث المواصفات العالمية واكثرها امانا ، ودخولها لقاء رسوم مالية يحددها طول المسافات المقطوعة . ان السفر عبر الطرق المغربية الخارجية تجربة ممتعة تجتمع للمسافر من خلالها ثلاثة عناصر ترافقه طوال رحلته : الطبيعة الجميلة الخضراء ، والطرق الفسيحة الحديثة الآمنة . وفي رحلتنا هذه ثمة عنصر ثالث يتمثل في مياه المحيط الاطلسي التي ما ان تتوار عن الانظار حتى تعود وتظهر مرة اخرى الى ان هبط الليل ، وعندها اطل القمر والنجوم وبدأت ليلة سمر فلسطينية مغربية تعطرها احاديث لا تنتهي عن فلسطين والمغرب والعروبة التي أبت الا ان يكون هناك تواصل على مر الأيام بين ابنائها مهما نأت بهم المسافات وباعدتهم الايام .

يتبع ......

أيـــام .. في المغرب

(الجزء الثاني)

❋) وصلنا الى الرباط العاصمة السياسية والادارية للمملكة المغربية . وهي مدينة جميلـــة هادئة اضفت عليها اضواء الليل سحرا خاصا بها فراحت تزهو بقصورها ومبانيها الحديثـــة واناقتها البادية للعيان وسط بحر من الغابات الشجرية الخضراء والحدائق الغناء .توقفنا عند منزل الوزير المفوض الفلسطيني السيد " محمد زكريا العلمي " الذي استقبلنا بحرارة الشوق للوطن واهله ورحب بنا كثيرا . تحدثنا عن الوطن ، وحدثنا هو عـــن المملكـــة المغربيـــة الشقيقة وعلاقاتها المميزة مع فلسطين ووقوف شعبها الشقيق الى جانب الشعب الفلسطيني مؤيدا قضيته وتطلعاته نحو الحرية والاستقلال والسيادة . وقد افاض بالحديث عن الجهـــود الخيرة التي يبذلها في سبيل تطوير مكتبة المركز الثقافي الفلسطيني في الربـــاط ، والتـــي يعتبرها آلية ضرورية لاطلاع الاخوة المغربيين على كل ما يمت الى فلسطين قضية وثقافـــة ونضالا واعلاما وتاريخا بصلة . وقد ابدى سروره لمجموعة الكتب الفلسطينية التي حملتها معي هدية من مكتبة بلدية نابلس ، والتي سيكون للمركز نصيب منها . وفي نهاية الزيارة ودعنا على امل اللقاء ثانية لتلبية دعوته لتناول الغداء على مائدته لدى عودتنـــا . ومـــرة اخرى اقلتنا السيارة التي كانت تغذ الخطى نحو تطوان التي وصلناها بعـــد منتصـــف الليـــل بساعتين . ونزلنا في احد فنادقها الجميلة المعدة لنا مسبقا . وفي صبيحة اليوم التالي كانت الرغبة جامحة للتجوال في ارجائها والتعرف على معالمها ، وترجمة معاني النشيد الخالـــد المجردة الى حقائق ملموسة .

❋) تطوان مدينة قديمة بنيت قبل الاسلام . وفي اللغة البربريـــة تلفـــظ "تطـــاوين" وتعنـــي العينين. وهي محاطة بجبلين هما "درسة و غرغيز" ، وشعارها الحمامة البيضـــاء . وفـــي التاريخ الحديث اعاد بناءها الاسبان واتخذوها عاصمة " للريف الاسباني " الـــذي بســـطوا نفوذهم عليه بالتقاسم مع فرنسا التي بسطت حمايتها على وسط المغرب وجنوبه في مطلـــع القرن العشرين المنصرم . ومدينة تطوان الحالية تحمل الطـــابع الاســـباني فـــي مبانيهـــا ومرافقها الأخرى . وفي عهد الاستقلال زادت مساحتها كثيرا واضيف اليهـــا المزيـــد مـــن الاحياء والمباني المغربية . ويبلغ عدد سكانها اكثر من ربع مليون نسمة . وهي تتكون من بلديتين ، وفي المصطلح المغربي من "جماعتين حضريتين " ترئسهما بلدية كبـــرى يطلـــق عليها تعبير " المجموعة الحضرية لتطوان الكبرى" . وتطوان قريبة مـــن البحـــر الابـــيض

المتوسط وكذلك من الشاطىء الاسباني الذي لا يفصله عنها سوى مسافة ساعة من الـــزمن في البحر وعلى بعد ثلاثين كم الى الغرب من تطوان تقع مدينة " سبتة " التي ما زالت تحت الادارة الاسبانية ، ومدينة اخرى الى الغرب منها تسمى "مليلية" وتبعد مدينة "طنجة " التـــي كانت دولية في سنوات الحرب العالمية الثانية وما بعدها حتى الاستقلال ، عن تطوان حوالي خمسة وخمسين كيلو مترا تقريبا وجدير بالذكر ان بلدية مدينة نابلس والمجموعة الحضرية لتطوان الكبرى قد وقعتا مؤخرا اتفاقية توأمة بينهما كان من نتائجها تبادل الزيارات علـــى مستويات مختلفة . كما عقدت توأمة بين جامعة تطوان وجامعة النجاح الوطنية .وعـــلاوة على ذلك فقد علمت في خضم التحضير لرحلتي الى المغرب من ادارة جامعة النجاح الوطنية ان وفدا طلابيا مغربيا من تطوان كان يدرس في مدرسة النجاح الوطنية في نابلس ما بـــين الاعوام 1932-1935. وان من بين هذا الوفد الطلابي قد لمعت اسماء وتبوأت مناصب رفيعة المستوى في السلك السياسي المغربي . وقد حملت معي بعض الشهادات من ادارة الجامعة تؤكد انتماء هذه الاسماء لمدرسة النجاح الى ذوي هؤلاء الذين قصدوا نابلس في الثلاثينات من القرن الماضي طلبا للعلم .

❋) كان اليوم الحادي والعشرون من شهر نيسان هو اليوم المقرر لحفل افتتـــاح مهرجـــان فعاليات عيد الكتاب الدولي الثالث في تطوان الذي اقيم في مبنـــى دار المســـرح والاوبـــرا المسمى" سينما اسبانيول " وهو مبنى فخم انشىء في سنوات العهد الاسباني وما زال فـــي ابهى حلله ، ويتسع بقاعتيه العليا والسفلى ومقصوراته الجانبية لأكثر من الفي شـــخص . وقد اناب الملك محمد السادس والي ولاية تطوان الكبرى لافتتاح فعاليات المهرجان بحضور وزير الشؤون الثقافية المغربي ، ورئيس المجموعة الحضرية وطواقمها ، واتحاد الكتـــاب المغربي ، وممثلين عن المراكز الثقافية الفلســطينية والســعودية والمصــرية والاســبانية والفرنسية والجامعات المغربية . وقد كان الحضور الفلسطيني لافتا . فقد حيا عريف الحفل الشعب الفلسطيني الذي يخوض نضالات التحرر والاستقلال بهدف اقامة الدولة وعاصـــمتها القدس . ونوه الى تميز العيد الثالث بحضور شاعر فلسطيني من مدينة نابلس التي تربطها بتطوان علاقة توأمة ، كما اذيعت كلمة مسجلة للشاعرة الكبيرة فدوى طوقان حملتها معي تحيي فيها تطوان شعبا ومدينة ، وتستعرض من خلالها ذكرياتها مع طلاب الوفد التطـــواني المغربي في الثلاثينات من القرن الماضي . وقد حيا كل ضيوف منصة الشـــرف وبخاصـــة رئيس المجموعة الحضرية لتطوان الكبرى فلسطين والوفد الفلسطيني . وقد كان لي شرف القاء قصيدتي التي نظمتها خصيصا للمناسبة بعنوان " بطاقة حب 00 لتطوان " . وقد اهتمت وسائل الاعلام المغربية المقروءة والمسموعة والمرئية بالوفد الفلسطيني وخصته بكثير من

اللقاءات والمقابلات . وعلى مدى اسبوع كامل توالت الفعاليات المرافقة لعيد الكتــاب وقــد اشتملت علىامسيات شعرية كان لي شرف المشاركة فيها ، وندوات أدبيــة تناولــت الأدب المغربي ، وتوقيع اصدارات جديدة ، وتكريم ادباء ، ومهرجانات موسيقية ، ومعارض فنية تشكيلية وندوات ادبية حول الأدبين الفرنسي والاسباني . وكانت هناك ليلة اندلسية مميــزة شاركت فيها فرقة فنية مغربية تراثية انشدت موشحات اندلسية تلك التي ما زالت تعيش في ذاكرة المغربيين وتتردد على السنتهم . ثم تلتها فرقة راقصات " فلامنكو " اسبانية ســاهمت بها مدينة " الجزيرة الخضراء" الاسبانية ، وفرقة موسيقية اخرى كانت تجــوب الشــوارع تشنف بألحانها آذان سكان المدينة . لقد اسبغت هذه الفعاليات على تطوان التــي توافــدت عليها وفود كثيرة بهجة العيد وفرحته لكنه هذه المرة عيد الكتاب والثقافة .

يتبع ...

أيـــام .. في المغرب

(الجزء الثالث والاخير)

❋) ثمة انطباعات وملاحظات لا بد من اضاءتها في هذه السطور التي مهما طالت لا يمكن ان تفي هذه الايام المغربية حقها .ولعل اولها يخص الشعب المغربي الشقيق الـذي يشـعر المرء منذ اول وهلة يطأ فيها ارض المغرب انه عربي اصيل دمث ودود ، لم تنسه تحديات الاستعمار الشرسة عروبته ولا اصالته . وهو علاوة على كل ذلك يخص فلسـطين شـعبا وقضية بكثير من الاهتمام والتقدير والتعاطف ، ويثمن عاليا وغاليا نضالات شعب فلسـطين وتضحياته لتحقيق اهدافه المشروعة . وفي ما يخص جانبا هاما من عروبـة هـذا القطـر الشقيق ، فزائر المغرب يلاحظ مدى الاهتمام باللغة العربية ، وليس ادل علـى ذلـك مـن الشاخصات واللافتات بكل اشكالها فهي تحمل في معظمها اسماء عربية بحروف بارزة كبيرة لها الصدارة على اللغات الاجنبية الاخرى.

❋) وملاحظة اخرى تخص تفعيل الحياة الثقافية والفنية . وليس اجدر من الحـديث عـن الكتاب الذي خصص له عيد لا مجرد معرض تسويقي . وهذا العيد مناسبة اجتماعية وثقافية وطنية حركت الجماهير عفويا نحو الساحة الكبيرة التي اقيم فيها معرض الكتـب . وحـين الحديث عن الكتاب فان المغرب لا يختلف عن بقية ارجاء الوطن العربي في ما يخص ازمة النشر ، ومحدودية انتشار الكتاب واعداد الكتب الصادرة ، او ما يخص اجمالا ازمة القراءة . فالحال تكاد تكون واحدة وهو ان الكتاب يعاني ما يعاني في وجه تحديات نسـبة الاميـة العالية وعدم القدرة احيانا على اقتنائه لدى شرائح كثيرة ، اضافة الى تحديات حديثة تتمثل في الانترنت والفضاءيات والكمبيوتر . ولكن وبرغم كل ذلك يظل الكتاب له قيمته ، يـؤنس من يقتنيه ويسعد من يهدى اليه . وهنا اجد لزاما ان افرد مزيدا من المسـاحة للفعاليـات الثقافية ذلك ان "دور الثقافة " وهي مؤسسات تابعة لوزارة الشؤون الثقافية تنتشر في كافة المدن والبلدات المغربية تمارس فيها الانشطة والفعاليات الثقافية على مدار ايام العام . وفي تطوان دار ثقافة كائنة في حي هادىء من احياء المدينة ، وتشتمل على قاعة علوية مجهزة تتسع لمئات الاشخاص علاوة على قاعات اخرى لأغراض فنية . وفي هذه القاعـة جـرت اولى الامسيات الشعرية التي شاركت فيها جنبا الى جنب مع عـدد مـن شـعراء المغـرب المرموقين . ولست هنا بصدد الحديث عن مدارس الشعر المغربي الحديث واتجاهاتـه ، الا

ان الملاحظة الوحيدة التي سأبديها هنا تخص موجة الحداثة وتحـــرر القصـــيدة المغربيـــة الحديثة من التقنيات التي ميزت القصيدة العربية . فما يسمى

" قصيدة النثر " هي السائدة لدى جمهرة من الشـــعراء المغـــربيين الحـــاليين . ويتبـــاهى المفتونون "بقصيدة النثر" بان الشاعر المغربي " محمد الصباغ " هو اول من بدأ كتابتها في الخمسينات من القرن الماضي . ومع ذلك وفي غمرة هذا الجو "الحداثي" القيت ثلاث قصائد ملتزمة شكلا وموضوعا لقيت الاستحسان والقبول من عشاق الشعر والشعراء .وهنـــا اود التنويه الى ظاهرة جميلة ورائدة في آن واحد تتجلى في الامسيات الشعرية المغربية تتمثـــل في اشتراك رسامين الى جانب شعراء في ذات الوقت يقومون برسم ما توحي لهم القصـــائد التي يستمعون اليها .وقد خرجت في هذه الامسية لوحات تحمل طابع الحداثة وكأنهـــا ظـــل آخر لقصيدة النثر .

❋) واذا كان المغرب قد أخذ بأساليب الحداثة والتطوير ومسايرة روح العصـــر فـــي شـــتى الميادين ، فهو قبل كل هذا وذاك يحرص كل الحرص على تراثه العربي الاسلامي الاندلسي الذي يتمثل في كثير من مبانيه وفنونه الأخرى وآدابه ومجمل حياته اليومية وبخاصة فـــي اعياده ومناسبات افراحه واعراسه . ان الاندلس تاريخا وتراثا ومجدا مـــا زالـــت تســـكن جوارح الشعب المغربي التي تفيض تحنانا واشتياقا الى تلك الأيام المجيدة من تاريخ الأمـــة العربية الاسلامية ، فظل يغترف من معينها العذب الذي لا ينضب . وهذا بطبيعة الحال لـــم يمنع المغربيين من ان تكون لهم علاقاتهم الثقافية والاجتماعيـــة مـــع كـــل مـــن الاســـبان والفرنسيين . ويعود ذلك لعدة اسباب اهمها قرب المسافة الجغرافية بين المغرب وكل مـــن اسبانيا وفرنسا ، وتأثيرات استعمار هذين القطرين وبخاصة في مجال استخدام لغتيهما .

❋) ان هذه السطور لا يمكن ان تفي هذه الرحلة حقها لكنها تؤكد ان العروبة بخير . وان الجماهير العربية ما زالت تتمسك بخيار الوحدة رغم كل الظروف الراهنة والتحديات القائمة . وان بعد المسافة والهموم المحلية لكل شعب عربي لم تكن في يوم من الأيام حـــائلا دون التقاء ابناء العروبة في أي جغرافية عربية . ومن شبه المؤكد ان خلافات الأنظمة العربيـــة في ما بينها لم تستطع باي حال من الاحوال ان تعكر اجواء الأخوة الحقيقيـــة بـــين ابنـــاء العروبة .

❋) وكما ان لكل شيء بداية فان له نهاية . ويحين موعد الرحيل عن هذه البلاد الطيبـــة . ودعت تطوان واهلها ، ورجعت مرة اخرى بالسيارة ، ولكن هذه المرة منذ بدايـــة النهـــار وعيناي تلتهمان بنهم كل جمالات الطبيعة المغربية الغناء بين خمائل غابات اشجار الصنوبر والفلين الباسقة ، تخزنها في خلايا ذاكرتي مؤونة لأيام التذكرات . وحينمـــا نتحـــدث عـــن

الاشجار فنحن لا ننسى شجر الأرز ، فالمغرب هو البلد العربي الثاني الى جانب لبنان الـــذي تنمو فيه اشجار الارز المشهورة والنادرة الوجود . وكان لا بـــد مـــن وداع الأخ الـــوزير المفوض الفلسطيني في الرباط ، وتلبية دعوته الكريمة في منزله ومن ثم الانطلاق الى الدار البيضاء وبمثل ما بدأت به رحلتي اليها احببت ان انهيها . فتوجهت الـــى مســـجد الحســـن الثاني وصليت ركعتين لله تعالى شاكرا اياه وحامدا ، وسائلا ان يحفظ الوطن العربي مشرقه ومغربه شماله وجنوبه ، وان يمن عليه بالأمن والأمان والخير والوحدة والقـــوة والمنعـــة .وبكل العواطف الجياشة التي تفيض بها جوارح المسافر المفارق ، توجهت الى مطار الدار البيضاء الذي يبعد ثلاثين كيلومتر عن المدينة حاملا معي ذكريات ايام لا تنسى ، لأبدأ رحلة العودة الى الوطن الأول فلسطين عن طريق باريس .ويظل وقع النشيد الخالد الذي ترجمتـــه هذه الرحلة الى حقيقة يتردد في فضاءات مشاعري واحاسيسي :

بلاد العرب اوطاني   من الشام لبغـــدان

ومن نجد الى يمـــن   الى مصر فتطوان

تحية محبة وتقدير للمغرب الشقيق من فلسطين قلب العروبة النابض . وباقـــة حـــب مـــن نابلس جبل النار الأشم الى توأمها تطوان الخالدة والى مجموعتها الحضرية والـــى بلـــديتي تطوان . واخص بالشكر الاخ الكبير رئيس المجموعة الحضرية الحبيب الخراز والى مرافقنا الشاب الاديب محمد الميمون والى اتحاد كتاب تطوان وشعراء المغرب وادبائهـــا وشـــعبها الكريم .

تعريب .. لا .. تغريب

كان صدور قانون التعريب في الجزائر في الخامس من تموز من العام الحالي يوما مميزا ذا خصوصية انتظرته العروبة في الجزائر والوطن العربي اكثر من قرن ونصف من الزمان صال فيها الاستعمار وجال في جغرافية الوطن العربي يقتلع الجذور ، يطمس الهوية الانتمائية، يشوه التاريخ ، يزرع الحدود والفواصل ، واكثر من ذلك كله يشن حربا شعواء على اللغة العربية ذلك انها تشكل النسيج الاساسي للثقافة العربية ، ولحمة العقلية العربية وسداها ، واحدى العناصر الرئيسة للابداعات ، الى جانب كونها جسر التواصل الوحيد بين ابناء الامة العربية ، والرابط الحقيقي بالتاريخ والجغرافيا والتراث والعقيدة .

ويوم خرج الاستعمار من الوطن العربي جسدا ، كانت دماؤه لا تزال تتدفق في شرايين هذا الوطن ، وروحه ترفرف في فضاءاته . ويومها تساءل الغيورون على قومية المسيرة واستقامتها عن يوم الجلاء الحقيقي للاستعمار الثقافي ، والاستقلال الروحي الثقافي اللغوي الفكري الابداعي ، وما زال السؤال يتردد حتى اللحظة الراهنة .

فيما يخص الاستعمار الثقافي او الغزو الثقافي ، فقد مر الوطن العربي جراءه بمرحلتين :

– الاولى : وهي المرحلة التي فرض الاستعمار بها اشكاله الثقافية ومنها لغاته وما يترتب عليها ، وجعلها تتبوأ المكانة الرفيعة والصدارة ، وسعى جاهدا الى خلق بيئة مواتية لها.ولعل ابرز ما في هذه المرحلة سياسة القمع الظاهري والباطني التي مورست ضد الثقافة العربية ، وان الجماهير العربية كانت تستشعر وطأة هذا القمع وتعمل على مقاومته بشتى الطرق ذلك انها اعتبرته استكمالا "لمنظومة العقد الاستعماري".

– الثانية : وهي المرحلة التي نحن بصددها والتي اسفرت عن فتح الوطن العربي ابوابه وتشريعها على مصراعيها طواعية امام التيارات الثقافية الغربية "الاستعمارية سابقا" وتلقيها على علاتها وشمولها كل مرافق الحياة العربية اللغوية والادبية شعرا كانت ام قصة ام رواية ام مسرحا ام نقدا وفي الاعلام والتلفزة والتفكير والفن وكل مجالات الابداعات الاخرى . ومما يلاحظ على هذه المرحلة انها تتموضع وتتبلور بمباركة من الانظمة العربية السياسية وقطاع من المثقفين الذين خرجوا من جلودهم الحقيقية ، اضافة الى ان هذا التوجه لم يعد يحظى بنفس الوتيرة من المقاومة وحتى انه لم يعد يحمل صفة الغزو ولا

مسماه ، واصبح في المقابل يحمل مسميات حديثة مستوردة منها "العالمية– العولمة – الكونية – الكوكبية" . وهي في اعتقادنا تمثل "الاسم الحركي" للغزو الثقافي ، وهو قناع يضحك به على "ذقون شعوب العالم الثالث" بهدف اغتيال ثقافتها في الذاكرة ، وتجييرها فيما بعد الى ثقافات اخرى .

وعودة الى قانون التعريب الذي سنته الجزائر واخرجته الى حيز التطبيق ليسري على المؤسسات والاحزاب والافراد على حد سواء . وقد شمل كل مظاهر الحياة بدءا بالتعليم والاعلام والاعلان والخطابات والتصريحات والرسائل والكتابة وكافة اشكال الكتابة . وهو في اعتقادنا قانون سليم لا غبار عليه ولا يستهدف المساس باحد "ولا ينبغي له" ، ومن حق الجزائر ان تسنه وتطبقه ولديها كل المسوغات والمبررات لذلك انطلاقا من سيادتها وانتمائها القومي والعقائدي ومع ذلك فاننا لا نجد غضاضة بالتذكير بما مثله هذا القانون وهدف اليه نصا وروحا لعله يكون بمثابة اضاءة في فضاءات الوطن العربي الثقافية والانتمائية التي طمستها عتمة التغريب ، والخروج من الجلد ، والاستكانة الى التلقي دون العطاء :

– الحفاظ على هويتي الانتماء العقائدي والقومي .
– حماية التاريخ والموروثين الثقافي والحضاري .
– التأكيد على استمرارية الصلات مع كافة ارجاء الوطن العربي .
– حماية اللغة العربية باعتبارها احدى المقومات الاساسية لخصائص العروبة .
– الوقوف في وجه زحف دعاة الترويج "للفرانكوفونية" التي تستهدف تهميش العربية ، واحلال اللغة الفرنسية فكرا ولسانا وخطابا شاملا محلها .

وخلال اكثر من قرن ونصف تعرضت خلالها الجزائر الى عملية ارهاب فكري هدفت الى تغيير الشخصية الجزائرية العربية لسانا وعقيدة وهوية وثقافة . وتؤكد سجلات التاريخ الجزائري ان اللغة العربية كانت مطاردة مستهدفة في كثير من المناطق الجزائرية وعوملت على انها من المحرمات والممنوعات الكبرى ، والاكثر من ذلك اعتبر المتكلمون بها على انهم مستوى بدائي من البشر "يرطنون" بلهجة محلية بدائية آيلة للانقراض لا تتماشى وروح العصر ولا تخدم متطلباته على حد زعم اولئك الذين حاربوها . وفي نفس الوقت حظيت اللغة الفرنسية بالمكانة الاسمى والارفع ، ونال المتكلمون بها امتيازات وتسهيلات حرم منها الناطقون بالعربية . وجراء هذا الغزو الشمولي للجزائر وبقية ارجاء المغرب

العربي الكبير تعرضت جميعها الى اغتيال ثقافي واقتلاع من الجذور ، والى عملية حقن في شرايين كينونتها استهدفت تغيير دمها الانتمائي بآخر من فصيلة غريبة عنها لتصبح غريبة الوجه واليد واللسان عن منتماها القومي والعقائدي .

وهنا فاننا نود ان نذكر ان الحضارة الانسانية تنمو وتزدهر ببعديها المادي والروحي ، وترتقي انسانيا جراء عاملي التحدي والرد على التحدي ، وفي حالة النكوص يتم التقهقر والجمود والاندثار . وفي الجزائر كانت التحديات شرسة وقاسية وقد افرزت على مدار عقود طويلة من الزمن ردود افعال كانت تارة تأخذ طابع القهر الداخلي المتراكم المورث للاجيال ، وتارة اخرى طابع الرد الفوري ، وفي محصلتيهما النهائيتين كان هذان الطابعان يمثلان ارادة الرفض للتصفية المبيتة والتي اسفرت في نهاية المطاف عن "صحوة" جراء عدم تمكن هذه التحديات من اقتحام البنى التحتية للشخصية الجزائرية العربية المسلمة ذات التاريخ الابداعي والتميز في العطاء والتجربة والاصالة التي لا تقهر او فشلها في هدم جهاز المناعة الانتمائي .

ان الحديث عن الجزائر ذو شجون ويفرض علينا على خلفية قانون التعريب الذي سنته واصدرته مؤخرا ان نتناول جانبا خطيرا من ازمة الثقافة العربية المعاصرة هذه الايام والتي تضرب بآثارها السالبة جل الاقطار العربية التي انقادت الى فهم وتفسير خاطئين لمفهومي الاستقلال والحضارة او ما يسمى بالرقي الانساني .

ان الوطن العربي يشهد حاليا صراعا بين دعاة التعريب والحفاظ على الاصالة التاريخية والتراث والانتماء وحماية الجذور من الاقتلاع المتعمد ، وهم بذلك يسعون الى تحقيق شخصية عربية انسانية ذات تميز وخصوصية غير قابلة للذوبان والانصهار في ذات الآخر من جهة ، وبين دعاة التغريب واستيراد القوالب الثقافية والحضارية الغربية ، وتحرير هذا الشكل من "التجارة" من كل المعيقات والحواجز والقيود من جهة اخرى . وهم بطبيعة الحال غير معنيين بالحفاظ على الجذور والتراث والاصالة التي اتهموها بانها اصبحت بالية لا تتماشى وروح العصر او انها لا تستطيع ان تواكب المسمى الجديد للغزو الثقافي المتمثل بمفهوم العولمة او العالمية . وجراء هذين التوجهين ثمة فريقان "عولميان" يسيران في ركاب التغريب :

- فريق واع لما يقدم عليه ويمارسه وهو هنا يصر على "التغيير" بالانتقال الى التغريب ، وليس في تفكيره او ما يصفه انه استراتيجية الانتقال الى العالمية ادنى تحفظات على الاصالة التي يريد ان يطمسها بطلاء الحداثة التي تشمل التفكير والتربية والاعلام وكل الابداعات الثقافية والفنية وان يخضعها للموازين والمقاييس والمعايير الغربية لتقييمها واصدار الحكم النهائي عليها من خلال نظرية تغريب المعايير .فما انطبقت مواصفاتها عليه حصل على تأشيرة المرور والعكس صحيح . ويتمثل التوجه الثاني لهذا الفريق في المنحى التغريبي للابداعات الراهنة والمستقبلية باستنساخ المفاهيم والاهتمامات والموضوعات والمقاسات والمصطلحات الغربية .

وهنا فاننا نضرب بعض الامثلة على واقع هؤلاء "العولميين الحداثيين" وليس بقصد الحصر . ففي مصر ثمة فريق يطالب او انه يستعد للاحتفال بمناسبة مرور قرنين من الزمان على حملة نابليون الاستعمارية على مصر تقديرا لما حملته معها من "خيرات حضارية وثقافية" لمصر والشرق ، وتبرئة لها من طكونها اساسا حملة استعمارية . وآخرون في اجزاء اخرى من الوطن العربي يعترضون على التغني بالمشاعر الوطنية والقومية ، وينادون بضرورة الانتقال من الخاص الى العام الذي يتمثل بالتغني والاشادة بالانسانية عامة خارج حدود الوطن الاقليمي الضيق ، وثمة فريق آخر لا يمانع بتحطيم قواعد اللغة العربية والخروج من "زنزانات سجنها" والانطلاق بها نحو التحرر اللامقيد ، او حتى استبدالها بلغة عالمية اخرى تكون اكثر عصرية واستيعابا للمفاهيم الحديثة والمتغيرات العلمية والتقنية وغيرها . وفريق رابع يتاجر فعلا بالمفاهيم والمعايير الغربية ويحقن بها كافة اشكال الابداعات الثقافية ، ويخرجها من جلد محليتها وخصوصيتها واصالتها . ولعل احدث فريق واخطره هو الذي ينادي بالتطبيع وبناء مناهج "ثقافة السلام" وتطبيقها على مجمل الحياة والاجيال العربية الراهنة والقادمة بهدف استكمال رسم خارطة النظام العالمي الجديد والانطلاق الى عصر العولمة . وللحداثيين فيما يعشقون مذاهب .

- والفريق الثاني : ويتمركز في قطاعات الانتاج الاقتصادية والتجارية والفنية والاعلامية والتسويقية ، وهو اما انه واقع ضحية الاطروحات المشبوهة للمفاهيم الحداثية ، واما انه وجدها سلعة رائجة لتسويق بضاعته ، او انه على اغلب الظن فهم الحضارة والثقافة فهما مسطحا خاليا من العمق والتعمق ومجردا من الوان الانتماء . فلسبب اولآخر انساق هذا الفريق وراء دعاة محاربة اللغة العربية ، فشوه الوطن العربي بلافتاته وشاخصاته التي تحمل اسماء ومسميات غير عربية ، وتعداها الى تغريب اسماء المحال التجارية والمطاعم

والفنادق والشركات ومحطات التلفزة والمجـلات والمـأكولات والملابـس وكافـة اشـكال المنتوجات الاخرى، هذا الى جانب "موضة" جديدة من تسمية فتياتنا العربيات باسماء غيـر عربية . وقد تعدى الامر مجال اللغة ، فثمة ظاهرة تلاحظ على الافلام السينمائية والتلفزيـة العربية التي اصبحت مسلسلاتها تصور في العواصم الغربية لا لسبب الا لتكتسـب "طابعـا ارقى" . وفي موجة الغناء العربي الحديث المتلفز يلاحظ المشاهدون لشاشات التلفزة العربية خلفيات مصورة مصاحبة لهذا الغناء من الرقص الغربـي والآلات الموسـيقية الغربيـة والملابس والقبعات التاريخية الغربية . لكن اكثر ما يثير الدهشة رؤية نفر من ابناء العروبة وهم يرتدون ملابس اللوردات البريطانيين وقبعاتهم ويحملون عصيهم . وهذا بطبيعة الحال غيض من فيض .

ان ما يجري على ساحات الوطن العربي ويتكرر كل يوم بوتيرة متزايدة متسـارعة هو بمثابة انتحار انتمائي وخروج من الجلد ، وهو بالتالي مهزلة ثقافية تتجسد على مرأى ومسمع من وزارات الثقافة والاعلام العربية وربما بمباركة منها ، وهي التي يفترض فيها ان تكون الحارس الامين والقيم على الثقافة والتراث والانتماء ، وحادية المسيرة الثقافيـة وراعيتها وحاميتها من كل ما قد يشوبها او يمسها او ينحرف بمسارها . ونحن هنا نعـود ونذكر اننا لا نقف موقفا معاديا من الثقافات الاجنبية ، لكن طبيعة المنطق والعصر تفـرض اتباع منهجي التأثير والتأثر . فالحضارة ذات مسارين داخل وخارج ، اخـذ وعطـاء ، ولا ينبغي لها ان تكون دخول واخذا فقط . ان ما يجري على الساحة العربية هو اقتلاع للجذور ، وتغريب للرؤى والابداع والتفكير والشخصية المميزة ذات الخصوصية بقصـد صـهرها والغاء معالمها نهائيا .

ومرة اخرى نعود الى ما بدأنا به حديثنا فنؤكد ان قانون التعريب الجزائري هو مثل يحتذى، وهو وان بدأ باللغة العربية كونها هي الاساس والمنتمى والمعيار الرئيس لتحديـد معالم الذات القومية ، الا انه سيكون له تأثيراته على مجالات اخرى تستهدف في اعتقادنـا اعادة اللون الحقيقي للعروبة والحفاظ عليه ، واسترجاع النكهة الحقيقية للثقافة العربية التي كادت الاجيال تنساها ، وهي خطوة رائدة ونموذج يقتدى ، ونتساءل ماذا سندخر من تـراث للاجيال القادمة .

وخلاصة القول ان الوطن العربي بحاجة الى ثورة ثقافية تنقذه من حالة الفراغ التي يتردى بها ، ومن مهاوي الشعور بالنقص والدونية والعجز امام الاخيــرن . والــى قــرار سياسي شجاع من اعلى المستويات يحفظ له ما تبقى مــن هويتــه الثقافيــة وشخصــيته الاعتبارية اللتين شوهتهما وكادت تطمسهما الغزوات الثقافية المتلاحقة والتي اصبحت تحمل مسميات براقة باطنها السم وظاهرها الدسم ، والى منــاهج تربويــة تعمــل علــى تنميــة الشخصية العربية ، والى اعلام لا يلتزم جانب الانحياز الا للوطن تاريخــا وتراثــا ولســانا وابداعا . ذلك ان اخطر ما وصل اليه الوطن العربي ان فريقا مــن ابنائــه وبكــل حمــاس واندفاع تولى مهمة تسويق بضاعة العولمة والحداثة ، وهما في كثير من الاحيان قناعــان للغزو الثقافي الذي ظن البعض انه انتهى ، وهو اليوم يرتدي اثواباً براقة زاهية جديدة .

نحـــــن .. واللغات الاجنبية

تنص احدى المواد الرئيسة في مقدمة الدساتير العربية ، وتؤكد ان اللغة العربية هي اللغة الرسمية ، ومن هذا المنطلق فان احترام هذه المـــادة الدســـتورية ، وتوظيــف هــذا الاحترام على ارض الواقع وتطبيقه اصبحا لزاماً على كل مواطن ومؤسسة وجماعة تنتمـــي الى هذا الدستور ، وبالتالي فان الخروج عن مقروء هذه المادة الدستورية يشــكل مخالفــة صريحة للدستور تستلزم العقاب .

وبغض النظر عن هذه المقــدمة الدستورية المثالية ، فثمة ظــواهر ســـــالبة فـــي الواقع العربي تتمثل في عــدم احترام هذه المادة الدستورية ، وارتكاب مخالفات وانتهاكات وخروقات تمس كرامة اللغة العربية ، بتقديم اللغات الاجنبية عليها الى الدرجة التي اصبحت معها هذه اللغات واستعمالاتها الحياتية جزءاً من التركيبة الثقافية لشريحة من المـــواطنين العرب في معظم الاقطار العربية آخذة في الازدياد والاتساع .

وهنا نشير ، على سبيل المثال لا الحصر ، ان ظاهرة التسميات باللغات الاجنبية لـــم تعد حدثاً طارئاً او عابراً في حياتنا اليومية ، بل تعدته لكي تصبح حقيقة مـــرة ، وتحـــديا خطيراً ، وواقعاً مؤلماً يزحف ليحتل مساحة اكبر واكبر مـــن ثقافتنـــا الوطنيـــة والقوميـــة والعقائدية بهدف احداث ابدال فيها ، هذه الظاهرة التي وصفها مؤرخونا انها احـــدى آثـــار الاستعمار الثقافي ، والتي درسناها على انها كذلك .

ونحن اذا تنناول هذه الظاهرة الســـالبة بكل ابعادهـــا ودلالاتها ، فلايماننا واعتقادنا اللذين لا يطالهما ادنى شك ، ولا ريبة ان اللغة ايا كانت ، وتعنينا هنا اللغة العربية ، وهي جزء لا يتجزأ من انتمائنا الوطني والقومي والعقائدي ، وهي ضمير ذاكرتنا الثقافية وسجل عطاءآتنا وابداعاتنا الحضارية ، وهي هويتنا التي ميزت شخصيتنا على مـــدار التـــاريخ . واللغة العربية علاوة على كل ما ذكرنا ، عنصر رئيس مـــن عناصـــر كبريائنـــا وامجادنـــا واعتزازنا وفخارنا . ونحن حينما نتحدث عن اللغة العربية بالذات ، فانما نتحدث عن اللغـــة التي كرمها الله فاختارها دون كل لغات البشر لقرآنه الكريم .

اننا لا نبالغ اذا ما اكدنا ان هذه اللغة هي من اجمل اللغات وارقها واكثرها عذوبة وفصاحة وبلاغة وموسيقى ، ذلك ان حركاتها اضافت عليها بعداً جماليا يتمثل في موسيقاها الداخلية .

ولكيلا تطول بنا هذه المقدمة التي لا بد منها ، نعود الى العنوان الذي هو موضوع مقالتنا ، لنشير الى شريحة من الناس خرجت من جلدها وتنكرت لذاكرتها الثقافية ، فقطعت بذلك جذورها الانتمائية حينما قلبت ظهر المجن ، وادارت ظهورها الى لغتها الام ، وارتمت في احضان لغات اجنبية ، لعلها تكون بديلاً يمنحها ما تجري وراءه ظانة وواهمة انه "رقي وحضارة ورفعة شأن" .

وهنا نود ان نحلل عقدة اللغات الاجنبية والمجالات التي تشغلها من حياتنا ، وتتمثل في المظاهر التالية :

1) استخدام التسميات والمسميات الاجنبية سواء كان ذلك استعمالاً ابجدياً او بالنص (المعنى) .

2) تقديم التسميات والعبارات باللغات الاجنبية على مثيلاتها باللغة العربية ، وجعلها هي الرئيسة سواء كان ذلك بحجم حروفها او المساحة المخصصة لها او المكانة المرموقة التي افردت لها على حساب اللغة الام .

3) الاستغناء كلياً عن استخدام اللغة العربية ، واحلال اللغات الاجنبية محلها (ونقصد بالاجنبية الانجليزية فالفرنسية بالدرجة الاولى ، تليها اللغات الاوروبية الاخرى) .

اما المجالات التي تستخدم فيها اللغات الاجنبية كبديل او ند او كعنصر يتمتع بالاولوية والصدارة فهي كثيرة ، وتطال كثيراً من قطاعات حياتنا اليومية ومنها على سبيل المثال :

اولا : المجالات العامة : كالمؤسسات التجارية والمطاعم والملاهي والمتنزهات ومحال بيع الاشرطة الصوتية والمرئية ومحطات التلفزة ، والمجلات ، والعلامات التجارية والملصقات الخاصة بالبضائع والسلع المختلفة ، والملابس التي نرتديها ، وغيرها كثير .

ثانياً : المجالات اللفظية : والمقصود بها استخدام مفردات اللغات الاجنبية او عباراتها في حالتين :

1- اثناء الحديث للتعبير عن مفهوم معين او مصطلح حتى لو كان لهما بديلان عربيان .

2- في النصوص المكتوبة سواء كان ذلك بحروف عربية او بحروف اجنبية .
ومما هو لافت للنظر ان هناك كثيرا من المسؤولين في الاجهزة الرسمية يميلون الى عدم استخدام اللغة العربية ويفضلون استخدام اللغات الاجنبية وبخاصة في المحافل الدولية ، وعلى الاخص ، في كثير من المواقف التي يفترض فيها استخدام اللغة الام ، كاحدى الاتجاهات الانتمائية الاكثر اهمية .

وهنا لابد لنا ان ننوه الى ان موضوع استخدام اللغة القومية في المحافل الدولية يحظى بحساسية بالغة لدى الكثير من الدول ، ويعتبر موضوعا مقدسا لا يقبل الجدال ، ولا تطاله الشكوك .

حتى الان تناولنا في هذه المقالة عقدة اللغات الاجنبية ومجالات انتشارها واشكال هذا الانتشار في الاوساط العربية ، وسوف نتناول الدلالات والمخاطر ووسائل العلاج المقترحة . ونحن اذا كنا نوهنا الى كل هذا وذاك على ارض الواقع ، فيجدر بنا ان نتناول بالتحليل البسيط دلالة على كل هذه السلوكات وما يمكن ان تعكسه من دلالات ، يمكن تلخيصها على النحو التالي :
التقليد الاعمى للآخرين والنابع من قناعة ان هؤلاء الآخرين يتمتعون بفوقية توازيها دونية تتحكم بالمقلد وتستشري في سلوكاته العامة ، وفقدان الثقة بذاته الوطنية او القومية او العقائدية .
تخلخل جذور الانتماءات الوطنية والقومية والعقائدية .
الفراغ الثقافي الذي يحتل مساحة كبيرة من الذاكرة او ما يسمى بالتصحر الثقافي .
الفهم الخاطىء لمفاهيم الحضارة والرقي الاجتماعي والتمسك بالقشور والمظاهر دون الجوهر .

ونحن اذا كنا تناولنا هذا الموضوع من عدة نقاط وزوايا ، فحري بنا ان ننوه الى الاخطار والمخاطر والمحاذيرالتي تصاحب هذه الظاهرة ، وما يمكن ان ينجم عنها آنيا ومستقبلاً ، ذلك ان اخطر ما يتهدد اي شعب او اية امة هو فقدانها للمناعة الانتمائية المكتسبة من تاريخها وامجادها وعطائها وانجازاتها وابداعاتها على مدى تاريخها الطويل .
ولعل من اخطر هذه المخاطر :

تكون القناعات بفوقية الآخرين واستمرار موجة التقليد والسير في ركابهم ، فيصبحون رموزاً حضارية وقوالب ثقافية جديرة بالاقتداء ، وبهذا تتأكد دونية المقلدين ، فيفقدون كل امل في الاستقلالية والابداعية ويصبحون عالة على ثقافات الاخرين .

الخطر المحدق بالتراث ، ذلك ان مجموع هذه السلوكات المقلدة والقوالب المستوردة من ثقافات الاخرين سوف تتراكم وتحتل مساحة في الذاكرة الوطنية والقومية والعقائدية ، ومع مرور الزمن وتقادم الايام سيفقد التراث اصالته وتتسرب اليه عناصر غريبة هي بمثابة فيروسات تعمل على تحطيم لحمة الخلايا التراثية الاصلية والفتك بها .

وهذا بطبيعة الحال مدخل الى بقية الشبكة الثقافية ومكوناتها ، اذ من الممكن ان تتسرب موجة التقليد اليها كما هو حاصل في هذه الايام ، وتطال الشعر والنثر والقصة والغناء والرواية والمسرح وبقية الفنون والابداعات الثقافية الاخرى ، وكل ما هو اصيل في هذه الامة .

والمحصلة النهائية لكل هذا وذاك تكمن في فقدان الامة او الشعب للخصائص الثقافية ، حيث يصبح الحديث عن هوية انتماء وطني قومي عقائدي ضربا من الخرافة .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا ، هل من علاج لهذه الظاهرة السلبية التي استشرت بنا ، والاجابة عن ذلك انه ما من آفة ونحن هنا بصدد هذه (الآفة الثقافية) ، الا ولها حل ، ولكن هذا الحل يحتاج الى ارادة ونية صادقتين اذا ما اردنا ان نصل الى مستوى من العلاج يكون مرضيا على اقل تقدير ، واذا ما قدرنا خطورة الوضع الذي آلت اليه احوالنا الثقافية .

ان دور المؤسسة التربوية بدءا برياض الاطفال وانتهاء بالجامعات ، لا يمكن التغاضي عنه ، فهو الاساس في تجسيد البنية الثقافية وبلورة الذاكرة الثقافية لدى الاجيال المتعاقبة ، وان مساقات مكثفة مخططا لها بمستويات مختلفة تتناول الانتماء الوطني والقومي والعقائدي موضوعا لها ، بمكن ان يحقق كثيرا من الاهداف المنشودة .

ان لاجهزة الاعلام المقروءة والمسموعة والمرئية دورا اساسيا في هذا المضمار ، فهي الاقدر

وبالتعاون مع كل الفعاليات من محاربة كل الظواهر الثقافية السلبية ، والتأكيد على الظواهر الايجابية

وتشجيعها لتصبح اتجاهات ايجابية لدى ناشئتنا وغيرهم .

ونحن هنا لا ننسى دور السلطات الرسـمية والجهـات المسـؤولة التـي تصـدر التراخيص للافتات والشاخصات بكل اشكالها وهي التي تقر التسميات او ترفضها بما يتلاءم وثقافة الامة وانتماءاتها وتراثها.

دور المؤسسات الثقافية الرسمية وغير الرسمية ، اضافة الـى الكتـاب والادبـاء والمفكرين والمثقفين الغيورين على الاصالة والانتماء .

واخيرا وليس اخرا ، نؤكد على دور القرار السياسي فهو الاقـدر علـى تصـحيح المسار بالسرعة القصوى المرجوة . وكلمة اخيرة نختتم بها مقالتنا هذه ، ذلك اننا بحاجـة الى الهوية الثقافية حاجتنا الى الماء والهواء ، وكل مقومات الحياة الاخرى ، اننـا بحاجـة الى تصحيح مسارنا الثقافي الذي اعوج وما زال يعاني الاعوجاج ، وهو يستصرخ ضـمائر الغيورين لعلنا نستعيد بعض اصالتنا التي فقدناها في غمرة الغزو الثقافي الغربي وتكـريس قشوره على ايدي نفر غير مسؤول لا يقدر مسؤولية تصرفاته ولا يعرف للانتماء قيمـة . نحن العرب بحاجة الى الوحدة الثقافية ، فهي اساس لاية وحـدة سياسـية او اجتماعيـة ، واللغة هي اساس الوحدة الثقافية بل هي بنيتها التحتية والعليا وهي رمز اساسي من رموز كرامتنا ومقوماتنا الحياتية .

ونحن قبل كل شيء مطالبون بالحفاظ عليها ورعايتها وتطويرها ، فهي مرآتنا التي نستشف من خلالها ثقافتنا وتراثنا وتاريخنا . اننا بحاجة الى العودة لانفسنا لغـة وثقافـة وفكرا وعطاء وابداعا ، اصالة وتراثا ، ونحن بهذا لا نغلق نوافدنا على ثقافـات العـالم ، ولكننا لا نسمح لها ان تقتلعنا من جذورنا الاصلية .

حـــريـــة الإبـــداع

انضباط وانتماء .. لا .. انفلات وارتماء

تثور بين الاونة والاخرى في الوطن العربي عاصفة في فضاء الثقافـــة الابداعيـــة بدعوى ان هناك مساسا بحرية الابداع والمبدعين ، وان قمعا منظما يمارس ضدهم . وكما في كل مرة فان السيناريو بمشاهده المختلفة يظل ذات السيناريو . فاما ان يكون المستهدف رواية او قصة او ديوان شعر او حتى قصيدة او مقالة اتهمت بأنها خرجــت عــن حــدود العقيدة او منظومة الاخلاق السائدة التي تقوم عليها فلسفة المجتمع .

ولا تقتصر ردة الفعل الاحتجاجية على "المبدع" ايا كان بل ثمة على الدوام "فريـــق" يقف الى جانبه ويؤازره سواء على الصعيد المحلي او الخارجي . وهذا الاخير على ما يبدو – ولاهداف لم تعد خافية – وبما يملك من وسائل وامكانيات ونفوذ وتأثير يتــدخل بحجـــة نصرة حقوق الانسان التي انتهكت على حد ادعائه ، وتحت ستار الدفاع عن الحريات العامة .

وبداية فليس ثمة خلاف في ان مساحة الحريات بكافة اشكالها في الــوطن العربـــي محدودة . وليس ثمة اعتراض في ان "الابداع" لا يزهر ولا يثمر الا مـــن خـــلال مناخـــات الحرية التي تسهم في انضاجه واكتماله والانتقال به من حـــالات التســـطيح الـــى التعميـــق والانطلاق الى فضاءات ارحب مدى واكثر اضاءه . لكن المشكلة تكمن في تحديـــد مفهـــوم الحرية التي يتطلبها الابداع ، فهل هي حرية منضبطة لا تخرج على حدود العقيدة ومنظومة الاخلاق السائدة وتنطلق من انتماء الى الجذور والاصالة والتاريخ والهوية ، ام انها حريـــة طابعها الانفلات والتحرر من القيم والمثل وتنطلق من ارتماء في احضـــان ثقافـــات وافـــدة اهدافها الغزو ومحو الاخر وتذويبه في بوتقتها ، وبالتالي الغـــاؤه مـــن خارطـــة الثقافـــات الانسانية والاسدال على دوره الابداعي ، وتحويله الى مجرد "متلق مستهلك مجتر" .

وهنا لابد لنا من الاحاطة ببعض الاشتباكات الاحتجاجية حول ما يسميه البعض بانتهاك لحرية الابداع والمبدعين . فمن الملاحظ ان "العواصف" كانت ولا تزال تثور حول اعمال ابداعية لمبدعين ناشئين او مغمورين تقصدوا ان ينتهكوا المحرمات العقائدية او الاخلاقية التي تشكل البنية الاساسية لفلسفة مجتمعاتهم ، وذلك بهدف ان تكتسب "ابداعاتهم" قسطا وافرا من الشهرة والرواج . وهي على ما يبدو حالة تتكرر على الدوام وكان رائدها "سلمان رشدي صاحب ايات شيطانية" والكاتبة البنغالية "تسنيم" وكلاهما وجدا من الحماية والرعاية والاحتواء والشهرة من جهات في الدول الغربية وقفت مؤازرة ومشجعة ومكافئة . وهنا يبنغي التنوية الى العاصفة الشديدة التي احدثتها رواية "وليمة لاعشاب البحر" مؤخرا . والى عهد قريب الى احدث عاصفة جراء صدور ثلاث روايات لكتاب ناشئين في مصر اتهموا بانهم تجاوزوا الحدود الاخلاقية باستخدام الجنس الفاضح . وثمة حالات اخرى في اقطار عربية ، وكلها تدور في ذات الدائرة .

وفي ذات السياق لا ينبغي الالتفاف على احدى المرتكزات الاساسية التي يستند اليها "دعاة التحرر الابداعي" والذين تثار في الغالب حولهم تلك العواصف . ونقصد بها المرتكز الخاص بالتحديث والحداثة الذي ينادون به ، والذي هو من منظورهم يتمثل في كسر لكل القوالب الثقافية بحجة تحجرها وقسوة ضوابطها وعدم مجاراتها لروح العصر ، وعجزها عن الانطلاق الى فضاءآت مشاهده الثقافية الحداثية . الا ان احدى اخطر التهم الموجهة الى هذا التحديث انه لا ينطبق من الذات العربية ، وانما هو في المحصلة خروج عليها وارتماء في احضان ثقافات الاخر وتقليد اعمى ومشوه له .

ان احد اهم مزايا الوطن العربي التي لازمته على مدى كل عصور تاريخه انه ذو خصوصية تتمثل في انه كان على الدوام صانع حضارة وصاحب ثقافة وبالتالي له تميزه ومزاياه . وثمة حقيقة اخرى انه لم يكن مجرد متلق . وفي نفس الوقت فهو غير منغلق على ابداعات الاخرين والتأثر بها ، ولكن ليس الى درجة الانصهار والذوبان والاقتلاع من الجذور ، وهي حالات على ما يبدو تشكل الاهداف الرئيسة للغزو الثقافي المتجدد في زي العولمة والحداثة اللتين تسوقان على ايدي "اللامنتمين" للثقافة العربية اصيلها ومعاصرها ، وان كانوا لسانا محسوبين على العروبة ، وذلك بحجة تحديثها والانتقال بها الى العالمية . وفي الحقيقة انهم لم يقوموا الا باستيراد القوالب والمدارس والمذاهب والاساليب الادبية

على علاتها وكانوا بذلك صدى لصوت الاخرين ومجرد مقلدين او مبشرين بهم وبابداعاتهم .

وفي ظل هذه العواصف والتيارات والاجواء فان حرية الانضباط والانتماء تظل مطلبا لحركة الابداع العربية ومبدعيها وذلك ضمن الحدود التي تحافظ علـــى الاصـــالة والهويـــة الثقافية والعقائدية والاخلاقية دون ان تتجرأ للتطاول عليها ، او الخروج مـــن الجلـــد الـــى التبعية والترقيع الثقافيين .

في اعتقادنا ان الحركة الابداعية العربية لا يعيبها البتة ان لا يكون الجنس الفاضح او التطاول على العقيدة من اساسياتها . ففي هذه المرحلة المصيرية بالذات من تاريخ الامة العربية ، فان الحركة الابداعية العربية مطالبة ان لا تخرج اقلامها ووسائلها الاخرى مـــن ساحات النضال لتجسيد الهوية السياسية العربية ، ولا ينبغي لها التوقف عن التحليق فـــي فضاءات الاهداف القومية في التحرر والسيادة والوحدة ، وتعميق روح الانتمـــاء القـــومي والعقائدي لدى الاجيال الشابة العربية والتي تخلخلت جذورها جراء موجات الانفتاح المتهور على قشور حضارات الاخرين وفتات موائدها . وتظل نضالات الاقلام المبدعـــة مـــن اجـــل القضاء على منظومة الفقر والمرض والجهل والتخلف هدفا ساميا لا ترقى اليه اية اهـــداف الا اذا كانت في مستواه .

حــرية التفكير والإبداع

تهب على الوطن العربي بين حين واخر عاصفة ثقافية قد تكون فكرية مجــردة او ابداعية يقف في الغالب وراءها روائي او اديب او شاعر اما انهم يبحثون عن شهرة مــن خلال طرح عمل ما ايا كان شكله ، يعمل على خلخلة الامن الثقافي والفكري للمجتمــع . او انهم اصلا ينتمون الى شريحة من اوساط فكرية او ابداعية اطلقت علــى نفســها مســمى "المثقفين الحداثيين" قد سمحت لنفسها اجتياز سياج محرمــات فلســفة المجتمــع الســائدة والتسلل عبره منتهكة بذلك منظومة القيم والتقاليد ، وماسة بالموروث العقائدي والفكــري ومستبيحة اياه . وفي نفس الوقت فهي تناقض ما تدعي انه "حقهــا فــي حريــة التعبيــر والابداع والتفكير" فتهاجم بضراوة كل من يتصدى لها مدافعا عن قيمــه وتقاليــده ومثلــه وتراثه ، ناعتة اياه بانه ظلامي خرافي جاهلي رافض للعصرنة والحداثة والتطوير الى اخر ما في هذه المنظومة من اوصاف .

وقبل الخوض في غمار هذا الموضوع ثمة حقائق لا بد من طرحها هنا وتتصــدرها حقيقة حساسية الجماهير العربية في كل جغرافيا عربية تجاه معتقداتها وقيمها وموروثاتها الايديولوجية والثقافية ، وبخاصة في هذه الايام التي تتسرطن فيها ثقافة العولمة التي تهدف الى تدمير ما لدى الشعوب من ثقافات وفي مقدمتها الثقافة العربية الاسلامية . وثانية هــذه الحقائق ان المدافعين عن الثقافة العربية بكل ابعادها واتجاهاتها لم يبدأوا هــم المعركــة ، وكانوا على الدوام مدافعين ومنافحين ليس الا. وانما بدأها اولئك "المثقفون الحداثيون" الذين يشنون هذه "الهجمة الفكرية الثقافية الابداعية" الشرسة ويختارون المواقع الأكثر حساســية في فلسفة المجتمع السائدة ليقصفوها بافكارهم العولمية المستوردة . واخيرة هذه الحقائق لا اخراها ان المساس بالفكر العقائدي بأي حال من الأحوال او الاقتراب منه هو عمل خطيــر غير مسؤول يجر الى عواقب وخيمة وتداعيات خطيرة . وهو بأي حال من الاحوال لا يمكن له ان يتم تحت ظلال ما يسمى حرية التفكير والابداع والتحديث والتطــوير ومســايرة روح العصر والحداثة ، او تحرير العقل العربي ، تلك الذرائع التــي يــدعي هــؤلاء المثقفــون الحداثيون انها تشكل برنامج اجندتهم . وهي في الواقع عملية نزع جلود ثقافية في اطــار التخلي عن كنوز الثقافة العربية الاسلامية وقطع الصلات معها والتنازل العبثي عنها .

وانطلاقا مما سلف ، فثمة تساؤلات تطرح نفسها في هذا السياق تخص هذه الهجمة الشرسة على مجمل الثقافة العربية . والسؤال الأول حول ما اذا كـــان هــؤلاء المثقفــون الحداثيون وقد اضافوا الى مسماهم فعالية جديدة بشأن الدعوة الى العولمة – يتحركون من تلقاء انفسهم ام ان هناك جهات معينة تتولى تحريكهم لقاء اهداف ومرام ومغـــاز لـــم تعـــد خافية على احد . والسؤال الثاني في ما اذا كان كثير من هؤلاء يقترفون هذه الافكار طلبـــا للشهرة ولفتا للأنظار وجنيا للمكاسب . وهي آلية ليست جديدة ، اذ ليس اسهل على كاتـــب او مفكر او شاعر او روائي مغمور من ان يتطاول على مقدسات امته باسم حرية الفكـــر ، لكي يصبح عندها "مادة اعلامية" وحديثا على السنة الناس ، لعله بذلك يخرج مـــن "ظـــلام التنكير" الى "فضاء التعريف" . وسواء كان هذا الاحتمال او ذاك او كلاهما معا او غيرهما ، فالمحصلة واحدة هي التشكيك بالثقافة العربية بكل ابداعاتها اصيلها ومعاصرها ، ومحاولـــة لاقتلاعها من جذورها خدمة لأغراض واهداف لم تعد خافية على كل ذي بصر وبصيرة .

وجراء كل ذلك وعلى خلفية تكراره ، ففـــي اعتقادنـــا ان شـــرائح عريضـــة مـــن المجتمعات العربية قد اصبحت ذات حساسية تجاه اعمال ادبية او فكرية او ابداعية اخـــرى تصدر في العالم العربي وتفوح منها رائحة المساس بالمعتقدات الدينية والتي يحاول البعض الذي نصب نفسه قيما على الثقافة العربية ان يدافع عنها تحت ستار حق الحرية ، متـــذرعا بحجة تطوير هذه الثقافة وتحديث الوان مشهدها ، والتحدث مع الآخرين بخطـــاب عصـــري آخر مقبول لدى الاوساط الثقافية العالمية . وفي حقيقة الامر ان المساس بالمشاعر الدينية من خلال اعمال ابداعية باسم حرية التفكير او التعبير او بقصد السير فـــي ركـــب الحداثـــة مرفوض كونه – كما اثبتت كل المحاولات السابقة – كان عامل هدم وتمزيق وتفسيخ لكـــل البنى الاساسية التي تقوم عليها المجتمعات العربية ، اضافة الى انها تعميق للصدوعات التي تعمل على انقسام هذه المجتمعات من الداخل ، وانكسار تضاريس لحمة وحـــدتها انكســـارا حادا . وهي في المحصلة حرية عبثية تهدم لا تبني ، وتبدد لا تصون ، وتهدد لا تحمي .

وخلاصة القول ان مبدأ حرية التعبير والابداع حق لا جدال فيـــه . ولكـــن قبـــل ان تطالب اية فئة بحقها هذا فان عليها ان تحترم حرية الاغلبية في عقائدها وتوجهاتها الثقافية والفكرية . وهذه الاغلبية الساحقة ليست مجدر فئة او طائفة او جهة او حزب او حركـــة ، وانما هي امة عريقة لها جذورها الضاربة في اعماق الحضارة الانسانية ولهـــا منجزاتهـــا وابداعاتها وتراثها ، وقبل كل شيء تميزها وتفردها . وثمة ميادين كثيرة لهؤلاء المثقفـــين

الحداثيين غير المساس بالمعتقدات ، لا ينبغي لهم ان يلتفوا عليها او يتجاوزوهـــا ، او ان يخرجوا اقلامهم وادوات ابداعهم الأخرى من معركتها . هناك موضـــوعات جمـــة وقضـــايا اساسية ما زال الوطن العربي يفتقر اليها نسوق منها مثالا لا حصرا الحريـــات السياســـية والاجتماعية ، والديمقراطية وعدالة توزيع الثروات وتكـــافؤ الفـــرص والصـــحة العامـــة والمحافظة على البيئة ، علاوة على حق الحصول على رغيف الخبز والتعلـــيم والـــدواء ، ومحاربة الجشع وتمركز الثروات لدى فئات محدودة من المجتمع العربي . في اعتقادنـــا ان هذه موضوعات تشكل وليمة دسمة لكل صاحب قلم او اداة ابداع اخرى لا يهرب منها الا من كانت نواياه لا تتقاطع وتطلعات مجتمعه وامته . وليس هؤلاء بحاجة الـــى تـــذكيرهم بـــان مناطق هامة من الوطن العربي ما زالت تناضل من اجل التحرر والســـيادة والرجـــوع الـــى احضان الوطن العربي . ان هذه وتلك موضوعات اساسية لا غنى عنها وتستحق ان تظـــل الاقلام وادوات الابداع العربية تدور في افلاكها حتى النهاية .

خلف كواليس الإبداع

بداية نود ان ننوه الى ان الإبداع لغة هو ايجاد الشيء على غير مثال سابق ، ويحمل في طياته الاجادة والاتقان . وفي مفهومه الحالي يتمثل في منظومة ما تجود به ملكات الشعراء والروائيين والكتاب والفنانين عامة من اعمال ادبية او فنية صادرة عن رؤية ثاقبة واحساس مرهف وعواطف صادقة وتجربة شاملة تحت ظلال الابتكار والتجديد ، اضافة الى كونه يتصدر الجزء غير المادي من الحضارة الانسانية .

تدفعنا اعتبارات كثيرة ان نفتح ملف الابداع والعلاقات في ما بين المبدعين ايا كانوا شعراء ام ادباء ام روائيين ام فنانين بكل تفرعات الفن وتشكيلاته ، والى قراءة ما يدور خلف كواليس الابداع واستقرائه . ففي اعتقادنا ان هذه العلاقات التي يفترض بالابداع ان يصقلها في بوتقته ويخرجها نقية لا تشوبها شائبة في ما عدا عناصر المنافسة الشريفة ، كانت على الدوام وفي كثير من الاحيان تتخذ من المنافسة غير الشريفة وغير الموضوعية مسارا لها يرسم خارطة العلاقات المتنافرة المتضادة بين المبدعين .

فالابداع ايا كان شكله وما يتبعه من منظومة الشهرة والانتشار والثروة والمكانة الاجتماعية لجمهرة المبدعين من المؤكد انه يثير تيارات متعاكسة الاتجاهات من المشاعر والاحاسيس لدى المتلقين سواء كانوا هم الآخرون مبدعين او غير ذلك . فثمة الذين يهللون ويكبرون ويغتبطون ويغبطون ويتمنون ازدياد العطاء والتألق للمبدعين ، وثمة الذين يحسدون ويحقدون ويقللون من قيمة ابداع سواهم رامين اياه بشتى سهام الازدراء والاقلال والتحقير لا لسبب الا لأنهم يكرهون النجاح للآخرين او انهم يتمنون زواله عنهم كيما تخلو لهم الساحة .

وفي الحقيقة ان الابداع هو عالم المنافسة الاوسع والارحب والذي يفترض به ان يكون شريفا خالصا مخلصا لوجه الابداع بهدف ارتقائه سلم التطور والرقي وتأدية الرسالة المثلى بالتالي . الا انه وليس في العصر الحاضر فقط وانما على الارجح في كافة العصور كان مدعاة ايضا للحسد والدس والوقيعة والاشاعة المغرضة .وفي اعتقادنا ان هذه المشاعر السالبة اصبحت تشكل جزءا لا يتجزء من ضريبة الشهرة ، وهو الجزء الاصعب والافدح

ثمنا . ويهمنا هنا ان نسلط الاضواء على دور "المبدعين الآخرين" الذين لـم ينـالوا مـن الشهرة والانتشار والثروة والمكانة الاجتماعية والحظوة ما ناله غيرهم . وهنا لا بد لنا ان نتحدث عن فريقين من هؤلاء غير المحظوظين . فثمة فريق مبدع حقا ويستحق اكثر مـن غيره الا انه كان "ضحية " التزامه بخط فكري واجتماعي وربما سياسي انتهج السير عليه ، فلم يسمح له ان يمالىء او "ان يمسح جوخا " او ان يكون بوقـا او صـوتا لسـيد ، او ان يحظى بتغطية اعلامية جراء افتقاره الى حضور او معارف او أي شكل من اشكال النفـوذ ، او ان هناك اسبابا تخص مدى انفتاحه على الآخرين او انغلاقه ، فظل هو ومعظم ابداعاتـه في الظل في حالة كسوف شبه دائم . واما الفريق الثاني فهو الذي يمكن ان يوصف بأنه لا يستحق كونه ما زال في اول درجات سلم الابداع ، او لأنه يتوهم انه وصـل ذروة العطـاء ظانا ان المنظومة الابداعية مطية سهلة الركوب . وفي عالم الابـداع هنـاك دائمـا الغـث والسمين والتجديد والتقليد . وهنا فاننا نود ان ننوه الى اهمية دور الاتجاهـات السياسـية والفكرية والاجتماعية والمستوى الاقتصادي في "صناعة المبدعين والابداع" في هذا العصر الذي يعتمد على كثير من التقنيات الحديثة وبخاصة وسائل الاعلام المرئيـة التـي تصـنع العجائب ، فتسير الناس في الاتجاهات التـي تريـدها وتـتحكم فـي تفكيـرهم واذواقهـم واحاسيسهم ومشاعرهم وتفرض عليهم الاشكال والالوان والمـذاقات . ان هـذه الوسـائل الاعلامية قادرة بما لديها من امكانيات – وهذا امر حاصل فعلا – على ابـراز جيـل مـن "المبدعين " في الأدب والشعر والرواية والغناء والفنون الاخرى وتلمـيعهم وجعلهـم فـي مقدمة المسيرة الابداعية ، واكثر من ذلك ان يتبوؤا عرشها . وفي عصر الفضائيات فـان خارطة الانتشار والشهرة تكون اشمل وارحب مما يمكن تصوره .

ما من شك ان هدف اية ثقافة انسانية معاصرة – وبغض النظر عن كـل العناصـر التي يمكن توظيفها في هذا الصدد – هو تطوير الابداع افقيا وعموديا وتجدده على الـدوام واتساع مساحته ، فان اجواء التآلف والألفة والمودة والمنافسة الشريفة بـين المبـدعين ، تظل في اعتقادنا في مقدمة هذه العناصر ، وهي اضافة الى ذلك تعمل علـى ايجـاد عامـل توحيد ثقافي لأية جماعة انسانية . في حين ان عكس ذلك يؤدي الـى احبـاط كثيـر مـن المبدعين كونهم يعملون تحت ظلال اجواء غير صحية تسودها مشاعر انسانية سالبة تسيطر عليها الانانية والاستحواذ ، وكأن الابداع اصبح غابة يفترس فيها من له السطوة والمقدرة والعزوة أولئك الذين يفتقرون اليها وبالتالي فان الابداع الحقيقي يكـون اول ضـحايا هـذا الوضع الشاذ .

ان المبدعين هم ازهار الثقافة الوطنية والقومية ، ولا ينبغي لأية زهرة ان تتطاول الى الحد الذي تحجب فيه الشمس والهواء عن الزهور الأخرى مهما كان لون هذه الزهرة وشذى عبيرها . وهنا يتضح لنا دور الجهات الراعية التي يفترض ان تكون موضوعية عقلانية وحيادية في تعاملها مع مبدعيها ، وان لا يميل بها الهوى فتفضل شكلا ابداعيا على آخر او ان تظل تدور في فلك بعض المبدعين الذين نصبتهم اولياء امور للابداع . وفي الوطن العربي – وعلى ما يبدو دون سواه – جرت العادة ان تكال الالقاب والصفات المبالغ بها لبعض المبدعين وكأن الدهر لن يجود بأمثالهم ، وهو سلوك يمكن ان يولد آثارا سالبة على المبدعين الآخرين ، كونهم يشعرون ان الوصول الى درجاتهم امر شبه مستحيل لما احيطوا به من هالات التعظيم والاجلال والاكبار .

وخلاصة القول ان الأبداع هو الروح التي تمنح الوجود حيويته وحياته ، وهو الذي يلون هذه الحياة بالحب والجمال والألفة والمودة والتواصل بين الناس . وهو الذي يجسد هوية الانتماء ويعمقها ويبرز خصائص التميز والتفرد ويخصص لهذه الجماعة مكانة مرموقة على خارطة الثقافات الانسانية . وهو الذي يجعل للحياة مذاقا مستساغا . ويفترض به ان يكون حرا طليقا غير مقيد ولا يخضع لأهواء او اتجاهات او تأثيرات مقصودة تحدد له اتجاهاته ومساراته . الا ما يشعر به المبدعون ويلزمون انفسهم به بلا اكراه تجاهه . ويفترض ان تكون هناك الية واعية للبحث عن المبدعين واكتشافهم ورعايتهم على الدوام ، ذلك ان اية جماعة انسانية لا تكبر الا بمبدعيها كما ونوعا ، ويظل الوطن والحب والعلاقات الانسانية المرتع الخصيب للإبداع والمعين الذي ينهل منه كيما يستمر وجوده .

منظور في أساسيات
النقــد الأدبي وتسويق الإبداع

ليس الهدف هنا هو الحديث عن تاريخ مدارس النقد الادبــي المتعــددة وتطورهــا اوالاسس التي انطلقت منها او الفضاءات التي حلقت فيهــا ، وكــذلك لا يســتهدف الــذين ساهموا في تأسيسها . واذا ما جاز لنا التعبير فان الحديث ســوف يتنــاول منظــورا فــي اخلاقيات النقد الادبي وتسويق الابداع . ففي هذا العصر الذي تعددت فيه المدارس الادبيــة والنقدية لم يعد الابداع حرا طليقا كما كان سابقا . واذا كان البعض يشكو من ضيق مساحة الحرية المخصصة للابداع والمبدعين من قبل الانظمة السياسية . فعلى ما يبــدو ان هنــاك "اجهزة نقدية" نصبت نفسها في برج عال تمارس من خلالــه فوقيتهــا المغلفــة بــالتنظير والتسيير خارجة بذلك من دائرة التحليل النقدي الى ممارسات جلد وقمع فكريين في احيــان كثيرة ، في ذات الوقت تبيح لنفسها الحق بالتدخل المباشر فــي تكــوين الابــداع وتلوينــه وتصنيفه وكيله وقياسه وفق معايير خاصة بها تنسبها الى الافاق الحداثية التي تبشر بها .

وبداية نود ان نشير هنا الى ما نعتقد انه من الاساسيات والتي تشكل البنية الرئيسة لاحتراف النقد الادبي . واول هذه الاساسيات ان النقد الادبي ليس ابداعا في حد ذاته وليس فيه أي عنصر من عناصر الانتماء الى الابداع . وانما هو تابع للابداع يعيش على مائدتــه سواء كان شعرا او رواية او قصة او مسرحا او مقالة او سيرة ذاتية . والابداع كــان ولا يزال سابقا لنقد وبفترض ان يكون متبوعا لا تابعا . وثاني هذه الاساسيات تفترض ان النقد الادبي فعالية يتم توظيفها بهدف تحليل الابداعات الى عناصرها الاساسية واضاءة خفاياهــا وتبيان اتجاهاتها ومتابعة مدى حالات التطور والجمود في مجمل الحركة الابداعية او النص الابداعي ذي الشأن ليس الا . وبطبيعة الحال فهو ايضا يتمحور حول استقراء حالات التأثر والتأثير بالابداعات الاخرى ونقصد بها ما اصطلح على تسميته "بالتناص" . وفي هذا السياق ، الوقوف عند حدود التجديد والخلق الابداعيين وردها الى مبدعيها . وثالث هذه الاساسيات ان النقد الادبي لا ينبغي له ان يحابي أي شكل من اشكال الابداع دون آخر او ان يتعصــب لقالب ابداعي دون سواه . وبالتالي فانه والحال هذه يخرج عن اطار الموضوعية والحيــاد

حينما يضع ثقله في كفة شكل ابداعي ينتمي الى مدرسة ما دون آخر . وهنا لا ينبغي تجاهل حقيقة ان المتلقين ليسوا جميعهم ضمن باقة احادية التفكير والرأي والرؤيا والتذوق . فهم في الواقع شرائح ذات تشكيلة عواطف وميول واتجاهات الوان طيفها مختلفة ومتعددة . ورابع هذه المرتكزات ان الابداعات ايا كانت لا تقاس الا بمعايير زمانها ومكانها . ومن الخطأ الفادح او التجني الحكم عليها بغير هذه المعايير . وان الادعاء بان هناك مرجعية واحدة منسوبة الى جغرافيا ما باطل . الا ان ثمة اساس على جانب كبير من الاهمية يفترض ان يقوم عليه النقد الادبي يتمثل في ان لا يكون هناك محاباة لمبدع على حساب مبدع آخر ، او السير في ركاب هذا المبدع او خلفه .

ان استقراء واقع حركة النقد الادبي في الوطن العربي يفرز حقائق لا شك في مصداقيتها . فثمة حقيقتان نسوقهما مثالا لا حصرا . وتتمثل اولاهما في انتفاء وجود حركة نقدية عربية حقيقية ومنتظمة تترك بصماتها على الابداعات الأدبية المختلفة . وهذا لا ينفي وجود شريحة مرموقة من النقاد العرب ، وشرائح اخرى تتخبط في تحركها . وثانية هذه الحقائق ان النقد الادبي مشرذم يخضع في كثير من الاحيان لأهواء هذه الشرائح التي تتحكم بها نزعات شخصية ، او انها في الغالب تتموضع على هوامش الثقافات الغربية .

لكن اخطر أزمة اخلاقية وفنية يعانيها النقد الادبي في الوطن العربي انه يعتمد المدارس النقدية المستوردة من الآداب الغربية . وهذه بطبيعتها تطورت موازية لتطورات الحياة الغربية التي شهدت كثيرا من المتغيرات التقنية والسياسية والاجتماعية والعقائدية والاقتصادية لم يشهدها الوطن العربي الذي تصر شريحة من مثقفيه ان تخضعه للثقافة الغربية ومنها المدارس والاساليب والقوالب النقدية والادبية والنظريات التربوية والنفسية والسلوكية . وغني عن القول ان هناك اختلافات كثيرة بين منظوري الحياة العربية والغربية . وهنا ننوه مرارا وتكرارا الى اننا لا نؤيد انغلاق الوطن العربي امام الثقافات الواردة ، ولكن نصر على عدم الغزو والاجتياح والاقتلاع من الجذور والموازنة الانتمائية بين المحلي والمستورد .

لقد عجزت هذه الشريحة المثقفة حتى الآن عن تطوير مدرسة نقدية عربية بهدف الرجوع اليها . وفي الحقيقة ان هذه القضية لا تخطر لها على بال . ومن ناحية اخرى اصرت على ممارسة دور التبشير بهذه المدارس المستوردة على انها المرجعية النهائية في

التقويم والقياس واصدار الاحكام . وبالتالي فقد انحازت لها وحابتها وطبقتها على الابداعات العربية الادبية بغض النظر عن الفوارق في طبيعة المنظورين الحياتين . وفي المقابل فقــد ادركت شريحة من المبدعين العرب هذه اللعبة فتماشت معها فاخذت تنسج ابداعاتها علـــى النمط الغربي مقلدة لها بحذافيرها ، كيما تحظى "باكاليل الحداثة واوسمتها" واطراءآت النقاد مسوقي المدارس النقدية الغربية ، حالمة بذلك ان تنتقل من واقع المحلية الى فضاء العالمية . واما الذين لم يسايروا هذه الموجة ، فاما ان بعضهم قد تعرض للهجوم والنقــد الـــلاذع ، واما الشريحة الأكبر فلم تحظ بشرف اهتمام هؤلاء بهم ، وظلت غالبيتها خارج نطاق هــذه المكرمة . والحديث هنا ذو شجون ، ولكن لابد من التنويه الى ظاهرة تنضوي تحت ظـــلال مثل هذه الحركة النقدية تتمثل في اجراء دراسات نقدية لأعمال ابداعية معينة لأسماء معينة يتبعها هؤلاء الدارسون الناقدون كظلالها جريا وراء "تجوميتها" لعلهم يحظون بنصيب منها . وهنا فليس من المستبعد ان يكون الدافع وراء مثل هذا التحـــرك اتجاهـــات سياســـية او علاقات شخصية او حتى دوافع مادية ، ويظل الابداع الحقيقي في منأى عنها ، واسمى من يكون محكوما للنزعات والاهواء مهما كانت تحمل من مسميات براقة ولماعة .

تطورنا الحضاري:
المنظور والمحظور

بادىء ذي بدء ، نود ان نؤكد ايماننا الذي لا تشوبه ادنى شائبة بحتمية التغيير في كافة المجالات الحياتية ، فالتغيير وما يصحبه من تطور حضاري هما سنة الحياة وطبيعتها وديمومتها ، في حين ان الجمود يعني التحجر فالموت فالاندثار .

ومنذ ان كانت الحياة لم تخرج عن تلك القاعدة التي لولاها لما وجدت الحضارات ولا سادت ولا ازدهرت . وثمة بدهية اخرى نؤمن بها تتعلق بميل الانسان الفطري في الاخذ عن الاخرين ومحاكاة ما لديهم ، وهذا يفسر تداخل الحضارات الانسانية مع بعضها البعض ، وينفي عنها صفة الاقليمية العنصرية او العرقية ، ويكسبها بالتالي صفة الانسانية الشاملة .

لكن هناك تحفظا مشروعا يدور حول الحد المسموح فيه للحضارات ان تصل اليه في اختراقها للحواجز والحدود القومية التي اصطنعها الانسان ، ونؤكد هنا وبكل حزم ووضوح انه ليس مسموحا ولا مشروعا لاية حضارة وافدة ان تقتلع اي شعب كائنا من كان من جذوره او ان تلغي اصالته ، او ان تجعله تابعا يدور في فلك غير فلكه .

وثمة بدهية ثالثة تفرض نفسها في هذا السياق مفادها ان الصراع بين الاجيال هو ظاهرة ايجابية ، وهو لم ولن يكون صراعاً دمويا ، بقدر ما هو اختلاف في الاذواق والمشارب والمشاعر والاحاسيس والرؤى تفرضه طبيعة المرحلة الآنية وما وصلت اليه الحضارة الانسانية من اكتشافات او تقنيات جديدة ، وهو ما يسمى بالصراع بين جيل المخضرمين وجيل الشباب او بين الحاضر بحداثته واساليبه المتغيرة وسرعة انجازاته وتعدد مشاربه وبين الماضي باصالته وامتداده التاريخي الطويل وعراقته .

في مشرقنا العربي ومغربه تتجسد حتمية التغيير والتطور الحضاري في اكثر من اتجاه وبعد ، وتكاد تشمل معظم مناحي الحياة العربية المعاصرة وتطالها . وكل ذلك يتم في اطار التجديد والتحديث ومواكبة روح العصر .

ونحن لا نعترض على هذا ونؤكد على انه ضرورة وحتمية في آن واحد ، وهذا يقودنا الى ان نعلن صراحة اننا لسنا ضد تحديث الفنون باشكالها المختلفة والاداب بعامة ومنظومة القوانين والانظمة والعادات السائدة ، ولا نستثني من كل ذلك الادوات المستخدمة والمآكل والملابس وحتى العلاقات الاجتماعية ، ولا نجد ضيرا في الاخذ عن الحضارات الاخرى ، ولكننا نهمس بل نصرخ باعلى اصواتنا ان كثيراً مما يجري على الساحة العربية يتعدى كونه تغييراً حقيقياً وضروريا ويخرج عن مساره الطبيعي ، وهنا لا بد لنا ان نتدخل في غمرة موجات التغيير والتطور الحضاري المتسارعين واللذين لا يقفان عند حد وان نؤكد مرة اخرى على انها لا تشمل ، ويجب ان لا تشمل :

منظومة المبادىء والقيم الانسانية التي ولدت وترعرعت عبر نسيج كل لحظة من تاريخنا واستقرت في ذاكرتنا الثقافية وشكلت بالتالي هويتنا الحضارية ، وميزت شخصيتنا الانسانية على مدى العصور .

وهي بطبيعة الحال محظور عليها ان تتجاهل التراث الثقافي والحضاري والتاريخي او تحييده ، ذلك انها لو فعلت ذلك تكون قد شوهت الهوية الانتمائية في ابعادها الوطنية والقومية والعقائدية .

كما ان هذه الموجات لا تعني بأي حال من الاحوال الالتزام بالجانب المادي للحضارة والمدنية والتخلي عن البعد الثقافي والروحي او اهمالهما .

وهي ايضا لا تعني اخضاع المشاعر والاحاسيس الانسانية للآلية التي تتخذ من الارقام والمحسوسات والملموسات معايير لها دون سواها ، وهي بهذا تلغي المشاعر والاحاسيس ، وليس للعواطف الانسانية والوجدانية ادنى مكان لديها . وهذا ينطبق على الفنون التشكيلية من نحت وتصوير ، والاداب من شعر ونثر ، والموسيقى والغناء والتمثيل او جعلها تدور في فلك "الصرعات والموضات والتصنيع والتصنع" وتجريدها من كونها رسالة ذات مضمون انساني وجمالي واخلاقي وفكري واجتماعي وتربوي .

وهي لا تعني بأي حال من الاحوال الاستغناء عن القديم لمجرد انه قديم واستبداله بجديد لمجرد انه جديد مأخوذين بهوس التجديد المجرد من كل مضمون او هدف .

وهي لا تعني استيراد قوالب حضارية او ثقافية مما لدى الاخرين ، او حتى تقليد هذه الحضارات حتى نغذي ونشبع "عقدة العالمية " التي اصابت الكثيرين منا واستحوذت على تفكيرنا الى الدرجة التي نسينا انفسنا عندها وبدأنا نذوب في ذوات الاخرين ، ونفقد اهم خصائصنا .

وهي لا تعني باي حال من الاحوال تهميش دور اللغة العربية ، واحلال اللغات الاجنبية محلها ، ومنحها مكانة الصدارة في حياتنا العامة وتفكيرنا وثقافتنا ومسمياتنا ، فلغتنا العربية هي حد من حدود شخصيتنا الانسانية لا يجوز تجاوزه .

واخيرا وليس آخراً فهي لا تعني الاستغناء عن المحلية وقلب ظهر المجن لها ، او الخجل منها او الاحساس بدونيتها امام موجات عقد التحلي او التزيي بالعالمية او الحضارية .

وثمة الكثير الكثير من التحفظات والمحظورات ، ولسنا هنا بصدد الاحصاء والحصر بقدر ما نهدف الى عرض بعض الامثلة ليس الا .

ان التحديات التي تواجه الامة العربية كبيرة وخطيرة وبخاصة في عصر زالت فيه الحواجز الاعلامية وبات الغزو الثقافي الآتي من "الفضائيات" وغيرها ناقوساً يقرع ايذانا بالخطر المحدق الذي يتهددنا حضارة وثقافة وهوية ووجودا وانتماءً وتراثا وشخصية انسانية ويقضي بالتالي على كل مناعة ثقافية او حضارية لنا موروثة او مكتسبة ، ويفتك باجيال الشباب ويغير مساراتها واتجاهاتها ، وهذا يبدو جليا في موجات غنائها وشعرها وموسيقاها وفنونها ولباسها وعلاقاتها الاجتماعية ، والحركات الشيطانية المشبوهة التي ان دلت على شيء ، فانما تدل على ان فيروس الغزو الثقافي قد بدأ يستشري في اذهان بعض الناشئة ، ويفتك بنسيجها الانتمائي ، جراء ما تشهده الاقطار العربية من انقسام وشرذمة وضعف وتخاذل وارتماء في احضان الاخرين ، وجراء دوامات الفراغ الروحي

والوجـداني والعاطفي ، وافلاس لكثير من انظمتها وبرامجها التربوية التي باتـت عـاجزة عن تحقيق اي انجاز يذكر في مجالات العلوم والتقنية والفنون والرياضة وسواها كثير .

اننا نؤكد ان موجة التغيير الانية تفوح منها رائحة الغير والتقليـد الاعمـى وانعـدام الهوية الانتمائية والصخب والضجيج والعنف الى درجة الجنـون ، وتنعـدم فيهـا رائحـة الاصالة ولونها وطعمها .

لكننا نؤكد ان اي تغير يصحبه تطور حضاري مسموح به ومشروع ، بشرط ان لا يطال صروح ثقافتنا واصالتنا وشخصيتنا وهويتنا الثقافية المميزة وتراثنا ومنظومـة قيمنا ومبادئنا ومثلنا العليا ، او ان يقتلعنا منها ، ومن امتدادنا التاريخي عبرها .

فضائية الثقافة .. واقع ورؤيا

في اجتماعهم الاخير في امارة الشارقة ، قرر وزراء الثقافة العـرب انشـاء قنـاة فضائية مخصصة للثقافة ، وهي لاشك خطوة مباركة ذات اهمية قصوى في الحياة الثقافيـة العربية . وبادئ ذي بدء فاننا نفترض ان تكون هذه القناة مخصصة للثقافة العربية ، وان لا تكون مجرد قناة فضائية عربية مخصصة للثقافة ايا كانت او انها مجرد سوق ثقافية حرة ، والفرق في المدلولين كبير للغاية ولا يخفى على المثقفين وبخاصة الغيورين مـنهم علـى الثقافة العربية التي تتعرض لتحديات خطيرة وغزو مخطط له من الخارج . ان الحديث عن فضائية الثقافة ذو شجون ويقودنا بداية للحديث عن المشكلات التي تعايشها الثقافة العربية على المستوى القومي وهي كثيرة ، ولعل اعمقها واخطرها انها تحمل مسمى نظريا فارغـا من محتواه الحقيقي الى حد ليس بالبسيط ، وبكلمات اخرى فان الاقليمية الضيقة ما تـزال المنطلق للابداعات الفكرية والفنية والادبية في الاقطار العربيـة ، وان معالجـة القضـايا العربية ما تزال تحتل مرتبة متدنية او انها لا تحظى بالاولوية لـدى طائفـة واسـعة مـن المبدعين العرب . ونحن هنا لا ننكر المشاركات الوجدانية التي يساهم بها بعض المبـدعين تجاه قضايا امتهم العربية الا انها تظل دون المستوى المطلوب بكثير الامر الذي يدفعنا للقول بان مجموعها لا يشكل قاعدة راسخة لثقافة قومية ، وذلك لعدة اسباب تكمن فـي التقوقـع الجغرافي وطبيعة الانظمة العربية التي هي في كثير من الاحوال على خلافات فيمـا بينهـا الامر الذي يحد او يحول دون مساهمة المبدعين في قضايا امتهم الاخرى ، وبطبيعة الحـال فان عدم التواصل والاتصال الواسعين بين جمهرة المثقفين تشكل هي الاخرى عاملا اساسيا في اضعاف النزعة الثقافية القومية وتظل اخطر المشكلات تكمن في انعدام مستوى معقـول من حرية التعبير والديموقراطية او ان شريحة من المثقفين آثرت عدم الصدام مع انظمتهـا فهادنتها او غازلتها ، وآثرت التقاطع معها على ان توازيها .

انطلاقا من هذه المشكلات آنفة الذكر فنحن نواجه ازمة تحديـد لمفهـوم "الثقافـة العربية المعاصرة" ولسنا هنا نتحدث عن التراث والتاريخ ذلك انهما يظلان الأساسين اللذين يمكن ان ننطلق منهما لتحديد هوية ثقافية عربية ذلك ان عناصر التجربة الوحدوية فيهمـا حقيقية ، بعكس العناصر الراهنة المبنية اساسا على الفرقة والتقوقع الإقليمـي الضـيق ، والظلال القاتمة التي تحيط بفضاءات العروبة باعتبارها ايديولوجية ، او بمشروع الوحـدة العربية على وجه التحديد ، والشكوك المثارة حول امكانية تنفيذه على ارض الواقع جـراء

الظروف الراهنة . واذا ما أضفنا الى ما ذكرنا آنفا ما يتعرض له الوطن العربي من تحديات على كافة الصعد السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والثقافية والاعلامية ، تتشكل لدينا صورة ازمة خطيرة تمر بها الامة العربية المنقسمة على نفسها والمنشغلة كل بمشاغلها الخاصة.

ان قرار انشاء القناة الثقافية الفضائية بما يفترض ان تحمله من اهداف لتوحيد الاطر والمضامين والرؤى والمنطلقات الثقافية على الساحة العربية ليست جديدة ، ففي الخمسينات والستينات من هذا القرن طرح مشروع التبادل الثقافي بين الاقطار العربية كخطوة رئيسة على طريق الوحدة الثقافية باعتبار هذه الاخيرة انها البنية الاساسية للوحدة العربية الشاملة ، ويومها لم تكن الامة العربية على ما هي عليه الان من اختلاف في الرأي وخلاف واحتراب وتطاحن وانقسام وتشرذم ، ويومها ايضا لعبت الاهواء السياسية في ازاحة هذا المشروع وطمسه والالتفاف عليه وتجاوزه .

الا ان المخاطر المحدقة في الوطن العربي الان هي اوسع بكثير واشمل ، فمنذ مطلع العقد الاخير من هذا القرن اخذت تتجسد معالم ما يسمى "النظام العالمي الجديد" الذي بشر "بالعولمة" على كافة الصعد ، ولسنا هنا بصدد الحديث عنها وتناولها كموضوع لنا ، الا اننا لا نجد ضيرا في إلقاء الضوء على بعض التفسيرات لها وبخاصة في المجالين الثقافي والإعلامي وهما يكملان بعضهما . واذا كانت العولمة قد انطلت على شريحة مثقفة عربية وآمنت بها كرسول مبشر لثقافة القرن القادم وحضارته التي ستنقل الإنسان الى حال ارقى واسمى مما هو عليه فهذا في اعتقادنا وهم وشرك اوقعت هذه الفئة نفسها فيه ، ذلك ان هذه "العولمة" هي نظام القوي المفروض على الضعيف ، ومخترع التقنية ومالكها على طالبها وشاريها ، ومالك الاعلام على متلقيه وصانع القرار السياسي على منفذه . وفيما يخص الثقافة فهي كل ما تصدره هذه القوى المتنفذة الى الشعوب الضعيفة حتى تلك التي لها تراث وتاريخ وحضارة . وهنا لابد لنا ان نشير ان العولمة هي قناع جديد للاستعمار القديم والحديث بكافة اشكاله ، او انها "البذرة المحسنة للاستعمار" ، بهدف امكانية تكيفها مع ظروف واجواء ومناخات مواتية لها ، ومتغيرات على ارضية القرن الحادي والعشرين ، الا انها في حقيقتها قناع يستر خلفه صورة الاستعمار والهيمنة والاستغلال .

وفي الوطن العربي ذي التاريخ والتراث والاصالة تعرض وما يزال لغزو ثقافي خلخل جذوره ، على ايدي الاستعمار الذي جثا ردحا من الزمن بين ظهرانيه وعلى ارضه

وتحت سمائه ، الا ان اخطر ما يتعرض له الوطن العربي الان هو ان "فئة مثقفة" من ابنائه تبنت "الفكر والثقافة الغربيين" اللذين بشر بهما الاستعمار واتخذتهما مرجعية لكل اشكال الابداعات الثقافية وبخاصة في مدراس الشعر والنقد الادبي والفن بكافة اشكاله والفكر ، وعلى ايدي هذه الفئة واستكمالا لمشروع العولمة والحداثة يتعرض التراث العربي لهجمة شرسة تصفه بالدونية وعدم مسايرة روح العصر والتقدم ، وبهذا تسعى هذه الفئة الى الالتفاف عليه للوصول الى عملية احلال لثقافات غربية بديلة "تنحو منحاها شكلا ومضمونا" على اعتبار ان في مجاراتها نقلة حضارية تكسب الاحترام في نظر اصحابها الغربيين ، وترفع من شأن متبعيها ومقلديها .

ان الساحة الثقافية العربية تعج بغبار التيارات الثقافية المختلفة المشارب والاتجاهات ، وهي ان دلت فانما تدل على دوامة وعدم وضوح في الرؤيا وتقصير في تحديد الهدف . الا ان اهم ما يميز هذه التيارات المذكورة انها ما تزال بعيدة كل البعد عن ان تشكل مفهوم "ثقافة عربية" متميزة ذات طابع تفوح منه رائحة العروبة الحقة او ان لها مذاقها وشكلها ولونها وتأثيرها ، ان المطروح على الساحة العربية لم يستطع ان يشكل قاعدة لترسيخ الهوية العربية الانتمائية كحامية لها من خطر الارتماء في احضان الاخرين والذوبان بهم ، او النظر اليهم على انهم "المرجعية المعتمدة" والسير على خطى رؤآهم . انها لم تستطع ان تحمي الوطن العربي من بعض ابنائه الذي يقتلعون بايديهم جذور الثقافة العربية والتراث ويضحون بها على مذبح "الثقافات المستوردة" . والامثلة على ذلك كثيرة ولسنا هنا بصدد احصائها وانما نشير اشارات عابرة الى اهمها وتتلخص في تراجع اللغة العربية امام موجات التسميات الاجنبية والتي تحمل في ثناياها ظاهرة اخطر تتمثل بتآكل الشخصية الثقافية العربية وفقدانها لنظام مناعتها ، وتخلخل ثقتها بنفسها واعترافها بدونيتها وفوقية الاخرين الذين يتم تقليدهم . لقد تعرض الشعر العربي وهو تاريخ العرب وسجلهم وديوانهم هو الاخر الى تغييرات خطيرة افقدته خصوصيته وتميزه وتفرده وذلك باخضاعه الى معايير غربية مستوردة ، وهذا ينسحب على القصة والرواية والفن بكافة اشكاله وبخاصة الغناء المصور المبني على خلفيات لا تمت للوطن وللتاريخ والتراث والواقع العربي بصلة ، وانما تعكس مزاجات واهواء خاصة تتحكم بها وتحكمها اتجاهات السوق التجارية ، وهي بعيدة كل البعد عن كونها تعكس الواقع العربي ، او انها تصوره ، وانما على اصح تعبير تتخيله كما تشتهي هي او تعتقد انها هي الحضارة والرقي . واذا ما انتقلنا الى ما يتعرض له المواطن العربي في شتى اقطاره من "غسل دماغ" استهدف تنظيف عواطفه واحاسيسه وعقله من مفاهيم خاصة به واستبدالها بمفاهيم اخرى في السياسة

والثقافة والاقتصاد والاجتماع ، وذلك بواسطة وسائل الاعلام "سواء كانت الفضائيات منها او الانترنت" او غيرها ، فاننا نؤكد ان المواطن العربي يقف امام تياراتها الساخنة او الباردة "عاريا" في حالتي فراغ وضياع .

في ظل هذه الاجواء والمناخات الثقافية سوف تؤسس هذه الفضائية ، وايا كانت اهدافها فهي ستكون فريدة ومتخصصة وستسمح لاول مرة وبصورة اسرع واوضح واكثر فاعلية عرض "الابداعات العربية" والتي يفترض ان تحتل القضايا القومية المشتركة مساحة واسعة من اهتماماتها ، وفي نفس الوقت نفترض ان تكون راعية وحامية للثقافة العربية لا مجرد وسيلة لعرض ابداعات من هنا وهناك ذلك ان الثقافة هي الأساس الأول في الوحدة العربية التي افتقدت اليه وهي في أمس الحاجة له حتى تتحقق . ومن هنا تتجلى ضخامة المسؤوليات الملقاة على كاهل هذه الفضائية والتي يفترض ان لا تكون مجرد وسيلة عرض لابداعات ما افرزه هذا الواقع ، وانما تحمل في ثنايا مسارات اثيرها الاصرار على التواصل والتقارب في اطار الابداع الاصيل لعلها تكون بذلك احدى الاضاءات الاكثر سنا لفضاءات العروبة في القرن الحادي والعشرين .

وفي تصورنا ان الثقافة اشمل من كل الابداعات الادبية الفنية ، فهي تختلط احيانا في اذهان البعض ليقصروها على مجمل الابداعات المذكورة انفا ، الا انها اشمل من كل ذلك بكثير ، فهي طريقة حياة واسلوب وتفكير ومعايشة ، ونظرة ذات خصوصية الى كثير من امور الحياة ، وهي في النهاية ردود او حلول لكثير من التحديات التي فرضتها البيئة بكافة اشكالها على اية جماعة انسانية ، ومع الايام اكتسبت هذه الردود طابع التكرار فتحولت الى عادات توارثتها الاجيال فاصبحت تقاليد وهي بمجموعها شكلت الموروث او التراث . فالتراث هو الاساس في الثقافة ، ونحن اذا كنا قد تطرقنا الى التراث بنوع من التفصيل فلكي نؤكد على المكانة التي يجب ان يستحقها في تفكيرنا وسلوكنا وعرفنا وجوهرنا الثقافي على اعتبار انه الجذور التي تصنع الانسان والثقافة ، ولانه هو الاخر يتعرض الى تحديات كبيرة . وهذا يضيء لنا اشارات التحذير والخطر ليس على انحراف مسارات ابداعاتنا الادبية والفنية فحسب ، وانما على مجمل حياتنا التي تتعرض هي الاخرى الى رياح تهب عليها حاملة معها بذور تغيير غريبة على التربة الثقافية العربية تستهدف احلال معطيات غريبة واستبدال اسس اصيلة في مجمل اسلوب الحياة العربية التي تمثلها الثقافة العربية .

وخلاصة القول : ان الثقافة العربية هي العنصر المكون للشخصية العربية ، وهي ذات جذور عميقة في التاريخ والتراث ، واذا كنا حريصين على ان يكون لنا مكانة في جغرافيا القرن القادم ، وان تكون لنا كلمة وصوت وصورة ذات تميز وخصوصية ، فنحن مطالبون ان نولي ثقافتنا كل اهتمام وان نطهر ثوبها الناصع من كل ما علق بها شوائب في غفلة عن الامة وفي لحظات ضعف عام وانعدام وزن مرت بهما . والفضائية العتيدة يفترض بها ان تكون عاملا من عوامل توحيد الامة العربية ورافدا لدعم كيانها وواصلا بين ابعاد الزمان الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل ، وان تكون تربة خصيبة للابداعات العربية وعاكسا ومترجما للروح الثقافية العربية ، ومدافعا عنها. وهنا فنحن لا نريد ان نتقوقع على انفسنا وننسى البعد الانساني في غمرة حديثنا عن البعدين القومي والعقائدي ، ذلك ان اية ثقافة لاية جماعة انسانية لا يمكن لها ان تنمو في معزل عن تيارات الثقافة الانسانية الاخرى ، ولكن هنا فاننا نكرر المقولة التي ما فتئنا نكررها على الدوام : اننا لسنا ضد الثقافات الانسانية الواردة الينا من أي اتجاه ، ولكننا نرفض ان تقتلعنا من جذورنا الثقافية وان تغير شخصيتنا وهويتنا الانتمائية .

نحن .. والاعلام العربي

❋) يحمل القرن العشرون اكثر من صفة ، جراء الثورة التقنية التي كانت ايامه مسرحا رحبا شهد انطلاقتها ، ولا يختلف اثنان في ان الاعلام بكل ابعاده واشكاله قد فرض نفسه في هذا القرن كأحد اخطر الاليات الحضارية التي قادت رياح التغيير في كل الاتجاهات .

❋) الاعلام علم وفن شاملان ، استطاعا ان يسيرا الدينا بكل مناحيها ، وان يتحكما بنا نحن البشر ، بنظراتنا للحياة ، باذواقنا ، بحواسنا ، بما نحب ونكره ، بتوجهاتنا الفكرية والسياسية والثقافية وحتى الايديولوجية ، وبتكوين اتجاهاتنا وميولنا وبتغييرها سلبا او ايجابا وبمخزونات معلوماتنا عن هذا العالم الذي لا يقف عند حد من حدود التغيير .

وباختصار اصبح الاعلام جزءا لا يتجزأ من حياتنا ، وآلية فاعلة نواجه بها كثيرا من التحديات والمشكلات التي تعترض مسيرتنا الحياتية ، والاهم من ذلك اصبح الاعلام اهم الفعاليات لكسب معاركنا وحسم نزاعاتنا وصراعاتنا مع الاخرين ، او اقناعهم بعدالة قضايانا ومصداقيتها ، او فرض ثقافتنا بكل معطياتها ومفاهيمها عليهم ، او الترويج لكل اشيائنا . وخلاصة القول ان الاعلام يصنع الاحداث ، ويكتب التاريخ بدون منازع .

❋) وقد يتبادر للبعض ان الاعلام مقصور على وسائل دون اخرى ، او ان وسائل اعلام معينة قد حدت من اهمية اخرى وتبوأت مراكز الصدارة . وحقيقة الامر ان كل وسائل الاعلام تظل ذات فاعلية تؤدي رسالتها دون انتقاص ، الا ان تقدم وسيلة اعلامية معينة على اخرى في مجتمع ما منوط بظروف المتلقين الثقافية والتعليمية فيه .

فعلى سبيل المثال فان تأثير الاعلام المرئي في المجتمعات التي تعاني ازمة في القــراءة لا يمكن ان يقارن بتأثير الاعلام المقروء في المجتمعات المثقفة القارئة . ولسنا بهــذا نبغــي ترجيح كفة شكل اعلامي على اخر ، ففي النهاية تتحد كل الاشكال الاعلامية لتؤدي وظائفها التي تكمل بعضها بعضا ، وبالتالي تخرج لتحقق الاهداف العامة للاعلام بمجمله .

❋) في وطننا العربي تحتل كافة اشكال الاعلام المقروء والمسموع والمرئي مكانة هامــة ، وبخاصة لدى الانظمة السياسية الحاكمة التي تعتبره احدى اهم وسائلها في تثبيــت قواعــد النظام والحكم .

ومن هنا فقد حرصت هذه الانظمة حرصا شديدا على امــتلاك وســائل الاعــلام المتاحــة وتسييرها وفق رغباتها ، والاشراف عليها اشرافا مباشرا .

فالاهداف المباشرة وغير المباشرة من وسائل الاعلام العربية تنطلق مــن خدمــة النظــام والقائمين عليه في الدرجة الاولى ، ويجدر بنا هنا ان ننوه الى خصائص هذا الاعلام :

–) انضواؤه في اطار سياسي تنظيمي ينتظم كل اجهزة الاعلام ووســائلها ، ويتمثــل فــي وزارات الاعلام التي هي جزء اساسي من النظام والتي تخضع العملية الاعلامية لمجموعــة القوانين واللوائح والانظمة التي تحدد مساراته واتجاهاته وتوجهاته ، ومن هنا فان الاعلام يخضع خضوعا مباشرا للنظام .

–) الاعلام الموجه ، ذلك انه لا يتمتع بالحرية الا ضمن ما يخطط له مسبقا من قبل الاجهزة المختصة الاكثر التصاقا بالنظام ، وخدمة له .

–) ملكية الانظمة له ، ومن هنا تنتفي عنه صفة الخصخصة ، او الملكية الفردية باســتثناء بعض الصحف والمجلات المملوكة من بعض الافراد ، ولكنها بطبيعة الحال تخضع للرقابــة العامة .

-) الرقابة المباشرة التي تتحكم تحكما مطلقا فيما ينبغي او لا ينبغي ان يكتب او يقال او يشاهد ، وكل ذلك تحت طائلة المساءلة القانونية والعقاب بكل اشكاله ، حال الخروج عن الخط المرسوم .

اما فيما يخص اهداف الاعلام السائد في ظلال الانظمة العربية :

-) خدمة الانظمة السياسية ، وتغطية فعالياتها وانشطتها والتهليل لامجاد رموزها وانجازاتهم على كافة الصعد ، ورسم الصورة المثلى لهذه الانظمة في اعين جماهيرها .

-) توجيه الجماهير وارشادها ، واحتواؤها ضمن اطار تفكيري وثقافي ومزاجي وترويحي يخدم الاهداف العامة والخاصة للنظام ، بهدف الحفاظ على اعلى وتيرة من الاستقرار والامن الداخليين وهذا بطبيعة الحال شكل من اشكال التعبئة التلقينية الاكثر رواجا في الوطن العربي .

-) طرح توجهات الانظمة ووجهات نظرها فيما يخص فلسفة الحكم وكافة المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والايديولوجية ، والعلاقات الدولية .

-) تفعيل الاهداف الخاصة بالثقافة والحياة الاجتماعية والتراث والقيم والمثل وبخاصة تلك التي تخدم الانظمة السياسية بطرق مباشرة او غير مباشرة .

❋) ولقد اتسم الاعلام العربي خلال نصف القرن الماضي بصفات عديدة يمكن جدولتها على النحو التالي مع الاخذ بعين الاعتبار بعض التحسنات التي طرأت عليه جراء التغيرات التي حلت بالوطن العربي :

-) الاثارة والابتعاد عن الموضوعيه والعقلانية .

-) التكرار الذي يبعث على الملل .

-) الاطالة والاسهاب والتفصيل في نقل الخبر وبخاصة اذا كان يتعلق بالنظام .

-) المبالغة اللفظية والكلامية واستعمال الفاظ المديح الطنانة والرنانة وغيرها ، والثناء الذي لا ينقطع .

للانجازات التي يقوم بها النظام أو رموزه .

-) الاضاءة المتعمدة على احداث بحد ذاتها ، والتعتيم المقصود على احداث أخرى أو تجاهلها ، أو بترها أو تشويهها ، وكل ذلك يتم لمزاجية النظام .

وبطبيعة الحال فان هذا الاسلوب من الاعلام وبخاصة فيما يتعلق بنقل الخبر قد كون اتجاهات سلبية مع الايام لدي القارئ أو المستمع أو المشاهد ، فالمواطن العربي المثقف ونصف المثقف وحتى العادي أصبح جراء هذه المسرحية المتكرره :

-) لا يثق بمعظم ما يسمع أو يشاهد أو يقرأ ، ولا يأبه به ، ذلك انه فقد مصداقيته وموضوعيته .

-) يصنف كل ذلك في اطار الدعاية والترويج للنظام .

-) يتجه الى مصادر اجنبية لاستقاء المعلومة والخبر منها . وهنا نود ان نشير الى ان ثمة مصادر اعلامية اجنبية اصبحت تستحوذ على جمهور عربي عريض ، وهذا بحد ذاته له خطورته القصوى .

واذا كان الاعلام العربي قد شطح به الخيال في كيل المديح الذي فرض عليه ، والثناء للأنظمة العربية ، كل ضمن حدوده السياسية ، مثمناً عالياً وغالياً ، شأنه في كل مرة ، كل منجزات هذه الانظمة ، وذلك بهدف كسب التأييد بالقوة والاخضاع معاً ، فان هذا الاعلام ومنذ اللحظة الاولى لظهوره الى حيز الوجود كان عاجزاً عن طرح القضايا العربية القومية المصيرية ، وتناولها أو معالجتها بما تستحق من اهتمام ومساحة وتحليل وحماس وتركيز وتكريس .

فعلى سبيل المثال لا الحصر ، وبتوجيه من هذه الانظمة :

(1) لم تنل القضية الفلسطينية ، بكل ابعادها ما تستحقه من رعاية وعناية واهتمام وظلت مع الايام تتراجع الى ان وصلت في كثير من المرات الى ما دون الصفر ، وعبر تاريخ القضية الطويل تم تقزيم كثير من انجازات نضالاتها ، أو تهميشها ، أو التعتيم عليها ، أو حتى تغيير أهدافها الحقيقية وتشويهها .

ويكفينا هنا أن نشير الى قضية القدس التي تشكل "كارثة اعلامية عربية" نجمت جراء اغتيال القضية ومحاولة التخلص منها وطمس معالمها في غياهب الذاكرة العربية . فالقضية الفلسطينية كانت ولا تزال نقطة ضعف هذه الانظمة ، والمرآة التي تعكس عجزها وتخاذلها . ناهيك عن احداث الانتفاضة الفلسطينية التي عرّت هذه الانظمة وكشفت عوراتها امام جماهيرها .

(2) ولعل مشروع الوحدة العربية وهو اكثر الاهداف القومية التي حاق بها الاجحاف والظلم جراء التنكر لها ، فلم تحتل هي الاخرى المساحة الكافية من الاهتمام والرعاية والتوجيه الصحيح من قبل اجهزة الاعلام العربية النظامية ، ويكفينا هنا ان نشير الى ان هذا الهدف لم يكن يروق لرموز الانظمة العربية التي كانت تخشى على انظمتها فغلبت عليها نزعات التقوقع الاقليمية وتحكمت بها مشاعر الانانية فكانت الفرقة والعزلة والروح الانفصالية .

(3) ولعل الثقافة العربية هي الاخرى ، كانت ولا تزال تعاني جراء تقصير الاعلام العربي في تفعيل دورها باعتبارها عاملاً وحدوياً ، يجمع ابناء الجلدة الواحدة ، ويوحد مركبات الشخصية العربية ويقارب فيما بينها ، بدل ان يفرقها ويباعدها .

لقد جهل جل المواطنين العرب في معظم الاقطار العربية كل في قطره ما يدور في القطر العربي الآخر من تفاعلات وانجازات واحداث ، أو حتى ما يخص البنية التحتية الثقافية

ونعني بها المعلومات الجغرافية الاساسية والاحوال الديموغرافية وهنا نود ان ننوه الى ان هذا التقصير تشترك فيه المناهج التربوية والتعليمية هي الاخرى .

(4) واذا اردنا ان نكون اكثر تخصيصاً ، فقد اهمل الاعلام العربـي النظـامي الكثيـر مـن القضايا العربية الراهنة ، أو انه تجاهلها، او كان سطحيا في معالجتها ، أو انه عتم عليها ، أو شوهها ، فعلى مدى العشرين عاماً المنصرمة ، على اقل تقدير ، لم تنل على سبيل المثال لا الحصر احداث لبنان ، واليمن ، وفلسطين ، والجزائر ، والصومال ، وليبيا ، والسودان ، والعراق ، والصحراء المغربية وغيرها ما تستحقه من اهتمام على اعتبار انها قضايا عربية خطيرة .

ان المواطن العربي تصيبه الدهشة والحسرة والألم في آن واحد ، حينما يستمع الى اخبـار هذه الاقطار من مصادر اعلامية غربية تمعن في عرضها وتحليلها وتناول أبعادها وتأثيراتها ، في حين لا تشكل هذه القضايا ادنى اهتمام من قبل الاعلام العربي . واحقاقاً للحـق فـان الصحافة العربية في بعض الاقطار لم تقصر في هذا المجال ، ولكـن التقصـير كـان فـي الاعلامين المسموع والمرئي كونهما ملكا للانظمة .

وكل ذلك وغيره يتم من خلال أطر مبرمجة من التعتيم والتشويه او الصمت او بتر الحقائق والاحداث ، الى الدرجة التي كاد المواطنون العرب معها ان يتقوقعوا اقليمياً ، والانكى مـن ذلك انهم اصبحوا يعرفون عن احداث وتفاعلات الاقطار الغربية والاجنبية الاخرى اكثر بكثير مما يعرفون عن الاقطار العربية ، وهذا بطبيعة الحال عامل آخر يضاف الى عوامل تكريس الفرقة وتوسيع الهوة .

*) وهنا يجدر بنا ان ننوه الى الاعلام الفلسطيني ، فنحن في فلسطين وحتى عهـد قريـب وبسبب ظروف الاحتلال افتقرنا الى كثير من وسائل الاعلام الحقيقي واجهزته وتقنياته ومع

ذلك تمتع الاعلام المقروء وهو بطبيعة الحال الاعلام الوحيد الذي اتسم بخصائص النضال ، على اعتبار انه جزء لا يتجزأ من معركة الشعب الفلسطيني المصيرية ، لاسترجاع حقوقه المشروعة ، وحقه في تقرير مصيره .

وهكذا فان الاعلام الفلسطيني :

-) حمل طابع النضال والتحدي للاحتلال .

-) بشر بالحرية والديموقراطية والمساواة والعدالة .

-) انتقد بمرارة التقصيرات العربية في حق القضية الفلسطينية ، والقضايا القومية الاخرى .

-) كان قومياً فاحتلت القضايا القومية مساحة مرموقة منه ، وحمل همومها .

-) نادى بالتغيير والتحديث للانظمة العربية .

-) وجدت الآراء ووجهات النظر والتوجهات والافكار المختلفة لها مكاناً فيه لتعبر عن ذاتها .

-) كان صدره رحبا يتسع في احيان كثيرة للرأي وللرأي الآخر ، وللنقد البناء .

❋) وهنا يفرض سؤال نفسه بالحاح : ما هي صورة الاعلام العربي في طرح قضاياه المصيرية على الاخرين خارج نطاق الوطن العربي ؟

-) نود هنا ان نشير الى تعاسة هذا الاعلام وافتقاره الى كثير من الخبرات والوسائل التقنية والمادية ، ناهيك عن تغيبه في كثير من الاحيان عن الساحات التي يفترض ان يتواجد عليها ، مما اتاح الفرصة الذهبية للاعلام المضاد والمعادي ان يصول ويجول ويرسم الخارطة الانطباعية التي يشتهيها في ذاكرة المتلقين ، الامر الذي جرّ كوارث ما زال الوطن العربي يعاني جراءها .

–) ويبدو ان الانظمة العربية قد اركنت الى "عدالة" قضاياها ، فتركت الامر الى "ضمير" الاعلام الغربي الذي شوّه بقصد او غير قصد قضايا العرب المصيرية وألّب العالم ضد المواطن العربي وتطلعاته ومفاهيمه وتوجهاته ، فوصف العربي بأقذع الاوصاف (الارهاب ، الاجرام ، الاعتداء ، السادية ، البدائية والجهالة وغيرها) فخسر العرب نقاطاً كثيرة لا تحصى لصالح الطرف الآخر في الصراع .

–) لقد عكست الخلافات والنزاعات والصراعات العربية العربية نفسها على صورة الاعلام العربي في الخارج الامر الذي ادى الى تكوين قناعات خاطئة وترسيخها تخص القضايا العربية ، ويكفي ان ننوه الى النظرة بان العرب هم جماعات غير متجانسة ثقافياً واجتماعياً وليس ثمة من رابط يجمعهم غير كونهم ناطقين باللغة العربية .

❋) واخيراً وليس آخراً ، فاننا بطرحنا للاعلام العربي كانت السلبيات مسيطرة على هذا الطرح ، ولكن واحقاقاً للحق ، فان ثمة اضاءات اعلامية بدأت تتموضع في فضاء الاعلام العربي ، ويمكن ان تشكل نواة للانطلاق منها نحو اعلام عصري معافى من التشوهات والعلل التي فتكت به خلال العقود الماضية.

❋) وختاماً ، فما هي الصورة الاعلامية التي نودها وما هي الوسائل لتحقيقها ؟

ان مشكلة الاعلام العربي تنبع من الحرية الضائعة والديموقراطية المفقودة ، وشخصية الانظمة التي لا تتحمل النقد البناء ، وتعاني حساسية مفرطة ازاءه ، والتي تعتقد ان "من لم يكن معها فهو ضدها" وهي بطبيعة الحال لا تحترم الرأي الاخر .

اننا لن نعالج هنا كل هذه العلل المستحكمة والمستفحلة ، ويكفي في هذه المرحلة ان نشير اليها ، ولكن يهمنا هنا كرؤيا مستقبلية نحو اعلام عربي موجه ما يلي :

" اعلام عربي غير اقليمي تشرف عليه مؤسسة عربية بتمويل عربي ، لا يخضع للانظمـــة السياسية يستخدم احدث التقنيات والوسائل المتاحة ، واللغات الحية ، ويوظف اكفأ الخبرات الاعلامية والتخصصات الاخرى بهدف :

–) الدفاع عن القضايا العربية خارج نطاق الوطن العربي .

–) تغيير الصورة المشوهة للانسان العربي ، والقضايا العربية وتحسينها في اذهان الاخرين .

–) عكس التفاعلات الحضارية والثقافية التي تجري في الوطن العربي .

–) التصدي للتيارات المعادية لقضايا الوطن العربي على كافة الصعد باســاليب موضــوعية عقلانية .

لعلنا بهذا نكون قد وضعنا انفسنا على المسار الصحيح ، مع علمنا ان هذه الرؤيا مبتورة ، الا انها في المرحلة الحالية قد تكون اسلم الوسائل للانطلاق من نقطة الجمود التي نقف في كثير من الاحيان عندها .

إعــلام فضائي مرفوض

❋) في معرض ندوة عن الاعلام الفضائي ، اشار عدد من المشاركين الى بعض الفضائيات التي تتناول الموضوعات السياسية والثقافية والتربوية العربيــة فــي برامجهــا الثابتــة . واشتكوا من انها تحدث ارباكا في التفكير ، وتلبكا في استيعاب المعلومة او هضــمها لــدى المتلقي العربي ، وانها في المحصلة تضع الكثيرين على شفا هاويــة مــن الظــن والشــك والريبة وعدم الثقة والمصداقية في ما يخص العديد من المفــاهيم والثوابــت والتوجهــات والمواقف وحتى المعتقدات العربية ، كونها انها تتعمد بسط طروحات متعارف عليهــا ذات قاعدة عريضة من التأييد واخرى معاكسة لها في كل الاتجاهات قد تكون معاديــة او انهــا غريبة على الساحة العربية ، الامر الذي يؤدي بطبيعة الحال الى خلق اجواء تسيطر عليها الخلافات والانقسامات في الرأي اكثر مما هو حاصل.وقد خلص المشاركون الى نتيجة رفض مثل هذا الاعلام.

❋) ومما لا شك فيه ان مثل هذه الفضائيات قد احدثت نقلة نوعية في الاعــلام الفضــائي العربي وتغيير ما في صورته العامة المطبوعة في اذهان المشاهدين العرب اينما كانوا على خارطة الوطن العربي . ان الموضوعية والحياد في نقل الخبر والمعلومــة مضــافا اليهمــا احترام الرأي الاخر وافساح المجال له – هذه المرتكزات التي تستند اليها هذه الفضائيات – هي من مقومات الاعلام الفضائي العصري الاقرب الى عقول المتلقين وحتــى عــواطفهم . وهذا الشكل من الاعلام يمكن ان يشكل انموذجا لما يفترض ان يكون عليه الاعلام العربــي بكل اشكاله المرئية والمقروءة والمسموعة متحررا مــن المبالغــة والانحيــاز والتعصــب وتكريس الرأي الواحد والتمجيد والتهليل له على حساب الآراء الاخرى التي تعاني من القمع والقهر والتهميش والتعتيم ، او انها لا تجد مكانا لها عبر هذا الاعلام الموجه لتطرح نفسها من خلاله ،وهو الاعلام الرسمي التقليدي الموجه المنغلق على ذاته ، والذي ينبغي التحــرر منه نهائيا .

❋) وحديثنا هنا سوف يتناول الاعلام الفضائي المشار اليه في مقدمة هذا الحديث . وهــو بلا شك يتصف "بالحداثة والتحديث" كونه لا يصدر عن اقليمية بقدر ما هو علــى مســتوى الوطن العربي في كافة الصعد السياسية والثقافية والاقتصادية والتربوية والعقائدية وغيرها . وبرغم كل هذه المعطيات الا انه بحاجة الى تعديل مساره والا فانه مرفوض كونــه اخــذ بالانحراف عن ما يفترض ان يكون منظورا عربيا تجاه كافة القضــايا العربيــة ، ورؤيــة

تكونت كمحصلة لمسارات التجربة العربية الآخذة بعين الاعتبار التاريخ والعقيـدة والتـراث والمفاهيم الخاصة .

❋) ونحن هنا لا نتجنى على الحقيقة والحداثة والموضوعية التـي تطرحهـا مثـل هـذه الفضائيات. الا ان هناك الكثير مما يمكن ان يرفضه المواطن العربـي ايـا كانـت ثقافتـه ومستواه العلمي . وبداية فان هذه الفضائيات تصر على اسـتخدام مفـاهيم ومصـطلحات ومسميات يستخدمها الاعلام الاجنبي او المعادي وهي في كثير من الاحيان تحمل في ثناياها انكارا للحق العربي وتجاهلا له وعدم اعتراف به بل ومعاداته. وهذه الفضائيات لا تقف عند هذا الحد فقد استنت اسلوبا انفردت به يتمثل في مقابلة اشخاص او مهاتفتهم نبذهم المجتمع او اتهمهم بالخيانة والخروج على الصف . وهنا ينبغي التفريق بـين الـذين اضـطهدتهم الانظمة العربية فالتجأوا الى خارج الوطن العربي ، وبين الذين نبـذتهم الجمـاهير علـى خلفيات اخرى . وفي اعتقادنا ان هناك شكلين لا ثالث لهما من الرأي الاخر ، فهنـاك رأي معاد اصلا لا يتقاطع بأيه نقطة مع التفكير والتوجه العربيين. ورأي مخالف الا انه يحـافظ على انتماءآته القومية والعقائدية بكل اتجاهاتها وابعادها ، والفارق بينهمـا كبيـر. وهـذه الفضائيات ايضا لا تتورع عن تخصيص زوايا دائمة للاسترشـاد والاسـتنارة بـاطراف او جهات او اشخاص من دول معادية ، او نقل تفصيلي مباشر او غيـر مباشـر لاحـداث او تحركات عسكرية ، او تصريحات او تحليلات ليست في صالح المواطن العربـي ايـا كـان تواجده على الخارطة العربية ، او انها تمس روحه المعنوية او تثبط عزيمتـه وتحبطهـا . وهذا لا يعني حجب الحقائق عنه بقدر ما يفترض ان تقدم باسـلوب يتناسـب والمكونـات النفسية والاجتماعية والثقافية التربوية لهذا المواطن .

❋) ومرة اخرى فنحن مع الرأي القائل بان القضايا والافكار والمواقف والثوابت والسياسات والرؤى القومية لا ينبغي ان تنفرد بها جهات ايا كانت وانما ينبغي ان تطرح علـى مائـدة البحث والنقاش والجدل والمسـاجلة والمنـاظرة بشـرط ان يكـون هـؤلاء المسـاجلون والمناظرون والمناقشون من داخل الوطن العربي حتى وان اختلفوا فـي الـرأي والطـرح البنائين ، الا ان هذه القضايا والرؤى والمعتقدات العربية لا ينبغي ان تتناولها فـي البحـث وابداء الرأي والطرح جهات مشبوهة او معادية او خارجة على الصف العربي . فماذا يتوقع المرء من ثمرة العلقم الا المرارة ، والمرارة وحدها . والذين يحلمون او يتوهمون ان فيها بعض الحلاوة تنقصهم الحنكة والدراية ، او ان لهم نوايا اخرى لا يستبعد ان تكون شريرة . ان القضايا العربية لا ينبغي ان تكون محل تشكيك بها او خلاف عليها .

❋) ان الاعلام بعامة والاعلام الفضائي بخاصة ضرورة ملحة للوطن العربي . وفي اعتقادنا انه سيلعب دورا في تجسيد الاماني القومية والدفاع عنها، والانطلاق بالثقافة العربية الـــى آفاق رحبة واكثر اشراقا، وبالتالي الى ايجاد شكل معقول من الوحدة العربيـــة ، ذلـــك انـــه الاقدر من سواه على احداث نقلة نوعية في مجمل الحياة العربيـــة . الا ان هـــذا الاعـــلام يفترض ان يكون عربيا مستقلا في توجهاته ورؤآه وطروحاته ، وله مفاهيمه ومصطلحاته ومسمياته الخاصة والنابعة من ضمير الامة العربيـــة وفلســـفتها الحياتيـــة المنبثقـــة مـــن خصوصيتها ومحليتها . اما تسويق الشكل الاعلامي الاجنبي بكل حذافيره وبخاصة في مـــا يتعلق بالقضايا العربية واعتماده كمرجعية في الدرجة الاولى، فهو بمثابة التجني عليها ، والرقص على طبول قد يكون الخصوم قارعيها ، وبالتالي يكون الاعلام العربـــي بعامـــة ، والاعلام الفضائي بخاصة صدى لصوت الاخرين .

الإعلام العربي .. وكرة القدم

*) بادىء ذي بدء ، وبعد ان تنفست الجماهير العربية الصعداء ، نود ان ننوه الى اننا لـــن نتناول كرة القدم من حيث هي احدى الرياضات ، فهذا شأن يخص اصحاب الاختصاص مـــن مدربين ومعلقين ولاعبين وعشاق وهواة . ومع ذلك فاننا لا نجد غضاضة في ابداء بعــض الملاحظات حول الرياضة العربية ومنها كرة القدم :

– اننا مع تطوير الرياضة العربية لتصبح منهجا شاملا ، وجزءا لا يتجزأ من تربية الاجيال العربية الناشئة ، وعنصرا اساسيا من عناصر نموها المتكاملة .

– ان الانجازات الرياضية على المستوى العربي بحاجة الى اعادة النظر فيها ، وبخاصة تلك التي تحظى على قلتها بمشاركات دولية ، ذلك ان هذه الانجازات ذات نفس قصير وسرعان ما تلهث وتتعرض للاعياء والارهاق الامر الذي يحول دون اكمالها المشوار ، ووصولها الى نتائج يتحرق المواطن العربي ان تصل اليها ،فيصاب جراءها بالاحباط وخيبة الامل والضعف امام الانجازات الاجنبية .

*) منذ ما يقارب نصف العام وبوتيرة متصاعدة ومتسارعة انشغلت وسائل الاعلام العربية بعامة ، والفضائيات بخاصة باحداث "مونديال 98" الذي عقد في فرنسا وانتهى قبل ايـــام . لقد اثبتت هذه الفضائيات انها ذات التأثير الاوسع والاخطر في التحكم باهتمامات المشاهدين واذواقهم وتوجهاتهم ورؤآهم وحتى تفكيرهم ، وانها العصا السحرية بيد من يحركها ويقف خلف كواليسها ونعني بهم الانظمة السياسية التي تسيرها حسب اهوائها بالتالي .

*) لقد كرست هذه الفضائيات مساحات زمنية شاسعة من ساعات بثها لكرة القدم وفعاليات "مونديال 98" ما لم تكرسه لاية احداث اخرى على كافة الصـــعد السياســـية والاقتصـــادية والاجتماعية والثقافية او التحديات الخطيرة التي ما زال يتعرض الوطن العربي لهـــا بـــدءا باخطر مؤامرة لاغتصاب القدس نهائيا من ايدي الفلســـطينيين والعـــرب ومـــرورا ببقيـــة المسلسل الاستيطاني الذي يستهدف اقتلاع القضية من جذورها ، وانتهاء بمأســـاة العـــراق وحصار ليبيا والسودان ومذابح الجزائر وغيرها الكثير . ان هـــذا الشـــريط المتكـــرر مـــن المآسي والاحزان والتحديات افقد الوطن العربي لونه وشكله ووزنه وطابعه وربما احترامه في اعين الآخرين ، فاستخفوا به واستهانوا وتطاولوا عليه واستنسر بغاثهم في ارضه .

*) لقد حشدت هذه الفضائيات ووسائل الاعلام العربية الاخرى علـــى شـــرف كـــرة القـــدم "ومونديال 98" جيشا عرمرما من المعلقين والمدربين واصـــحاب الاختصـــاص ، وكرســـت

برامج تعبئة توعوية "لمعركتها" ، وشنت حملة دعايات واخبار مصحوبة بمقابلات وزيارات واتصالات هاتفية ، واستطلاعات رأي لمعرفة النتائج المسبقة في الصراع على الكرة ، وطعمت دعاياتها التجارية بنكهة كرة القدم ، وصورت الكرة الارضية وكل ما استدار على انه كرة قدم تجري بين ارجل اللاعبين . ولعل اكثر من ذلك ان هذه الوسائل الاعلامية قد تحكمت بحركات الناس فصلبتهم امام شاشات التلفزة ليلا نهارا ، وجمدت كل اهتماماتهم الاخرى وجعلت اعينهم مركزة على ارجل اللاعبين التي تحكمت في رسم الخارطة البيانية الصاعدة الهابطة لاعصابهم المضطربة . وبالنسبة لناشئتنا فالفضل يعود الى هذه الفضائيات وغيرها انهم اصبحوا على علم ومعرفة ودراية بكل ما هو قائم في عالم الكرة ، فهم يعرفون ادق التفاصيل عن اسماء اللاعبين العالميين وهواياتهم واعمارهم واعداد الاهداف التي سجلوها والمبالغ التي اشترتهم نواديهم بها ، ويعرفون اسماء صديقاتهم او زوجاتهم او حتى ابنائهم ، كما يعرفون اسم كل مدرب وسجل انجازاته سلبا كانت ام ايجابا. وفي المقابل يجهل الكثير الكثير من تاريخ وطنه وجغرافيته وامجاده وحتى مدى خطورة التحديات التي يتعرض لها . وهنا فاننا نتساءل والحسرة تملأ نفوسنا :

– هل انهى الوطن العربي مشكلاته كلها وتفرغ لكرة القدم وحدها ؟

– ماذا فعلت هذه الوسائل الاعلامية لقضية القدس بالذات ، وكم من الوقت كرست لها او لغيرها من القضايا العربية مقارنة بكرة القدم ؟

– او ليس لافتا للنظر ان كثيرا من التحديات التي تفرض على الوطن العربي تأخذ مكانها وزمانها ابان انشغال العرب بهذه الانشطة وسواها ؟

– اليس في هذا التكريس الاعلامي لكرة القدم وحدها التفاف وتعتيم وطمس وتغييب وتهميش وتجاهل وتناس لكل الحقائق المحزنة على الساحة العربية علاوة على تشويه مقصود لها . انها اسئلة نطرحها ومشاعر الأسى تعصف بنا جراء ما تواجهه امتنا العربية من مؤامرات واخطار على مقدراتها ومواردها ومستقبلها وحقها في الحياة الحرة الفضلى وعلى خسارتها في كثير من ميادين الحضارة والسياسة والاقتصاد والثقافة ، وليس فقط في ميدان كرة القدم ، او انشغالها بالامور الثانوية .

*) ان الحديث عن الاعلام العربي وكرة القدم التي استولت على تفكيره وحواسه ذو شجون كما انه ذو شجن ، ولا يقف بنا عند هذا الحد ويجرنا الى التساؤل دائما عن دور الانظمة العربية في هذا المجال . اننا لا نحيد عن الحقيقة او نجانبها اذا ما اكدنا ان هذه الانظمة تشجع هذا الشكل من اشكال اللهو وغيره ، فهو على اقل تقدير ينسي الجماهير الاوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية المزرية وغيرها التي آل اليها الوطن العربي مجتمعا او كلا

على حدة . ففي كرة القدم ربما تكون هي الحالة الوحيدة التي يستطيع المواطن العربي ان يعبر عن رأيه بحرية ودون قيود تجاه أي فريق او لاعب او ان يوجه النقد الذي يعن بباله ، او ان يصرخ بملء فمه وباعلى صوته وان ينعم بظلال التعددية الكروية وان تتفتح قريحته في حقل اهتمامات واتجاهات وتوجهات وانشطة غير سياسية ، والاهم من ذلك انها لا تشكل خطرا على أي نظام ولا تستهدف اقتحام دفاعاته ، اللهم ان همها الوحيد هز شباك الفريق الذي لا تنتمي اليه وتسجيل اهداف كروية غير مسيسة .

*) وخلاصة القول ان الهرم الحضاري لاية امة من الامم يبدأ من القاعدة لا من رأس الهرم ، ذلك ان القاعدة هي التي تشتمل على الاساسيات السياسية والاقتصادية والثقافية المشادة على بنية تحتية سيادية حرة مستقلة مظللة بكرامة الانسان وحريته وحقه بالتعبير في كل المجالات ، وكلما اقتربنا من رأس الهرم تزداد اهتماماتنا وتتفرع مرورا بالانشطة الرياضية . واخيرا وليس آخرا فانه يفترض ان الاعلام العربي وبخاصة الفضائيات التي بدأت تشكل ظاهرة متنامية في اعدادها وتأثيرها رسالة شاملة لخدمة الوطن العربي والمواطنين العرب والدفاع عن قضاياهم ، واقتحام ميادين الآخرين وعقولهم لتبييض صفحات العروبة واكساب قضاياها مزيدا من القوة والشرعية والتأييد ، وعكس الانجازات الحقيقية للوطن العربي ، وليس الاكتفاء بدور المتلقي الكسول المنتظر لعطايا الآخرين الثقافية والترفيهية والترويحية وغيرها ، والعاجز عن فعل أي شيء غير الأخذ ، والمتغني بامجاد غيره . والاعلام في النهاية رسالة سامية شاملة وليس مجرد تسلية واضاعة وقت او ملء فراغ كيفما اتفق .

انتفاضة إعلامية عــربيــة

❋) في مؤتمرهم الرابع والثلاثين الذي عقد مؤخرا في العاصمة اللبنانيــة بيــروت وجــه وزراء الاعلام العرب بعض الانتقادات للاعلام العربي . وقد تركزت معظم هذه الانتقادات كما جاءت على لسانهم على طبيعة هذا الاعلام كونه يحمل في ثناياه أمراض السياسة العربيــة وعلى أدائه كونه حتى الآن ظل قاصرا ومحدود التأثير فلم يصل الى أبعــد مــن الجاليــات العربية المنتشرة في العالم ، وبذا لم يخرج من دائرة محلية الوطن العربي .

❋) وبداية فان الاعتراف بالتقصير اذا كان هدفه التغيير نحو الأفضل هو فضيلة دون أدنــى شك ، وخطوة على الطريق الصحيح . وهنا – وقد فتح الملف الاعلامي العربي – لا بــد ان يكون تشخيص العلة شاملا لا انتقائيا ، ويفترض ان يأتي ضمن استراتيجية عربية مدروسة معدة سلفا ، لا مجرد قرارات مشرذمة تظل حبرا على ورق وليس لها أدنى رصــيد علــى أرض الواقع . ومع ذلك فلا بد من الاعتراف بأن الاعلام العربي في غالبيتــه يعــاني مــن حالات عجز وتقوقع وتقصير وتقليد وارتماء في أحضان مرجعيات اعلامية أجنبيــة وعــدم ارتقاء الى مستوى حاجات الانسان العربي المعاصر .

❋) لكن الملاحظ أن ثمة نقاطا كثيرة أغفلها وزراء الاعلام العرب ، ولا نظن أنها تغيب عن بالهم بقدر ما انهم آثروا عدم الخوض فيها . ولا يختلف اثنان في أن أخطــر مــا يعانيــه الاعلام العربي كون غالبيته مملوكا من قبل الانظمة العربية سواء كان مسموعا او مكتوبــا او مرئيا . وبهذا فهو يسبح في فلك هذه الانظمة ويضيء فضاءآتها بما يحلــو لهــا مــن اضواء ساطعة باهرة . وفي هذا الصدد يذكرنا الاعلام العربي بشاعر القبيلة الذي كان يتولى الدفاع عنها وينصرها ظالمة او مظلومة ، وهو بالتالي يبــرز محاســنها ويكيــل المــديح لشيوخها ، ويستمطر اللعنات على من يقف في طريقهم . فالاعلام العربي والحال هذه هــو "شاعر هذه الانظمة" الضاربة جذورها في القبلية والفردية .

❋) والعلة هنا ليست في الاعلام العربي بقدر ما هي في السياسات الاعلامية العربية التي لا ترى أبعد من أنفها . فالاعلام من منطلقها ما هو الا مجــرد مهرجانــات تمجيــد للانظمــة ورموزها "وفتوحاتها على شتى الصعد السياسية والاجتماعية وغيرها" . أما فيمــا يخــص حرية التفكير والرأي للمواطنين فهي مغيبة ، ذلك أن هذه الانظمة قد اعتادت أن تقدم لهم " وجبات تفكيرية جاهزة " في اطار احتكارها لهذا الحق وحرمان جماهيرها منه . وهذا يفسر هرب كثير من وسائل الاعلام المكتوبة والمرئية الى خارج الوطن العربــي حيــث الحريــة

بصفتها المادة الخام الأولية التي تشكل لحمة الاعلام وسداه ، والبنية التحتية لحقوق الانسان .

*) ان عقدة الانظمة العربية انها تعاني من حساسية مفرطة تجاه النقد ، بل هي تخشاه وتضيق ذرعا به وتعتبره مساسا وانتهاكا وتطاولا وتجاوزا ، وتتفنن في ايجاد تهم له من قاموس منظومة التواطؤ والتعامل والتآمر والاخلال وغيرها . وعلى هذه الخلفية فان هذه الانظمة لا تؤمن باي شكل من الاشكال بخصخصة الاعلام . لذا فالوطن العربي يفتقر الى قاعدة اعلامية تمتلكها الجماهير . واذا ما صادف وجود قلة منها في قطر او اثنين فانها تعمل في اطار رقابي مشدد وتحت طائلة شبح التهديد بالاغلاق .

*) ان المراقب لحركة الاعلام العربي داخل كل نظام يستشف مشهدا اعلاميا يكاد يكون متشابها . فعدا عن ما ذكر حتى الآن فهو ينحو الى التركيز على الاعلام المرئي سواء الارضي منه او الفضائي كونه أكثر تأثيرا في الجماهير ويلقى اهتماما واسعا لديها وشعبية كبيرة . وهو من حيث تركيبته يشمل كل اشكال الاعلام المقروءة والمسموعة والمرئية .

*) وفيما يخص هذا الاعلام المرئي بقنواته الأرضية والفضائية ، فالملاحظ انه يكرس مساحة شاسعة من دوراته البرامجية لبرامج الترفيه والتسلية والاغاني المصورة والمسلسلات المدبلجة ومباريات كرة القدم والمنوعات الاخرى ، وهي في غالبيتها مستوردة عربيا او اجنبيا . وعلى ما يبدو ان هناك بعض الانفتاح على " الجرأة " في العرض ، أو ان المعايير التي كانت تفرضها التقاليد والعادات والقيم قد أخذت بالتآكل . ولسنا هنا بصدد استعراض كشف تفصيلي للحالات والبرامج التي تخدش الحياء أو انها تؤدي الى تمييع اتجاهات الناشئة وتكريس قدوات ورموز بعيدة عن التاريخ والاصالة والتراث وكل ما يفرضه الانتماء الثقافي .

*) الا ان هذا التوجه قد لا يكون مصادفة ، او انه مجاراة لروح العصر ، بقدر ما هو مخطط له او انه مقصود يهدف الى ايجاد مسارات ترفيهية بعيدة عن المسارات السياسية والقضايا الساخنة التي من المؤكد أن الخوض فيها على مستوى الجماهير سيثير مشكلات وتوجهات لا ترضى عنها هذه الانظمة . ففي حين تزخر هذه البرامج بكل ما ذكرناه آنفا ، فانها تكاد تخلو من التوجهات القومية . وفي هذا الصدد فهي تركز على المحليات الاقليمية ولا تحظى القضايا القومية بما يفترض ان تحظى به . فمثالا لا حصرا وعلى ما يبدو أن الحديث عن الوحدة العربية او التضامن العربي او الوحدة الثقافية او السوق العربية المشتركة قد أصبح "فعلا ماضيا" . اما فيما يخص القضية الفلسطينية وتحديدا قضية القدس

فباستثناء قلة معدودة من الفضائيات العربية الخاصة ذات الطابع الاخباري ، لم تعد تشكل مادة اعلامية لها الاولوية والصدارة ، ناهيك عن القضايا العربية الاخرى .

❋) ان مشكلات الاعلام العربي لا تقف عند هذه الحدود . فهو لم يشكل حتى الآن بنية مستقلة لها مفاهيمها ومصطلحاتها وتوجهاتها واتجاهاتها الخاصة ، وفي اغلب الاحيان فانه يتخذ من الاعلام الغربي بحسناته وسيئاته مرجعية له وينقل عنه دونما أي تمحيص او تعديل . واذا ما اطلق عليه تعبير اعلام عربي فذلك لأنه يستخدم اللغة العربية ليس الا . ولا يعني هذا ان هناك اعلاما عربيا مشتركا ناطقا باسم الوطن العربي ، اذ ليس هناك وكالة انباء ولا فضائية ولا صحيفة او اذاعة واحدة تحمل صفة العربية القومية المشتركة .وجراء ذلك كله انعدم الخطاب الاعلامي العربي في غمرة وجود خطابات متفرقة متشرذمة .وتظل اخطر المشكلات تكمن في ان أي خطاب اعلامي عربي لا يصل الى المجتمعات غير العربية كون الوطن العربي يفتقر الى فضائية عربية موحدة وموجهة تبث بلغات اجنبية وتصدر عن توجه قومي .

❋) وخلاصة القول ان الاعلام العربي بحاجة الى انتفاضة تحرره من قيوده واغلاله وتقوقعه المحلي لينطلق الى مسارات وآفاق جديدة يتلاقى من خلالها مع تطلعات الجماهير العربية وقضاياها . والاعلام العربي بحاجة الى وجه جديد حقيقي لا الى عمليات تجميل مؤقتة . وهو بحاجة الى المضمون لا الى مجرد الشكل لكن أخطر مهمة له أن يكن صادقا مع نفسه وجماهيره وان ينطلق من قومية لا اقليمية وان تكون له معاييره ومفاهيمه ومرجعيته المتحررة من التبعية .

الثقافة الإسلامية .. والعولمة

خطاب الدفاع عن الثقافة الاسلامية الذي شنه رئيس وزراء دولة ماليزيا الاسلامية مؤخرا ، كان استشعارا حادا وجادا لواقع كئيب ، وانذارا قد لا يكون مبكرا يخص ما تتعرض له فضاءآت الثقافة الاسلامية من مخاطر المحاولات المتعمدة لاطفاء مناراتها والتعتيم عليها في وجه الاجيال التي هي وريثتها ، وصاحبة الحق في الدفاع عنها وصونها على مر التاريخ حاضرا ومستقبلا .

ويكتسب هذا الخطاب اهميته من كونه يصدر لأول مرة عن مسؤول كبير يرئس نظاما سياسيا ، وانه لم يكن مجرد دفاع تقليدي عن العقيدة والثقافة الاسلاميتين بقدر ما هو هجوم عنيف على الغرب والتحديات العولمية التي يفرضها على العالمين العربي والاسلامي , وتزداد اهمية هذا الخطاب في انه جاء ايضا في اجتماع وزراء خارجية دول مؤتمر منظمة الدول الاسلامية في دورته السابعة والعشرين المنعقد في كوالالمبور العاصمة الماليزية ، الامر الذي يضع الانظمة الاسلامية عربية كانت او غير عربية وجها لوجه امام هذه القضية الخطيرة .

وحقيقة الامر فان هذا الخطاب يتقاطع وتوجهات شرائح عريضة من المثقفين العرب والاسلاميين الغيورين على التراث والثقافة والعقيدة والذين ما فتئوا يخوضون معارك متواصلة دفاعا عنها في وجه تحديات كل اشكال العولمة التي تفرضها الدول الغربية وفي مقدمتها الولايات المتحدة الاميركية على العالمين العربي والاسلامي متذرعة بالدفاع عن "كافة اشكال الحريات وفي مقدمتها الاجتماعية والابداعية" ومناصرتها في هذا السياق لموجات الارتداد والتطاول على المقدسات واستباحة المحرمات ، وتجسيد النظرة الدونية للتراث والأصالة واتهامهما بانهما لم يعودا يلائمان عصر الحداثة وما بعد الحداثة ، وانهما بالتالي اصبحا من التاريخ .

واذا كانت هذه الشرائح المثقفة ما زالت بقواها الذاتية وبدافع من غيرتها الانتمائية تتصدى لكل افرازات العولمة وتنبري لمواجهتها . فان الطريق امامها ليست معبدة ذلك ان الاوضاع الداخلية في اقطارها تفرز تحديات جسيمة وخطيرة هي الاخرى تحد من فعالياتها وتحركاتها وتحقيق حد معقول من الانجاز. ويتمثل هذا في انها تعمل في واد ، في حين ان

الانظمة السياسية العربية والاسلامية في واد آخر تتفيأ ظلال ارتمائها في احضان السياسات الغربية وموالاتها للغرب قلبا وقالبا . وجراء ذلك كله لم تعد تولي ما تتعرض لـــه الثقافـــة الاسلامية وما تستحق من اهمية . فاصبحت غير مكترثة ولا مبالية . ويؤكد ذلك ان وسائل اعلامها ومناهجها التربوية وخطابها الثقافي تعتم على هذه القضية ، وعلى عكس ذلك فانها تسهم في نشر فعاليات العولمة وتوسيع مشاهدها. ويبرز التحدي الداخلي الثاني في شريحة اطلقت على نفسها مسمى "المثقفين الحداثيين" الذين ارتبوا في احضان الثقافات الغربية ، او انهم اعجبوا بها ، او انهم يرفضون لسبب او آخر الثقافة العربيـــة الاســـلامية . فحشـــدوا انفسهم على جبهتين اولاهما لمحاربة هذه الثقافة والنيل منها ، والثانية بهدف احلال ثقافة العولمة والحداثة والتغريب محلها ، وبالتالي تغيير مشاهدها العامة والخاصة . وهـــم فـــي الحقيقة ليسوا اكثر من "طابور خامس ثقافي" يعمل بصورة مباشرة او غير مباشرة لحساب المعنيين بالامر يهدف اعادة تصميم المشهد الثقافي العربي الاســـلامي واخراجـــه بصـــورة عولمية حداثية . لكن التحدي الاكبر الذي ما زال يفرض نفســـه علـــى العـــالمين العربـــي والاسلامي ويجعلهما لا يرقيان الى مستوى المسؤولية ، كونهمـــا مـــا زالا يعانيـــان مـــن مشكلات اقتصادية واجتماعية تفرض على غالبية مواطنيهما الجر اللاهـــث وراء تحصـــيل رغيف الخبز والدواء لكثير من الامراض المستأصلة ، ناهيك عن الفقر المدقع ومســـتويات الامية المرتفعة وبخاصة في قطاع الاناث امهات المستقبل . وكل هذا وذاك يتم تحت ظـــلال اجواء انعدام الحريات والمساواة والممارسات الديمقراطية وانتهاك منظومة حقوق الانسان . وغني عن القول ان التفكير في الثقافة ودرجة الانتماء لها يحتلان مواقع متأخرة على سلم الحاجات الانسانية ، ويتأثران سلبا او ايجابا بمستوى تحقيق حاجات الانســـان الاساســـية . وبناء على ما تقدم فانه ليس من المستغرب ان يشكل العالمان العربـــي والاســـلامي تربـــة خصيبة ومرتعا سهلا لأية فعاليات غزو ثقافي في مجتمعات اما انها فقدت جهـــاز مناعتهـــا الانتمائي الثقافي او انها اصلا تفتقر اليه .

واذا كنا حتى الآن قد تناولنا التحديات الداخلية التي افرزت على المشـــهد الثقـــافي العربي الاسلامي ظلالها القاتمة ، فان التحدي الاكبر يظل يتمثل بالوسائل التقنية المتطورة التي يمتلكها الغرب دون سواه والتي بواسطتها يشن حملته العولمية دون هوادة ، وبخاصة انه انتقل انتقالا ناجحا من مرحلة الثورة التقنية الى مرحلة الثورة المعلوماتية ، الامر الذي يسر له واعطاه المبرر – وهو يملك كل وسائل التفوق والفوقية – ان يقتحم ثقافات الآخرين وان يتدخل بتشريعاتهم وانظمتهم وقوانينهم ، وان يعرضها للمساءلة والمحاكمـــة والنقـــد

والضغط من اجل تغييرها ، علاوة على استبدال المفاهيم والقيم بمـــا يتناســب ومنظــوره الثقافي . وهو هنا يتباكى على ضرورة منح "الحريات للمرأة والأسرة والمبدعين والمفكرين" على النمط الغربي الذي يحمل طابع الانحلال والانفلات والتحرر المطلق .

وخلاصة القول ان الثقافة العربية الاسلامية يخشى ان تكون قد اصبحت في مهــب الريح او انها على كف شيطان العولمة . وعلى هذا الاساس فانها بحاجة الى حماية ودفاع قائمين على اسس علمية وتقنية واعلامية وتربوية سليمة تنطلق مــن احســاس حقيقــي بخطورة الموقف وسلبيات تداعياته ، ومن رغبة صـــادقة وارادة عازمـــة وحازمـــة علـــى المواجهة تحت ظلال استراتيجية عمل مخطط لها بقصد التنفيذ والمتابعة الفعليين . ولــيس امام الانظمة الاسلامية الا طريقان لا ثالث لهما . فاما انها تظل على حالها مــن الانقســام والتفتت والتعادي والتقوقع الاقليمي وعدم الاكتراث واللامبالاة والافتقار الى الحد الادنى من التعاون والتضامن في ما بينها ، وعندئذ فانها تكون قــد تنازلــت طوعــا عــن ثقافتهــا وعرضت بذلك عقيدتها للانهيار والانحلال –لا سمح الله– . واما ان تصحو مــن غفوتهــا وتقف متحدة في وجه تحديات العولمة الشريرة ومن يحركها ، كي يظل لهــا مكــان تحــت الشمس تتفيأ فيه ظلال تاريخها وثقافتها وعقيدتها التي صنعت منها خير امة اخرجت للناس .

التشهيـــر .. بالعـــرب والمسلمين

يعرض هذه الايام في العاصمة البريطانية والعديد من العواصم العالمية فيلم سينمائي من انتاج هوليوود بعنوان "انظمة المواجهة" . وتدور قصته الخيالية حـــول عمليـــة انقـــاذ لمواطنين امريكيين وقعوا رهائن في اليمن ، سقط خلالها العشرات من الضحايا . وقد انتقد كثير من العرب والمسلمين الذين اجرت معهم احدى القنوات الفضائية العربية هذا الفلم كونه يظهر الاسلام "دين عنف" ، ويصور العرب على انهم "ارهابيون" . وقد ركز منتقـــدو هـــذا الفيلم على ان قصته في الاساس قد وقعت احداثها في احدى دول امريكا اللاتينية ، ولكـــن المخرج قد حولها لتصبح احداثها في اليمن العربي . وسواء كانت الانتقادات الموجهة الـــى هذا الفيلم مبررة او غير ذلك ، فان سجل هوليوود في اخراج افلام سينمائية ماسة بـــالعرب والمسلمين طافح بما يدينها ويلقي كثيرا من الاضواء على الجهات والدوافع الكامنـــة وراء هذه التوجهات العنصرية التي تاتي ضمن مسلسلات التشهير بالعرب والمسلمين التي نحـــن بصددها في حديثنا هذا ، والتي لم تتوقف لحظة واحدة . وعلى ما يبدو فان هذه الحمـــلات جزء من حرب مخطط لها على عدة جبهات اعلامية وثقافية وفكرية وتربوية وعقائديـــة . وهي موجهة في غالبيتها ضد الانتماءات العقائدية والفكرية والثقافية وكـــذلك الســـلوكية . وتبدو اهم مظاهرها في كيل الصفات اللفظية النابية ، او الكتابات الماسة ، او اللجوء الـــى التصوير الفوتوغرافي والرسوم الكاريكاتيرية لابراز الشخصية العربية والاسلامية بصـــور غير لائقة ومنافية للحقيقة ، او استخدام اسلوب النقد الهدام مـــن خـــلال الهمـــز واللمـــز والتعليقات التي تشتم منها رائحة التعالي والفوقية في مقابل "دونيـــة " الانســـان العربـــي والمسلم .

وعلى خلفية هذه المقدمة ، فقد تعرضت الكثير من المعتقدات والمفاهيم الدينية للنقد والتجريح والهجوم والاستهزاء . كما يلاحظ ان حملات التشهير آخذة في الاتساع باتجاهين افقي ورأسي . اما الافقي فهو الاتساع في حالات التشهير وتزايد اعداد المشهرين . وامـــا الرأسي فهو اختيار نقاط معينة والامعان في مهاجمتها والنيل منها . وفـــي مجملهـــا فقـــد تناولت هذه الحملات التشهير بالذات الالهية ، وشخصية الرسول " صـــلعم " وكثيـــرا مـــن المفاهيم العقائدية ، والسلوكات العامة والعقليتين العربية والاسلامية ، كذلك الصورة العامة للانسان العربي والمسلم ، بالاضافة الى الصاق النعوت والصفات النابية التـــي تـــنم عـــن عنصرية وكراهية وحقد . وهي جميعا تصب في هدف واحد هوالتحقير والمساس بالكرامـــة

والقيم والمقدسات وانتهاك المحرمات ، وتشويه الصورة الحضارية والثقافية . اما الـدوافع لهذا كله ففي اعتقادنا انها تنبع من عنصرية وتمييز عرقيين وتطرف ديني .

ولم يقف الامر عند هذا الحد ، فالتاريخ العربي الاسلامي كان هو الاخـر ولا يـزال عرضة للتشويه والتحريف والدس والطمس والتعتيم على جوانب منه ، والحذف والاضافة ، بهدف اظهاره على انه مجرد تاريخ شعوب غير متحضرة متصارعة على السلطة ، وانهـا معروفة بالحمية والانفعالية والقسوة والتسلطية والعصبية القبلية . وفي المحصلة انها لا هم لها الا متاع الدنيا ، وانها لم تقدم شيئا للحضارة الانسانية . وكانت الصورة العامة للعربـي او المسلم تعرض على انه ذلك الانسان الشرقي المزواج الذي لا يحترم الاسـرة ويسـتعبد النساء . وفي احيان كثيرة صور على انه محدود الذكاء .

وكثيرة هي الجهات التي تقف وراء هذه الحملات التشـهيرية . كمـا ان الوسـائل والاساليب التي تستخدمها كثيرة هي الاخرى . ويمكن رصد جبهتين في هذا الصدد . الاولى بطبيعة الحال خارجية يغلب عليهما الطابعان الاعلامي والسينمائي . ومقرهما خارج الاقطار العربية والاسلامية . والثانية خارجية داخلية في آن واحـد ، وتعتمـد اسـلوب مـؤازرة المرتدين والخارجين على القيم والمفاهيم الاسلامية بكل اشـكالها وابعادهـا واتجاهاتهـا ، وتقديم الغطاء الاعلامي لهم ، والدفاع عنهم باسم حرية الرأي والتفكير والالتـزام بحقـوق الانسان ، وتبنيهم على كافة الصعد في حالة لجوء هؤلاء المرتدين الـى خـارج اوطـانهم الاصلية ، ومنحهم المظلة الامنية والمادية . وثمة حالات كثيرة نذكر منها مثالا لا حصـرا الكاتبة البنغالية المغمورة "تسنيم" التي هاجمت الشريعة الاسلامية مرات عديـدة وتطاولـت على قيم مقدسات الاسلام ، والتجأت الى السويد التي قدمت لها المـأوى والامـن والـدعم المادي وحرية الاستمرار في كتاباتها هذه . واما الحالة الاكثر شهرة التي اصبحت لها ابعاد سياسية وامنية بعيدة المدى فهي حالة الكاتب " سلمان رشـدي " صـاحب كتـاب " آيـات شيطانية " الذي التجأ الى بريطانيا وما زال تحت حمايتها . وثمة حالات كثيرة تحـدث هنـا وهناك بين الفينة والاخرى في العالمين العربي والاسلامي تفرزها " ابداعات ثقافية او ادبية او فكرية " تتخذ من المساس بالمقدسات ايا كانت وسيلة للشهرة والانتشار ولفت الانظار ، ودعوة باسم الحداثة العولمية تحمل في طياتها طلبا للحماية من الخارج الذي يسيطر علـى وسائل الاعلام ، وينصب نفسه حاميا لحرية الانسان والتفكير والابداع .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا بالحاح : ماذا ينبغي فعله ، او ان تكون ردة الفعل ازاء كل هذا وفي كل مرة ؟ اذ لا يعقل ان يكون الرد هو السكوت والعفو . لان العفو لا يكون الا عند المقدرة التي في حالتها لا يجرؤ احد على التفكير بالتشهير . والامتان العربية والاسلامية هما في اشد حالات ضعفهما . ومع ذلك فان الاعلام العربي بكل اشكاله تقع عليه مسؤولية كبيرة في الرد والتصدي ، وكذلك فان دور الجاليات العربية والاسلامية في المهاجر يتضاعف ويتطلب يقظة ووقفة متحدة . واما دور المثقفين العرب والمسلمين فلا يقتصر على الرد بقدر ما يفترض ان يتناول التركيز على كل الاضاءات المشرقة في فضاءات الحضارتين العربية والاسلامية . ويتجلى دور المؤسسات التربوية بكل مراحلها في توليد اتجاهات ايجابية تجاه الشخصية العربية ، والقضاء على حالات "جلد الذات " والاستهانة بها في غمرة التأثيرات الاعلامية التي تهب على العالمين العربي والاسلامي . وان من ابسط الفرضيات ازاء هذه الحملات المتكررة ان يكون هناك جسم اعلامي عربي اسلامي عالمي يتولى شرح القضايا العربية والاسلامية ويدافع عنها ويتصدى بكل الوسائل لكل من تسول له نفسه بانتهاك الحدود العربية والاسلامية . وهذا لا يعفي الانظمة السياسية من دورها الذي يفترض ان يكون في المقدمة .

ثلاثون عاما من الاغتراب:
القدس .. منظور ثقافي

القدس بالنسبة لنا هي الزمان بابعاده الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل . شكلت بمجموعها لحمة شبكة ذاكرتنا الثقافية والايمانية والانسانية وسداها ، كبرت معنا واصبحنا جزءاً منها واصبحت جزءاً منا واذا كنا نحن الفلسطينيين ، وهذا شرف لنا ، اكثر حساسية من غيرنا تجاه القدس ، وكل ما يخص القدس فلأننا الاقرب اليها ، جسداً وروحاً ، والاوثق التصاقاً ، والارحب معايشة .

ان خمسة عشر قرناً من التاريخ العربي الاسلامي المتواصل ، وقبله مساحات لا تحد من التواجد العربي المكاني والزماني على ارضها ، والتفاعل مع كل ذرة من ثراها ، والتوحد مع كل نفحة ايمان تنساب من مآذنها ومساجدها وكنائسها . ان هذا الشريط اللانهائي من ذكرياتها الايمانية والتاريخية والثقافية ، وغيرها الكثير ، لا يمكن حتى لمكتبة بكل مصنفاتها من مخطوطات ومجلدات وكتب ومراجع ووثائق ان تقيس مدى مساحة الارتباط والتعلق والاندماج بها او ان تشبعه تعليلاً وتفسيرا وبحثاً ودراسة.

ولسنا هنا بصدد الحديث عما يدورفي القدس من تغييرات على خارطتها الجغرافية والديموغرافية والتاريخية ، ولا ما تعرضت له خلال العقود الثلاثة الماضية من احداث مأساوية يطول تفصيلها .. الا انها كما يبدو لم تحدث ذلك الاثر الفاعل في اختراق حساسية

الانظمة العربية والاسلامية على حد سواء ، والوصول بالتالي الى مراكز التأثير والتأثر فيها ، والتي يبدو أنها باتت في حالة غيبوبة انتمائية تامة .

ان ما يهمنا هنا هو ما يدور على الساحتين العربية والاسلامية بشأن القدس ، او بصحيح الكلام ما لا يدور على هاتين الساحتين جراء محاولة اغتيال هذه القضية والسعي الى التخلص منها ، وطمس معالمها في غياهب ذاكرة الاجيال العربية والاسلامية .

واذا كان الاخرون قد تناولوا موضوع القدس من حيث تقصير الانظمة العربية في الدفاع عن قضيتها او بالتهاون في طرحها بجرأة في المحافل الدولية ، او في عدم تسخير كل الامكانيات العربية للتأكيد على حق مشروع فيها ، او على اقل تقدير ان تكون القدس محور السياسة العربية الخارجية ، واحدى مرتكزاتها الرئيسة ، نقول اذا كانت هذه هي الابعاد التي تطرق اليها الكتاب والمحللون ، فاننا هنا سوف نتناول القدس باعتبارها منظورا ثقافيا يشكل البنية التحتية االتي يفتقر اليها أي توجه او تعامل عربي او اسلامي مع قضيتها المصيرية ، ذلك انه دون تفعيل الابعاد الثقافية المتعلقة بها فاننا نشك انه بمقدور اجيالنا العربية استقراء كنه هذا الارتباط الروحي بها .

وفي هذا الصدد سنتحدث عن التقصيرات في المجالات التالية :

المناهج التعليمية : ونشيرها هنا الى دراسة حول مناهج التاريخ في ثلاث عشرة دولة عربية ، اظهرت ان مجموع ما يدرسه الطالب العربي فيها يصل الى ثلاثة الاف صفحة من مادة التاريخ في اثنتي عشرة سنة دراسية ، خصص منها ما بين (6.5 – 8) صفحات عن القضية الفلسطينية ما قبل عام 1948 ، فلنتخيل ماذا يكون نصيب القدس في هذه الصفحات

من هذه المناهج التاريخية ، التي تخصص في نفس الوقت مساحات شاسعة وعلى امتـــداد سنوات لمواد التاريخ الاوروبي والاميركي والحضارات القديمة وغيرها .

الفنون التشكيلية : ونحن هنا نتساءل والحسرة تملأ النفوس كم معرضا عربيا داخل الوطن العربي او خارجه تناول القدس موضوعا له ، او على اقل تقـدير كانـت القـدس ضـمن موضوعات معروضاته ، سواء كانت من المنحوتات او الرسومات او الصور . ان الاجابـة عن هذا السؤال تعكس واقعا مريرا ومؤلما لا مبرر له على الاطلاق ونخشى ان تنـأى بنـا العواطف الى استنتاجات قد تكون قاسية ، ولكنها حقيقية .

فنون الغناء والمسرح والتمثيل :

-) فمنذ اغنية (زهرة المدائن) قبل ثلاثين عاما ، لم يخطر ببال موسيقي او مغن او مغنية ، ان يطلعوا علينا برائعة فنية اخرى واخرى ، سواء كانت اغنية او نشيدا او مغناة ، تجسـد المعاني السامية في حبنا للقدس وانتمائنا لها ، وتؤكد في نفـس الوقـت اصـرارنا علـى الاحتفاظ بهويتها عربية اسلامية . وحتى اغنية "زهرة المدائن" اليتيمة هذه ، لم نعد نستمع اليها الا ما ندر وكأنها اصبحت من الماضي .

-) وبطبيعة الحال فليس عالم التلفاز العربي بفضائياته وارضياته ولا المسرح العربـي ولا السينماالعربية بأوفر حظا ، فقد كانت القدس بكل ابعادها وجوانبها ابعد ما تكون موضـوعا لها .

المهرجانات : وما اكثرها عددا في الوطن العربي ، الا ان موضوعاتها بعيدة كل البعد عـن القدس ولا تمت اليها بصلة ، بل انها ربما تعمل على تخدير ذاكرة المواطن العربي واغتيال

ما تبقى من احساس تجاه القدس وسط هذه الموجات المتلاحقة العارمة المقلدة لفتات الثقافات الدخيلة .

الآداب العربية : ونحن لا نريد ان نتطرق الى موجة الانحراف نحو المدارس الادبية الغربية الأبعد ما تكون عن تفهم واقعنا النضالي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي ، لكننا وباختصار شديد ننوه الى ان الاداب العربية بكل اتجاهاتها ومدارسها وبكل اشكالها مقصرة بحق القدس التي وفي هذه المرحلة بالذات يفترض ان تشكل نواة تدور حولها الافكار والاتجاهات والاشكال الادبية ، ونتساءل عما يحول دون ان يكون على سبيل المثال لكل شاعر عربي قصيدة في القدس ، ولكل قاص ولو قصة قصيرة عنها ، او لكل كاتب أو باحث او مؤرخ مقال او بحث او دراسة .

حركة التأليف العربية : ان ما تطرحه المطابع العربية من مؤلفات تتناول شتى الموضوعات لكثير ، سواء كان انتاجا محليا او مترجما ، الا ان القدس كتاريخ ، وكتراث وكمقدسات وكفن عمراني فريد ، وكسياحة لم تحرك اقلام الكتاب والمؤرخين الذين شغلتهم افكار وطروحات اخرى في كثير من الاقطار العربية ، فخلت المكتبات العربية من مؤلفات جديدة تخص القدس بكل ابعادها .

واذا كان هذا بعض الحال في البلاد العربية ، فما هي الصورة التي تعكسها الاقطار الاسلامية تجاه القدس ؟ ، ان العالم الاسلامي اليوم غارق بمشكلاته الداخلية ، ويمر في فترة مخاض لا يستطيع احد التكهن بما سيكون مصيرها ، واما جماهيره فهي في حالة

لاوعي لما يدور حولها ، ذلك ان غالبيتها ما زالت تبحث عن رغيف الخبــز والــدواء ، او قسط من الحرية والديموقرطية .

ان صورة الاقطار الاسلامية قاتمة للغاية تسيطر عليها ظــلال ســوداء ، ذلــك ان العــالم الاسلامي بعيد جدا عن قضية القدس بسياساته وآدابه وفنونه واعلامه ، وبجولة سريعة فيه يمكن ان نخرج بالصورة التالية :

-) افغانستان تمزقها الحرب الاهلية الدامية ، وهي مشلولة الاحساس والتفكير بأية قضــية خارج حدودها او خارج دائرة النار التي تصطلي بجحيمها .

-) واما تركيا فان علمانيتها وعلاقاتها المميزة مع اسرائيل واميركــا والــدول الاوروبيــة الاخرى ، تحول دون ان تبدي اية مشاعر عبر المنظور التاريخي الذي يمكن ان تشتم منـــه رائحة الاتجاه الديني الذي يميز جانبا من اهم جوانب قضية القدس .

-) واما الحال في اندونيسيا ، فبالاضافة الى مشكلاتها الداخلية ، فقد اثبتت عزلتهــا عــن العالم الاسلامي ، والتزامها الحد الادنى او ما دونه من مشاركتها لقضايا العــالم الاســلامي الحيوية ومنها القدس .

-) اما باكستان فقد تكون المشاعر الاسلامية فيها قويــة الا ان هــديرها يتلاشــى وســط مشكلاتها الداخلية وصراع احزابها على السلطة .

-) واخيرا وليس اخرا فان ايران ربما تكون هي الدولة الاسلامية الاكثر ذكــرا للقــدس ، ولكن بحكم علاقاتها المتوترة مع الغرب واميركا وكثير من الــدول العربيــة ، تظــل هــذه المشاعر في اطار المحلية المغلقة ، ناهيك عن حواجز اللغة التي تحول دون معرفة كــوامن هذا الاهتمام ومدى جديته واتجاهاته ، أو تطبيقاته الواقعية .

ان الحديث عن القدس ذو شجون ، وان الاكتفاء بالحب العربي الصامت لها ، لم يعد له مكان في هذا الزمان بالذات ، واذا كانت القدس تعنينا ويهمنا امرها ، فلنعلن ذلك صراحة للدنيا ، في شعرنا ونثرنا وادبنا ورواياتنا وقصتنا ومقالتنا وموسيقانا ومهرجاناتنا ومسلسلاتنا التمثيلية الآنية لا التاريخية فحسب ، وفي افلامنا ومناهجنا التربوية والتعليمية ، وكل وسائلنا الاعلامية ، وبكل لغة من لغات العالم الحية التي نستطيع ان نتحدث بها او نكتب او نترجم اليها ، ولتشكل القدس حجر الاساس في صرح ثقافتنا القومية الانتمائية ، وهذا اقل ما يمكن تقديمه مهرا اوليا لعروس التاريخ العربي الاسلامي .

وانطلاقا من هذه المعطيات فاننا نصر على مدخلات اجرائية الى الساحة العربية الثقافية والتربوية والاعلامية والترويحية تتمثل فيما يلي :

-) ان تأخذ القدس مكانتها في المناهج التربوية العربية ، في كافة المراحل ، وان تحتل مساحة تتناسب وجلال قدرها ، كي تتعرف الاجيال العربية عليها وتفهم حقيقة الانتماء اليها ، وان يخصص لها يوم دراسي على اقل تقدير في كافة المؤسسات التربوية على امتداد الوطن العربي .

-) ان يخصص لها اسبوع سنويا تحييه الاقطار العربية تتناول فيه كل الابعاد التاريخية والثقافية والعقائدية التي تخصها ، على اعبار انها احدى اهم القضايا العربية المعاصرة .

-) ان تقام مهرجانات القدس الادبية والثقافية والشعرية والفنية السنوية على امتداد الوطن العربي .

-) ان تنشط حركة التأليف حول القدس ، تاريخها ، تراثها ، عمارتها ، مساجدها ، كنائسها ... الخ .

-) ان تشكل القدس بؤرة اعلامية في كل الوسائل الاعلامية العربية المقـروءة والمرئيـة والمسموعة .

-) ان تدخل القدس المسرح والسينما والتلفزة العربية من اوسع ابوابها .

-) ان يطلق اسم القدس على المؤسسات والشوارع والمشـروعات المختلفـة ، والفنـادق الحديثة والميادين الرئيسة في اقطارها العربية .

ولكن ونحن نتحدث عن القدس عبر هذا المنظور الثقافي ، فان قضـيتها لا تنتهـي عنده وحده ، فالمنظور الثقافي في اعتقادنا يشكل البنية التحتية التي افتقر اليها توجهنا نحو القدس ، وهنا نعيد التأكيد عليه ، ذلك ان التهاون في قضية القدس من قبل الانظمة العربية ورموزها ، كفيل بتلطيخ التاريخ العربي والاسلامي ، وتجريـده مـن مضـامينه القيميـة والانتمائية وسوف يصيب شعوبه بالاحباط والعجز ، فالقدس هي الجذور ، واي خلل يعتري هذه الجذور سيؤول الى تقزيم هذا التاريخ وتهميش شعوبه . ان القـدس قضـية عقيـدة وتاريخ ووجود وانتماء وشرف ، ويجب ان تحتل مكانتها في التفكير العربي والاسلامي .

وختاما انه لشرف كبير لنا نحن الفلسطينيين ان تكون القدس شغلنا الشاغل ، واولى اوليات اهتمامنا ، وان تحتل كل مساحات تفكيرنا وان نضحي لها كما ضحينا ومـا زلنـا . ولكننا نتمنى على الله وعلى اخوتنا في الوطن العربـي ان يقومـوا بتفعيـل مـا يكنونـه ويختزنونه من مشاعر وعواطف في وجداناتهم وعبر جوارحهم تجاه القدس التـي تجسـد شرف الانتماء الى تاريخ نصر ان تعود القدس احضانه .

التراث ..هوية وانتماء

لدى طرح موضوع الثقافة على بساط البحث فلا بد لنا ان نتناول المركبين الاساسيين لهذه الثقافة واللذين يمثلهما التراث بصفته المركب التاريخي او ما يسمى بالجذور او الاصول . والمركب الثاني وهو كل ما ينضوي تحت الاحداثات المعاصرة المتشكلة كمحصلة للمتغيرات التي شملت كافة نواحي الحياة وبخاصة تلك التي تخص كل جماعة انسانية في معزل عن الأخرى من ناحية ، وعبر قنوات اتصالها مع الآخرين من ناحية اخرى .ويهمنا هنا الاحداثات غير المادية . ومما لا شك فيه ان دراسة ثقافة أية جماعة انسانية من خلال مركب واحد مما اسلفنا هو بمثابة خروج على منطق الاشياء وجادة الصواب ، اذ لا بد من الجمع بينهما .

وفي حديثنا هنا سوف نتناول المركب الاول للثقافة ونعني به التراث . والكلمة لغويا مشتقة من الارث ، او ما تركته الاجيال السابقة للاجيال اللاحقة . والتراث ونقصد به هنا الشعبي بطبيعته يحمل صفات التراكمية والشمولية والجماعية وتنتفي عنه الصفة الفردية .ومصطلح التراث يكاد يكون مرادفا للتاريخ ان لم يكن هو الجزء الاهم منه ، او انه هو الروح النابضة لهذا التاريخ والتي بدونها يصبح مجرد احداث عبثية . وكلا التاريخ والتراث يتحدان معا ليشكلا جذور اية جماعة انسانية ، ويفسران بالتالي سلوكات هذه الجماعة في شتى الاتجاهات ، ويلقيان مزيدا من الضوء على منظومة اهتماماتها ونظرتها للاشياء وعلاقاتها الانسانية الداخلية في ما بين ابنائها من جهة ، والخارجية مع الآخرين من جهة اخرى ، مضافا الى كل ذلك مدى انفتاحها وانغلاقها وتشددها وتساهلها في قبول الآخر او رفضه ، وتمسكها بعندياتها . وكل هذه الاساسيات تصب في النهاية في بوتقة تحديد شخصيتها الانسانية الاجتماعية السياسية الثقافية ، وتفرز وتبرز معا شكل هويتها الانتمائية ومدى تمسكها وحفاظها عليه .

ثمة مبررات كثيرة تدفع اية جماعة انسانية للتنقيب عن تراثها والكشف عن كنوز ابداعاته ، واعادة اضاءة فضاءات تاريخها التي حجبتها غيوم بعد المسافات الزمنية بين الحاضر والماضي ، اضافة الى تراكمات شجون الحياة المعاصرة واشجانها . وفي اعتقادنا ان اول هذه الاعتبارات يتعلق بتجسيد الهوية الوطنية الانتمائية الى الوطن والتاريخ والجماعة الانسانية نفسها والحفاظ عليها في وجه التيارات الثقافية المعاصرة التي تتهدد

ثقافات الشعوب النامية بابتلاعها او تشويهها او التعتيم عليها ، او افقادها العناصر الحيـــة فيها ، وبالتالي برمجة هذه الشعوب على انها مجرد اعداد بشـــرية مجـــردة مـــن العطـــاء والابداع والتفكير وابداء الرأي بهدف فرض ثقافة التقليد والتلقي والاستهلاك عليها . وثاني هذه المبررات يخص الاعتزاز القومي والثقة بالنفس ، ذلك ان التاريخ والتراث هما اللـــذان يمنحان اية جماعة انسانية عراقتها واصالتها وعمق تجربتها وغناها ، وبالتـــالي اتســـاع مساحتها الزمانية المكانية . وهذا المبرر بحد ذاته من الاهمية بمكان كونه يشـــكل عـــاملا رئيسا في خلق الشعور الوطني بمعنى التمسك بالوطن والحفاظ عليه والتضحية من اجلـــه .وثالث هذه المبررات ان التراث بحد ذاته ثروة اقتصادية يمكن اســـتغلالها فـــي مجـــالات وفعاليات معاصرة "في الهندسة المعمارية والبناء والاثاث واللبـــاس والســـياحة والادوات والابداعات الفنية الاخرى" اضافة الى كونه يشكل العنصر الاساسي لكثير من المهرجانـــات السياحية والفنية .

وفي حديثنا عن التراث ايضا لا بد لنا ان نأخذ كثيرا من الاعتبارات بعين الاهتمام . فالتراث ليس مجرد مخلفات مادية ايا كانت او اساليب حياتية او تقاليد او قوالـــب فنيـــة او ملابس . انه اعمق من ذلك بكثير ، فهو روح الجماعة الانسانية والطاقة المحركة والـــدافع الى الانطلاق والتطور والحفاظ على الهوية والانتماء والتمسك بالوطن .وان الاهتمـــام بـــه يتعدى كونه مادة ترفيهية سياحية لدعم الاقتصاد السياحي من خلال مهرجانـــات موســـمية وسنوية تقام هنا او هناك . كما اننا من منظور تربوي لا نســـتطيع ان نـــدرس ابناءنـــا التاريخ دون التراث فالتاريخ يكون وعاء مفرغا دونه، ذلك انه يمنح هذا التـــاريخ حيويـــة وطعما ولونا ومذاقا وشكلا .ثم اننا نفترض ان لا يعزل التراث في متاحف خاصـــة بـــه وان يغلق عليه الى حين المناسبات التي اشرنا اليها سابقا . فالتراث يشكل جـــزءا مـــن الحيـــاة اليومية ايضا ويتدخل ويتداخل في مساراتها ويغذيها بطاقة الاستمرارية والتواصل. كما انه ليس بالضرورة الوقوف عند اشكاله القديمة وحرفية تقليدها ، فهناك دائما امكانيات للتطوير والحذف والاضافة والتطعيم والتلوين . وليس هذا يعني ان تكون حياتنا نمطا تراثيا ذلك انه من المستحيل ارجاع عقارب الساعة الى الوراء ، وانما ثمة امكانية معقولة لحياة معاصرة ملونة بالتراث . وثمة اعتبار آخر يخص علاقة التراث المحلي الاقليمي لكل قطر عربـــي او اسلامي . اذ لا ينبغي بأي شكل من الاشكال ان يطغى التراث المحلي على التـــراث الشـــامل ونقصد به العربي الاسلامي الذي يفترض ان يكون هناك توازن بينهما . ان التركيز علـــى العناصر المحلية الاقليمية في التراث يمكن ان تحمل معهـــا مخـــاطر التقوقـــع الاقليمـــي،

ونفترض بنا اننا نسعى من خلال التراث ان نضيف عاملا آخر موحدا لا مفرقا .ان احياء التراث والحفاظ عليه ومأسسته "ايجاد مؤسسات له " بحاجة الى دراسات وتخطيط واعداد طواقم ادارية وفنية واهم من ذلك تخصيص ميزانيات له ، والا كان كل مجهود في هذا الصدد حرثا في البحر . ولعل اخير هذه الاعتبارات لا آخرها كون التراث في غفلة عن اصحابه الشرعيين او نتيجة عدم اكتراث واهتمام به او انشغال عنه في حيثيات الحياة المعاصرة وبهارجها يتعرض الى السلب والنهب والسرقة من قبل آخرين ينسبونه الى انفسهم كما تعرض جزء كبير ونفيس من التراث الفلسطيني .

ان الحديث عن التراث لا ينتهي عند هذه المقدمة العامة ، فنحن في الوطن العربي والعالم الاسلامي لدينا كنوز ثمينة من التراث الذي شمل كافة الحياة الانسانية ، والذي كان نتاج تمازج دقيق ومتوازن بين العوامل الروحانية التي تمثلها العقيدة وبين الابداعات المادية الاخرى ، والتي يمكن ان يخصص لها بحوث ودراسات مستفيضة . لكننا هنا نود ان نختم هذه العجالة عن التراث بكلمة عن التراث الشعبي الفلسطيني ، وهو جزء لا يتجزأ من التراث العربي له طابعه المميز . ان هذا التراث غني وشامل ومرتبط بالارض التي منحت الانسان الفلسطيني هوية انتماء لها منذ القدم ، وهو جدير باحيائه والحفاظ عليه على طريق الانبعاث على خارطة الوجود الانساني، كونه ذاكرة الشعب الفلسطيني .

التراث الفلسطيني

ثمة حقائق نود ان نستهل بها حديثنا عن التراث الفلسطيني في غمرة الاحتفاء بـــه هذه الايام وايلائه مزيدا من الرعاية والاهتمام . فهذا التراث ليس اكتشافا حـــديثا ولا هـــو مجرد "صرعة عصرية" نقلد بها الآخرين ، ولا أي شيء من هذا وذاك سوى انه "ارشـــيف حياة" عاشها الاجداد والآباء على هذه الارض التي نفحوها اقصى ما لديهم من طاقات عمل وتفكير وابداع . فاستحقوا هم واحفادهم من بعدهم الحياة على ترابها . فالتراث الفلســـطيني شأنه شأن كثير من القضايا الثقافية يحتل مساحة مرموقة من الذاكرة الفلســـطينية ، وهـــي بكل تأكيد لم تلتف عليه في مجمل المسيرة النضالية ، بل انه شكل لدى ورثته دافعا انسانيا استقر في اللاشعور وهم يغذون الخطى على طريق عودة ظهورهم على خارطـــة الوجـــود والابداع الانسايين .

واذا كان هناك من مبرر سابق لعدم ايلاء التراث الفلسطيني درجة مـــن الاولويـــة يستحقها ، او انزاله المكان اللائق به ، فلكون الشعب الفلسطيني عبر مساحة عريضة مـــن الزمن كان يخوض غمار نضالات اخرى تحت ظلال احزانه وتوابع هزة نكبته الرئيسة عـــام 1948 ، مضافا اليها بيئات المنافي شبه القاتلة التي فرضت عليه ، ومع ذلك فها هو شـــيئا فشيئا يصحو من نكبته على كل مقومات حياته ووجوده ومن اولاها التراث .

تعود اهمية التراث الفلسطيني من انه الوثيقة الدامغة التي لا تقبل الشك بها والتـــي تثبت حق الشعب الفلسطيني في ارضه ووطنه بعد ان استولى الغاصبون على معظـــم هـــذه الارض ، ودمروا ما عليها من قرى وبلدات كانت تحمل اسماء فلسطينية عربية ، وبـــنفس الوقت كانت مسرحا متواصل العطاء متوارثا لفعاليات انسانية مارسها الأجداد والآباء عبـــر عصور وقرون من الزمان شكلت وجوده الانساني وتميزه علـــى مســـاحة مـــن الجغرافيـــا العالمية اسمها فلسطين . ويوم حلت النكبة وهجر هذا الشعب وكان التهجير ، حمل الشـــعب الفلسطيني معه منظومة عاداته وتقاليده ، افراحه واتراحه ، قيمه ومثله ، اساليب تعاملـــه وتكيفه وردوده على تحديات البيئة الى منافيه في الشتات الواسع متعدد المناخات الثقافيـــة والحضارية والايديولوجية . وصحيح ان التراث الفلسطيني لم يتعرض كلـــه للاقـــتلاع مـــن ارضه وبيئتيه الطبيعية والثقافية ، ذلك ان جزءا آخر من الشعب الفلسطيني ظل مرابطا على ما تبقى من الارض ومحتفظا بمخزونه من هذا التراث ، الا ان تراث الشعوب النامية بعامة

والتراث الفلسطيني وهو المقصود هنا قد تعرض في النصف الثاني من القرن العشرين الى كثير من المتغيرات على خلفية التطورات التقنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وموجات العولمة الثقافية باعتبارها ثقافة الشعوب الاقوى والاغنى والحائزة على التقنية المتطورة – ولسنا هنا بصدد الحديث عنها الا في ما يخص التراث الفلسطيني – الا انها بمجملها تدفعنا وتحثنا على ان نعيد حساباتنا مع التراث بهدف الحفاظ عليه من غائلة الذوبان او التلاشي او الهجر او التنكر له او الاهمال او التفريط به . وبداية فان النكبة التي فرضت على الشعب الفلسطيني تجاوزت الارض واستهدفت الانسان بهدف تجريده من تراثه الذي كان ولا يزال احد مقومات وجوده الانساني وهويته الانتمائية الى المكان المتمثل "بالارض الوطن" والزمان المتمثل بالتاريخ . وفي ما يخص التراث تعرض بشتى الوسائل والاساليب القهرية الى حالات من الطمس والتعتيم عليه كونه مرتبطا بالارض والوطن والدار والهوية ارتباطا وثيقا ، ومن ناحية اخرى تعرض الى الاستلاب والانتحال من قبل الغاصب الذي نسب كثيرا منه الى ابداعاته وتفكيره . وثمة دوافع اخرى تخص المنافي والشتات التي يتواجد فيها الشعب الفلسطيني . فالاجيال الفلسطينية الناشئة تعايش او انها تفرض عليها ثقافات غير فلسطينية او عربية ، الامر الذي يهدد بانقطاع الصلة والتواصل مع الوطن الام بتراثه ومحدثاته .واذا ما اضفنا الى كل ما اسلفنا عوامل تطور الحياة تطورا سريعا مثيرا شمل كاف النواحي التي عمل على تغييرها الامر الذي دفع بالكثيرين للالتفاف على التراث وعدم الوقوف عنده واعتباره شيئا من مخلفات الماضي تجاوزته روح العصر الحضارة والتقنية . وفي هذا الصدد نشير الى ان شريحة اجتماعية ثقافية تطعمت بالثقافات الغربية قد تنامت في الوطن العربي ناظرة الى التراث ومجمل الثقافة العربية نظرة دونية ومحملة اياهما تبعات التخلف الحضاري والثقافي في شتى اقطار الوطن العربي ومنها بطبيعة الحال فلسطين ، وقد تعزز هذا التوجه في غمرة الهزائم السياسية والعسكرية والاقتصادية التي حصدتها السياسات العربية خلال نصف القرن الماضي والتي دفعت بالعديد من مثقفي هذه الشريحة الى المطالبة باعادة النظر في كل الموروثات العربية المسؤولة عن تكون التفكير والسلوك العربيين ومجمل ردود الافعال ازاء التحديات المفروضة ، وبمعنى اخر ضرورة الانفلات من قيود التراث والثقافة الموروثة . وهذا بحد ذاته دافع رئيس يحث على رفض هذه المقولات المغرضة التي تهدف الى تغريب المجتمعات العربية وتجريدها من خصوصياتها وتميزها وثقافاتها ومجمل موروثاتها .

ان الحديث عن التراث ذو شجون ، الا ان اهم ما يكن الحديث عنه هو يقظة الاهتمام الحالية لدى شريحة فلسطينية تعتبر ان العمل على اكتشاف مكتنزاته والحفاظ عليها

واعادة نشرها جزءا لا يتجزأ من النضال لتثبيت الهوية الوطنية والحق في الارض الــوطن وسلاحا للاجيال يضفي على شخصيتها الوطنية والثقافية ابعادا تعمق كل مجمل انتماءآتهــا للأرض والانسان ولكل الابداعات الأخرى .

واذا كان لنا من رؤيا تخص التراث الفلسطيني في هذه الايام بالذات ، فهــي تبــدأ بالباحثين الذين اخذوا على انفسهم البحث عنه ودراسته واكتشاف العبــر منــه وتوثيقــه ، وبهذا الصدد لا ينبغي بأي شكل من الاشكال التركيز على الجوانب الاقليمية منه بــل ابــراز الجوانب المشتركة مع بقية التراثات العربية بهدف ان تكون عــاملا وحــدويا لا اقليميــا . وبالتالي فان مسؤوليات كل الجهات الثقافية تتعدى مجرد الاحتفاء به في يوم واحد الى ايجاد مؤسسات راعية ومطورة له في اطار كوادر علمية وفنية وميزانيات مخصصــة . كمــا ان اخطر مسؤولية تقع على المناهج التربوية في كل المراحل التعليمية ، اذ لا بــد ان تكــون هناك مناهج للتراث جنبا الى جنب مع مناهج التاريخين الفلسطيني والعربي . وبهذا الصــدد فان دور الاعلام اساسي في ابراز التراث ونشره وحتى تسويقه ثقافيا .

وخلاصة القول ان الصراع على التراث والتاريخ في منطقتنا لا يقــل اهميــة عــن الصراع على الأرض والماديات الأخرى بل هو جزء لا يتجزأ منها . والتــراث الفلســطيني يستحق منا نحن احفاد مبدعيه ان نحافظ عليه وان نعيد له بهاءه ورونقــه علــى طريــق التواصل الذي هو مدخل الانتماء الى الانسان "والارض الوطن" .

التراث .. والتبعية الثقافية

حينما نتكلم عن الابعاد الثلاثة للزمن ، فانما نتحدث عن التواصل الذي لا انفكاك له ، فراهن الامم منوط بماضيها الذي تكمن فيه جذور هذا الراهن ، وكذلك الامر بالنسبة للمستقبل الذي هو امتداد للماضي والراهن معا ، ويترعرع في احضانهما . وبطبيعة الحال فان هذه المقدمة تمثل التراث على اكمل وجه ، باعتباره مفاتيح خزائن الحضارة الانسانية ، بجانبيها المادي وغير المادي .

بادىء ذي بدء ، اود ان استهل هذه المقالة بتعريف شامل للتراث ، يكون بمثابة تحديد لمساراته ، واطارا تلتزم به .

فالتراث هو كل ما صنعه الانسان قديما ، وتناقلته الاجيال عبر العصور التاريخية ويتضمن العناصر التالية :-

1) الاشياء المادية : كالأدوات والآلات والاوعية ومواد البناء والأثاث والملابس أيا كانت المواد التي تتكون منها .

2) الأشياء غير المادية : الفنون بكل اشكالها كالغناء والرقص والتمثيل ، والزجل ، والرسم والنحت والزخرفة والنقش ، واساليب البناء واساليب تحضير الطعام وانواعه وادواته .

3) السلوكات : كالعادات والتقاليد والاعراف ، القيم والمثل العليا والانظمة والقوانين .

ويمكننا تحديد خصائص التراث على النحو التالي :-

1) القدم : وهي صفة نسبية ، ليست محددة بزمن ، الا أنه يفترض ان تكون قد مضى عليها وقت كاف او على اقل تقدير ان يكون الموروث قد مورس من قبل عدة اجيال .

2) نتاج امة او شعب ، لا افراد : وهو بأي حال من الاحوال لا يحمل الصفة الفردية .

3) اشتراك اكثر من أمة او شعب في تراث او في بعض مظاهر هذا التراث ، نتيجة اشتراكهما في ظروف تاريخية واحدة لفترة كافية من الزمن .

4) انتسابه الى عصر تاريخي او حضارة معينة ، وقد يحدث العكس فيصعب تحديد هويته التاريخية او الحضارية وذلك بفعل عوامل التداخل والتمازج الحضاريين والثقافيين ، بمعنى أنه قد تكون هناك عوامل داخلية محلية اثرت في التراث ، واخرى خارجية اجنبية ، وثمة امثلة كثيرة في التاريخ الانساني والجغرافيا .

5) الابداع الانساني : ففي المجالات المادية منه تكون في غالبيتها يدوية او تعتمـد علـى ادوات مساعدة بسيطة ، علاوة على كونها تستعمل المواد المحلية الطبيعية المتوافرة فـي البيئة ، كما انها تتمتع بلمسات فنية غاية في الدقة والاتقان تصل الى حد التعقيد . وقد لعبت المعتقدات الدينية دورا في تحديد بعض اشكال التراث واتجاهاته .

واذا كانت هذه هي اهم الخصائص المميزة لأي تراث انساني ، فيجدر بنا ان نتحدث عن اهمية التراث وقيمته في هذا العصر الذي تطورت اساليبه وادواته وتقنياتـه ومـواده الأولية علاوة على نظمه واتجاهاته المختلفة .

فالانسان أيا كان لا يخرج عن اطار المعادلة الزمنية الثلاثيـة الابعـاد "الماضـي ، الحاضر والمستقبل" ، وكل واحـد من هذه الابعاد يؤثر في الآخر ويتأثر به .

وهنا يتلاقى مفهوما التاريخ والتراث ، فتاريخ امة ما هو جذورها التي تـدل علـى انتمائها الى ارض ، وبالتالي الى عقيدة وعطاء حضاري .

فالتراث بكل بساطة فعاليات انسانية مورست فوق ارض ما ، وهو محصلة تفاعـل بين هذه الارض وعبقرية الانسان الذي عاش عليها ردحا من الزمن ، فتجذر فيها امتـدادا الى الاعماق "التاريخ" وعلوا الى العطاء والابداع ، والتراث من هذا المنظور شهادة اعتراف تنفي عن امة من الامم كونها مجرد عالة متلقية ، وتؤكد على مدخلاتها الحضارية ومدى ما اسهمت به واعطت ، وهو علاوة على كل ذلك لبنات يتشكل من مجموعها صرح الحضـارة الانسانية التي لم تكن حكرا على شعوب بعينها ، بل ساهمت بها معظم الشعوب بقـدر مـن العطاء والابداع .

والتراث اخيرا وليس آخرا مرآة تعكس صورة صادقة لحياة امة من الامم او شـعب من الشعوب او جماعة من الجماعات الانسانية ، وهو نقش على ذاكرة الوطن لا يمحـى ، ومكون رئيس لوجدانه ، ومحرك اساسي وموجه لاتجاهاته الانسانية والاخلاقية والابداعية .

ونحن هنا في فلسطين ، وبالاضافة الى كل ما ذكر ، تتجلى لنا اهمية التراث ، ذلك انه استخدم كاحد اهم الاثباتات في الصراع حول احقية ارض فلسطين مـن قبـل طـرف الصراع الثاني ، فكرس جهودا خارقة للبحث عن "تراث خاص به واصالة وجـذور" لتؤكـد

انتماءه الى هذه الارض ، فلم يتوان لحظة ان يحيك النظريات والفرضيات والحكايات حول اكتشاف اثري بسيط يحمل شعارا ما او جملة ما او حرفا ما .

ومن هذا المنطلق فالتراث بالنسبة لنا نحن الشعب الفلسطيني هوية انتماء لارض وتاريخ وامتداد زمني يتغلغل الى اعماق عصور تاريخية عريقة ، لا يستطيع احد ان ينكر مهما حاول وبذل جهودا خارقه لطمس الحقائق او استبدالها.

ولكن ونتيجة لهذا الصراع الطويل الذي سبقه عصر الاستعمار الاوروبي ، والذي افرز غزوا ثقافيا غريبا ، وفي لحظة ضعف ايديولوجية ، وفقدان ذاكرة انتمائية ، انقطع التواصل ما بين الانسان العربي بعامة والفلسطيني بخاصة او كاد وتراثه الحضاري ، او انه فقد الثقة به ، او انه جهله او اخذ يتجاهله جراء المنخفض الثقافي والفكري الذي سيطر عليه والمصحوب بتيارات ثقافية غربية اخذت تتسرب عبر مسامات واقعه الذي فقد مناعته المكتسبة ، ليجد نفسه غارقا في "مستنقع ثقافي" استمرأه ، وبذا تحولت الشخصية الوطنية الانتمائية الى متلقية تعاني "المازوشية الثقافية " في مواجهة غريب يمارس عليها اقسى اشكال "السادية الثقافية" . وهذه الفترة يمكن ان يطلق عليها عصر الاقتلاع من الجذور والانسلاخ من الجلد ، ولعل اهم مظاهرها :

–) ضعف الشخصية الثقافية الوطنية الانتمائية .

–) الابتعاد عن التراث الوطني والتخلي عن كثير من مظاهره واهماله والنظر اليه بدونية .

–) ركوب موجة التقليد الحضاري والثقافي الغربي الشكلي واعتبارها مظهرا حضاريا .

–) سرقة كثير من مظاهر التراث الوطني من قبل اطراف كثيرة وانتحالها على اعتبار انها من نتاجها ، بعد ان اعادت صياغتها بصورة عصرية حديثة .

وهنا يجدر بنا ان نركز على الغزو الثقافي الخارجي الذي تعرضت له الامة العربية ، باعتباره عاملا فاعلا في تصحرها الثقافي والابداعي ، ودخولها مرحلة التقليد ، والتبعية الحضارية . فالتقليد الذي نحن بصدده ، ظاهرة سلبية نجمت عن ضعف في الشخصية الثقافية التي اصيبت باقتلاع الجذور الانتمائية ، وحرى بنا القاء الضوء على دوافعه ، ومسبباته ، بهدف وضع استراتيجية تربوية توعوية تحد من انتشاره في المرحلة الاولى ، وتقضي عليه ان لزم الامر في مراحل لاحقة . ولكننا نؤكد أن اية استراتيجية للقضاء على هذا التقليد الفكري والثقافي لن يكتب لها النجاح ، اذا استهدفت فقط محاربة القوالب الفكرية ، والثقافية المستوردة ، بل ان عليها بادىء ذي بدء أن تضع أسسا ثقافية ، وفكرية نابعة من انتماء ، واصالة قوميين يبسطان ظلالهما على العادات ، والتقاليد ، والقيم ، والمثل

العليا التي هي جزء لا يتجزأ من وجود الجماعة الانسانية في أي مجتمع . ذلك أن التقليد كنمط فكري سلبي ما كان له أن يتسرب الى المجتمع ، لولا ان هناك فراغا فكريا ، وثقافيا وبالتالي ، فان أي تفكير للقضاء عليه ، يتطلب اولا واخيرا ملء هذا الفراغ.

وهنا نود أن نشير الى اننا اذا كنا قد فهمنا الاسباب الكامنة وراء التقليد الفكري ، والثقافي في السابق ، والناجمة عن فراغ فكري ، وحضاري ، وانحطاط في مستوى الثقافة ، والتعليم ، ونتيجة لتردي الاحوال السياسية ، والعسكرية ، والاجتماعية ، والتربوية ، فاننا اليوم نقف مشدوهين متساءلين عن الاسباب التي ما زالت تكرس التقليد في عصر يفترض ان كثيرا من المتغيرات السياسية ، والثقافية ، والتقنية ، والتربوية قد طرأت عليه . ونود في هذا الصدد أن نشير الى المخاطر الكامنة خلف التقليد الثقافي ، والفكري ، ذلك ان الامم المتطورة وهي في الغالب الامم المقلّدة ، تدرك أن التقليد يشكل سلاحا للسيطرة على الشعوب المقلِدة وبالتالي فانها ضمنت من خلاله ، وتضمن مستقبلا استمرارية السيطرة والتحكم في مقدرات الشعوب المقلِدة الى مدى بعيد ، ولان التقليد كما اشرنا سابقا يدل في كثير من الاحيان على عجز واعتراف ضمني بالدونية ، وتغييب واع ، أو غير واع للشخصية الثقافية ، فهو هنا مطابق للاستعمار الثقافي ، أو هو الفيروس الثقافي الذي ابدعت في تطويره مختبرات الفكر الاستعماري . ان السيطرة الاستعمارية ، وان كانت قد انتهت بشكلها القديم الذي عهدناه ، وعهدته كل الجماعات الانسانية التي خاضت غمار تجربته ، الا انها ما زالت ذات ديمومة واستمرارية متمثلتين في منظومة القوالب الفكرية والثقافية التي تقتات هذه الجماعات على فتات موائدها ، ومنها الشعوب العربية .

ومما يلفت النظر في هذه المرحلة تعدد مظاهر التقليد التي اصبحت مستشرية وبخاصة بين الفئات الشبابية ، وتمارس دون ادنى حرج ، وفي كثير من الاحيان ينظر اليها على انها مظهر من مظاهر الرقي ، وتتمثل في موجات الغناء ، والتمثيل والشعر واللباس ومظاهر الافراح ، والتسميات الاجنبية ، والمأكولات الغربية ، والمفردات الغربية التي تستعمل في الحياة اليومية ، هذا علاوة على الصرعات "الموضات" والسلوكات الغريبة ، وكل هذا يصاحبه جهل او تجاهل او ازدراء للتراث الوطني او بعض مظاهره على اقل تقدير ، والذي يوصف بالتخلف والتأخر والقدم ، وهذا ان دل على شيء فأنما يدل على عدم فهم حقيقي لهذا التراث ، ناجم عن انعدام التوجيه الاسري والتربوي والرسمي والاعلامي لهؤلاء الناشئة .

ان التنكر للتراث او جهله او تجاهله او عدم احترامه وتقديره حق قدره ، كل ذلك كفيل بأن يؤدي بالمجتمع للانزلاق الى مخاطر خلخلة الاسس التي يقوم عليها المجتمع ، وبالتالي الى فقدان جذوره وثروته الحضارية والثقافية الحقيقية ، اذ ان "الثروة الحضارية الآنية" التي يلهو بها هي في الحقيقة نتاج سواه وملك غيره ، وزيادة على ذلك فقد تلقاها بصورة مشوهة من مصادرها ، واذا استمر الحال على هذا المنوال ، فسوف يأتي اليوم الذي يغدو به المجتمع عديم الجذور ، مشكوكا بهويته الانتمائية لأنه محصلة استيلاد مهجن غريب لا يحمل اية صفة من صفات الاصالة .

ونختتم مقالتنا هذه بسؤال يطرح نفسه عن الحل المرجو ، ونأمل ان يكون في هذه التوصيات التي نقترحها والتي نعتقد ان بها ما يمكن ان يعيد امجاد التراث ويحفظه ويعمل على انقاذه وتطويره منها .

1) القيام بحملة توعية مستمرة مخطط لها ، تسهم بها المؤسسات التربوية العالية ، ومراكز البحوث والدراسات بالاضافة الى المؤسسات الرسمية .

2) اسهام اجهزة الاعلام المقروءة والمسموعة والمرئية بهذه الحملة التوعوية بما لها من امكانيات ذات قدرات فائقة للوصول المباشر الى المتلقي وابراز الجوانب المشرقة في التراث.

3) تشجيع المجهودات والمبادرات الفردية للباحثين والمبدعين والمهتمين بالتراث ، وتخصيص جائزة تقديرية ومادية لتشجيعهم على الاستمرار في بحوثهم ودراساتهم .

4) ادخال مادة التراث في المناهج التعليمية ، وجعلها من المساقات التي تدرس في الجامعات والكليات ، وذلك بهدف ان تسهم في تكوين الذاكرة الثقافية والتربوية للناشئة وترسيخها .

5) انشاء المتاحف الخاصة بالتراث الوطني والشعبي والاستعانة بخبرات الاخرين الذين كانت لهم تجارب ناجحة في هذا المضمار .

6) العمل على توثيق معالم التراث بنشرات ووثائق ومؤلفات وافلام واشرطة تسجيل.

7) احياءالاحتفالات والمهرجانات والمواسم التراثية السنوية وتطويرها .

8) واخيرا وليس اخرا انشاء مؤسسة باسم مؤسسة التراث الوطني ، تهدف الى رعاية التراث والحفاظ عليه وتطوير ما يمكن تطويره ، واطلاع الجماهير على امجاده وجوانبه المشرقة .

وختاما نود ان ننوه الى حقيقتين هما بمثابة مدخل لمسيرتنا الحضارية والثقافية :

- الحقيقة الاولى : اننا لا ينبغي لنا الوقوف عند حدود التراث ، وانما الانطلاق منه .

- الحقيقية الثانية : اننا نفتح عقولنا للحضارات والثقافات الاخرى ، ولكــن بشــرط ان لا تجتثنا من جذورنا الانتمائية للتراث والتاريخ والثقافة بكل ابعادها .

وبهذا نكون قد ساهمنا في الحفاظ على تراثنا الذي هو بمثابة جذورنا الممتدة فــي اعماق تاريخ هذا الوطن وترابه ، فيصبح هوية اصالة وانتماء ، ويصون شخصيتنا الثقافية المبدعة غير المقيدة بقيود التبعية الثقافية ، ويكون لنا حجة دامغة في حق لا يقبل التأويل ، ومجد لا تدنو منه الشكوك ، وعطاء خيّر يساهم في اعلاء صرح حضارتنا القوميــة التــي هي رافد معطاء من روافد الحضارة الانسانية .

التراث والغزو الثقافي

بادىء ذي بدء ، اود ان استهل هذه الدراسة الاولية بتعريف شامل للتراث ، يكـــون بمثابة تحديد لمساراته ، واطارا تلتزم به.

فالتراث هو كل ما صنعه الانسان قديما وتناقلته الاجيال عبر العصور التاريخيـــة ويتضـــمن العناصر التالية :-

1) الاشياء المادية : كالأدوات والآلات والاوعية ومواد البناء والأثاث والملابس أيـــا كانـــت المواد التي تتكون منها.

2) الأشياء غير المادية : كالفنون بكل اشكالها كالغناء والرقص والتمثيل ، والزجل والقصيد ، والرسم والنحت والزخرفة والنقش ، واساليب البناء واساليب تحضير الطعـــام وانواعـــه وادواته.

3) السلوكات : كالعادات والتقاليد والاعراف ، وما تفرزه من قيم ومثل عليا وانظمة وقوانين وغيرها .

ويمتاز التراث بأنه يحمل الصفات التالية :-

1) القدم وهي صفة نسبية ، ليست محددة بزمن ، الا أنه يفترض ان تكون قد مضى عليها وقت كاف او على اقل تقدير ان يكون قد مورس من قبل عدة اجيال .

2) أنه نتاج امة او شعب ، لا افراد ، وهو بأي حال من الاحوال لا يحمل الصفة الفردية .

3) قد تشترك اكثر من أمة او شعب في تراث او في بعض مظاهره نتيجة لاشتراكهما فـــي ظروف تاريخية واحدة لفترة كافية من الزمن .

4) يمكن رده الى عصر تاريخي او حضارة معينة ، وقد يحدث العكس فيصعب تحديد هويته التاريخية او الحضارية وذلك بفعـــل عوامل التداخل والتمـــازج الحضـــاريين والثقـــافيين ، بمعنى أنه قد تكون هناك عوامل داخلية محلية ، واخرى خارجية اجنبيـــة ولعـــل اســـتقراء احداث التاريخ تفضي بنا الى استنتاج ، وفلسطين يمكن ان تكون مثالا لهذا الافتراض فقـــد كانت عبر التاريخ مسرحا لكثير من الفعاليات ساهمت بها شعوب كثيرة وحضارات متعددة .

5) ان التراث يحمل في طياته عناصر الابداع الانساني ، ففي المجالات المادية منه تكون في غالبيتها يدوية او تعتمد على ادوات مساعدة بسيطة ، علاوة على كونها تســـتعمل المـــواد المحلية الطبيعية المتوافرة في الطبيعة ، كما انها تتمتع بلمسات فنية غاية في الدقة والاتقان تصل الى حد التعقيد . وقد لعبت المعتقدات الدينية دورا في تحديد بعـــض اشـــكال التـــراث واتجاهاته .

واذا كانت هذه هي اهم الصفات المميزة لأي تراث انساني ، فيجدر بنا ان نتحدث عن اهمية التراث وقيمته في عصر تطورت اساليبه وادواته وتقنياته ومواده الأولية علاوة على نظمه واتجاهاته المختلفة.

فالانسان أيا كان لا يخرج عن اطار المعادلة الزمنية الثلاثية الابعاد (الماضي ، الحاضر والمستقبل) ، وكل واحد من هذه الابعاد يؤثر في الآخر ويتأثر به .

وهنا يتلاقى مفهوما التاريخ والتراث ، فتاريخ امة ما هو جذورها التي تدل على انتمائها الى ارض ، وبالتالي الى عقيدة وعطاء حضاري .

فالتراث بكل بساطة فعاليات انسانية مورست فوق ارض ما ، وهو محصلة تفاعل بين هذه الارض وعبقرية الانسان الذي عاش عليها ردحا من الزمن ، فتجذر فيها امتدادا الى الاعماق "التاريخ" وعلوا الى العطاء والابداع ، والتراث من هذا المنظور شهادة اعتراف تنفي عن امة من الامم كونها مجرد عالة متلقية ، وتؤكد على مدخلاتها الحضارية ومدى ما اسهمت به واعطت والتراث لبنة او لبنات يتشكل من مجموعها صرح الحضارة الانسانية التي لم تكن حكرا على شعوب بعينها ، بل ساهمت بها معظم الشعوب بقدر من العطاء .

والتراث اخيرا وليس آخرا مرآة تعكس صورة صادقة لحياة امة من الامم او شعب من الشعوب او جماعة من الجماعات الانسانية ، وهو نقش على ذاكرة الوطن لا ينمحي ، ومكون اساسي لوجدانه ، ومحرك اساسي وموجه لاتجاهاته الانسانية والاخلاقية والابداعية.

ونحن هنا في فلسطين ، وبالاضافة الى كل ما ذكر ، تتجلى لنا اهمية التراث ، ذلك ان التراث استخدم كاحد اهم الاثباتات في الصراع حول احقية ارض فلسطين من قبل طرف الصراع الثاني ، فكرس جهودا خارقة للبحث عن "تراث خاص به واصالة وجذور" لتؤكد انتماءه الى هذه الارض ، فلم يتوان لحظة ان يحيك النظريات والفرضيات والحكايات حول اكتشاف بسيط يحمل شعارا ما او جملة ما او حرفا ما .

ومن هذا المنطلق فالتراث بالنسبة لنا نحن الشعب الفلسطيني هوية انتمـــاء لارض وتاريخ وامتداد زمني يتشعب الى عصور تاريخية عريقة ، لا يستطيع احد ان ينكـــر مهمـــا حاول وبذل جهودا خارقه لطمس الحقائق او استبدالها.

ولكن ونتيجة لهذا الصراع الطويل الذي سبقه عصر الاستعمار الاوروبي ، والذي افرز غزوا ثقافيا غريبا ، وفي لحظة ضعف ايديولوجية ، وفقدان ذاكرة انتمائية ، انقطع التواصل ما بين الانسان العربي والفلسطيني بخاصة او كاد وتراثه الحضاري ، او انه فقد الثقة به ، او انه جهله او اخذ يتجاهله جراء المنخفض الثقافي والفكري الذي سيطر عليه والمصحوب بتيارات ثقافية غربية اخذت تتسرب عبر مسامات واقعه الذي فقد مناعته المكتسبة ، ليجـــد نفسه غارقا في "مستنقع ثقافي "استمرأه ، وبذا تحولت الشخصية الوطنية الانتمائيـــة الـــى متلقيه تعاني "المازوشيه الثقافية " في وجه غريب يمارس عليها اقســـى اشـــكال "الســـادية الثقافية" .

وهذه الفترة يمكن ان يطلق عليها عصر الاقتلاع من الجذور والانسلاخ من الجلد ، ولعل اهم مظاهرها .

- ضعف الشخصية الثقافية الوطنية الانتمائية .
- الابتعاد عن التراث الوطني والتخلي عن كثير من مظاهره واهماله والنظر اليه بدونية .
- ركوب موجة التقليد الحضاري والثقافي الغربي الشكلي واعتبارها مظهرا حضاريا .
- سرقة كثير من مظاهر التراث الوطني من قبل اطراف كثيرة وانتحالها على اعتبار انهـــا من نتاجها ، بعد ان اعادت صياغتها بصورة عصرية حديثة .

ومما يلفت النظر في هذه المرحلة تعدد مظاهر التقليد التـــي اصـــبحت مستشـــرية وبخاصة بين الفئات الشبابية ، وتمارس دون ادنى حرج ، وفي كثير من الاحيان ينظر اليها على انها مظهر من مظاهر الرقي ، وتتمثل في موجات الغناء ، والتمثيل والشعر واللبـــاس ومظاهر الافراح ، والتسميات الاجنبية ، والمأكولات الغربية ، والمفـــردات الغربيـــة التـــي تستعمل في الحياة اليومية ، هذا علاوة على الصرعات "الموضات" والســـلوكات الغريبـــة ، وكل هذا يصاحبه جهل او تجاهل او ازدراء للتراث الوطني او بعض مظاهره على اقل تقدير ، والذي يوصف بالتخلف والتأخر والقدم ، وهذا ان دل على شيء فأنما يدل على عدم فهـــم حقيقي لهذا التراث ناجم عن انعدام التوجيه الاسري والتربوي والرسمي والاعلامي لهـــؤلاء الناشئة .

ان التنكر للتراث او جهله او تجاهله او عدم احترامه وتقديره حق قدره كــل ذلــك كفيل بأن يؤدي بالمجتمع للانزلاق الى مخاطر خلخلة الاسس التي يقــوم عليهــا المجتمــع وبالتالي الى فقدان جذوره وثروته الحضارية والثقافية الحقيقية ، اذ ان "الثروة الحضــارية الآنية" التي يلهو بها هي في الحقيقة نتاج سواه وملك غيره ، وزيادة على ذلك فقد تلقاهــا بصورة مشوهة من مصادرها ، واذا استمر الحال على هذا المنوال ، فسوف يــأتي اليــوم الذي يغدو به المجتمع عديم الجذور ، مشكوكا بهويته الانتمائية لأنه محصلة استيلاد مهجن غريب لا يحمل اية صفة من صفات الاصالة .

وقد يكون من الاجدر بنا ان ننوه في ختام هذه الدراسة الــى ان هنــاك مجتمعــات شرقية الجذور قد تخلت ذات يوم عن اصالتها وسارت في ركاب الثقافة الغربية ، قد مضــى عليها سبعة عقود من هذا القرن ، والمحصلة ان هذه المجتمعات لم يعترف بها مــن قبــل سادة الحضارة الغربية ، وظلت منتقصة وينظر اليها بتعال وفوقية ، وثمة نقطة هامة جــدا تتمثل في ان الجذور الشرقية لهذه المجتمعات لم تمت كما خطط لها ، واخذت تستعيد نموها شيئا فشيئا.

ونختتم دراستنا هذه بسؤال يطرح نفسه عن الحل المرجو ، ونأمل ان يكون في هذه التوصيات التي نقترحها والتي نعتقد ان بها ما يمكن ان يعيد امجاد التراث ويحفظه ويعمــل على انقاذه وتطويره منها .

1) قيام بحملة توعية مستمرة مخطط لها ، تسهم بها المؤسسات التربوية العالية ، ومراكز البحوث والدراسات بالاضافة الى المؤسسات الرسمية .

2) تشجيع المجهودات والمبادرات الفردية للبــاحثين والمبــدعين والمهتمــين بــالتراث ، وتخصيص جائزة رسمية تقديرية ومادية لتشجيع هؤلاء علــى الاســتمرار فــي بحــوثهم ودراساتهم .

3) ادخال مادة التراث في المناهج التعليمية ، وجعلها من المســاقات التــي تــدرس فــي الجامعات والكليات ، وذلك بهدف ان تسهم في تكوين الذاكرة الثقافية والتربوية للناشئة .

4) اسهام اجهزة الاعلام المقروءة والمسموعة والمرئية بهذه الحملة التوعوية بما لها من وسائل واساليب ذات قدرات فائقة على الوصول الى المتلقي وابراز الجوانب المشرقة فــي التراث .

5) انشاء المتاحف الخاصة بالتراث الوطني والشعبي والاستعانة بخبرات الاخـــرين الـــذين كانت لهم تجارب ناجحة في هذا المضمار .
6) العمل على توثيق معالم التراث بنشرات ووثائق ومؤلفات وافلام واشرطة تسجيل.
7) واخيرا وليس اخرا انشاء مؤسسة باسم مؤسسة التراث الوطني ، تهدف الـــى رعايـــة التراث والحفاظ عليه وتطوير ما يمكن تطويره ، واطلاع الجماهير على امجـــاده وجوانبـــه المشرقة .

ولعلنا بهذا نكون قد ساهمنا في الحفاظ على تراثنا الذي هو بمثابة جذورنا الممتـــدة في اعماق تاريخ هذا الوطن وترابه ، وكان في يدنا هوية اصالة وانتماء ، وكان لنا حجـــة دامغة في حق لا يقبل التأويل ، ومجد لا تدنو منه الشكوك ولا الريب ، وعطاء خيّر ســـاهم في صرح الحضارة الانسانية.

عن المسرح السياسي

بادئ ذي بدء نود ان نطرح تفسيرنا لمفهوم المسرح السياسي الذي نحن بصـــدده . فنحن نقصد به هنا فن التمثيل المسرحي من منظور جمــاهيري والــذي يوظــف القضــايا والمشكلات السياسية الداخلية منها والخارجية مارا اضافة الى ما ذكر بمجمــل السياســات الاقتصادية والاجتماعية سواء تلك المعلنة منها او تلك التي تدور وراء كواليس السياسة او تلك التي تدركها الجماهير بفهمها الخاص وتضعها في قالــب فهمهــا الصــحيح دون لــف ودوران واماطة اللثام عن خباياها وتشريحها وتعريتها من كل ما تتجمل به ويستر عوراتها ، ويتناولها هذا الفن بالنقد اللاذع والعبارات الساخرة ، . ولسنا هنا نهدف تقيــيم الاعمــال المسرحية باعتبارها فنا يخضع لمدارس النقد الفنية او الادبية ، ذلك انها فــي كثيــر مــن الاحيان لا تخضع لمقاييس او معايير متعارف عليها بقدر ما هي محكومة لعواطف الجماهير التي تعايش الاحداث الحقيقية وتكتوي بجمرها . ولكنها بنفس الوقت لا تراها على حقيقتها الا من خلال مجاهر هذا الفن المسرحي الاقدر على اعادة وضع النقاط المغيبة على حروف ابجديتها .

في اعتقادنا ان المسرح السياسي في الوطن العربي ظاهرة فنية اخذت تتبلور غداة ما افرزته حرب حزيران عام 1967 من نتائج خطيرة على الساحة العربية كشفت الكثير من الخلل في البنى السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية واســاليب انظمــة الحكــم ، وبالتالي مجمل المسار التفكيري الذي تحكمت به الذهنية العربية التي كانت سائدة آنــذاك . وهذا بطبيعة الحال يجرنا الى الوقوف عند الاسباب الحقيقية التي ساهمت في صنع الهزيمة التي لم تحاول الانظمة السياسية العربية المعنية ان تتطرق اليها والتفــت عليهــا او انهــا بررتها كعادتها بما لا يقنع الفئة الواعية من الجماهير او حتى ما دونهــا . وعلــى خلفيــة انعدام ابسط اشكال الحرية والحد الادنى من الديموقراطية والمساواة والافتقار الى منظومــة حقوق الانسان وبخاصة حرية إبداء الرأي والنقد والحرمان من صنع القرار ، كان لابــد ان يكون هناك "صمام أمان" للتنفيس والترويح ، فكان هذا الشكل من الفن المسرحي التمثيلي ، وهو هنا يأتي تطويرا في كل الاتجاهات الرأسية والأفقية لكثير من الامثال الشعبية الهادفــة وللنكتة التي كانت سابقا هي المتنفس الوحيد (وفشة الخلق) لحالتي القهر والاحباط اللتــين كانتا سائدتين وما زالتا . ذلك انه مع كل نكتة صوتية او حركية وحركة نقد مصورة كانــت هناك ضحكة من الاعماق تخرج معها حسرة او هما ، وتلمس جرحا قد لا ينــدمل وربمــا

يتسع على الاغلب ، لا انها رغم كل ذلك ليست وسيلة لشفاء حالات مستعصية او انها تحقق رغبات مكبوتة بقدر ما هي تفتح العيون على الواقع المرير مع ان القالب فكاهي ساخر او رمزي غير ضارب في آفاق التهويم ، الا انه يضرب على الوتر الحساس الكامن في جوارح المشاهدين من الجماهير العريضة ويحرك كوامن وعيها ولا وعيها في اتجاه المسار الصحيح للحقيقة المرة داخل النفق الطويل الذي يرى منه بصيص النور ولو عن بعد بعيد .

ومن خلال استعراضنا لمجمل الاعمال المسرحية السياسية نستطيع القول ان المسرح السياسي العربي قد وضع يده على كل العلات التي يعانيها الوطن العربي وبخاصة المواطن العربي في كل المجالات التي تهمه ، ويمكن القول بانها كانت عاملا توعويا خطيرا له ، فمن خلال مشاهداته ادرك هذا المواطن ما يفتقر اليه من حرية وديموقراطية ومساواة ومن حرمانه من ابسط حقوقه في التعبير عن الرأي او من غائلة الفقر والمرض والجهل هذا الثالوث الرهيب الذي يلاحقه رغم ما يتمتع به وطنه من خيرات ومصادر ، واصبح من خلالها يعرف اين تذهب هذه الخيرات وفي جيوب من تصب وكيف تصرف وعلى من . واصبح يعرف حقيقة "الاستقلال والسيادة" التي تتغنى بها كثير من الانظمة العربية ، واصبح يعرف الكثير الكثير من وسائل الخداع والتدليس وغسل الادمغة وحذف الحقائق او طمسها او وسائل الزيادة او النقصان . كما انه اصبح مطلعا على اساليب الحكم والتمسك بالكراسي والمناصب ، ووسائل الاقتراع ونسبها المئوية ، واصبح يعرف حقيقة حب الجماهير والتفافها حول القيادات التي ما فتئت تتغنى بذلك وتعلنه في وسائل اعلامها . وباختصار لقد كان هذا المسرح السياسي مدرسة جماهيرية التحق بها الصغار والكبار ، والمثقفون والعاديون ، واستطاعت ان توحد المشاهدة وعلى الاغلب انها وحدت الاستنتاج والرؤيا .

وهنا نود ان نشير الى اننا لا نعرف كل تفاصيل حكاية هذا المسرح مع "الرقيب الحكومي" الا انه من المؤكد ان له حكايات وحكايات معه ، ولكن ما يعنينا هنا ان الانظمة السياسية ربما تكون صحت وادركت اهمية هذا المسرح ومدى خطورته وقدرته على قياس نبض الشارع الجماهيري وحتى التأثير على اتجاهات الرأي فيه ، وربما تكون قد توصلت الى قناعات ان تستخدمه هي الاخرى كسلاح يدافع عن أهدافها وسياساتها بهدف تبييضها وتلميعها واعطاء صورة مشرقة عنها . لقد سمحت الانظمة السياسية في كثير من الاقطار العربية للمسرح السياسي ولا نشك في انها ومن وراء الكواليس ربما اخذت تضخ لبعض فرقه وتشجعها بهدف تحويله الى علكة جماهيرية مهدئة ماصة للنقمة والتذمر من جهة ،

ولكي تبرز واجهة ما تسميه من منظورها ديموقراطية وحرية نقد ورأي وتعبير تتمتع بهـــا جماهيرها .

ثمة محاذير لابد من الاشارة اليها ، فان اخطر ما يمكن ان يتعرض له فن المســـرح السياسي الذي بدأ طريقه عفويا وقريبا من قلوب الجماهير ومحركـــا لعواطفهـــا ، هـــو ان يصبح هذا المسرح هدفا في حد ذاته لا غاية لتحقيق هدف اسمى قام اصلا علـــى شـــرفه . وثمة خطر اخر من ان يجير هذا الفن الى من يفترض انه يستهدفهم فيصبحوا سلاحا فـــي ايديهم بدل ان يكون مسلطا عليهم ، وثمة خطر اخر يتمثل في التكرار والتكلـــف والمبالغـــة والتضخيم او التركيز على نقاط والابتعاد عن اخرى . ولكن اخطر هذه المحاذير ان يتحـــول هذا الفن الى مجرد تقليد سطحي مضحك لشخصيات سياسية او لمواقف او سياسات معينة . هنا يفقد هذا الفن ماهيته.

وخلاصة القل ان ما تتوق اليه الجماهير من فن المسرح السياسي ان يكون خالصـــا لوجه الحقيقة ، وموعيا لها وموسعا رقعة حرية التعبير عن الرأي ، جاعلا هـــذه الحريـــة خبزا يوميا ، لا مجرد مواقف مضحكة ينتهي مفعولها بانتهاء المشاهدة . لكننا هنـــا نصـــر على ان هذا المسرح ليس بديلا لاية فعاليات اخرى تســـتهدف تغييـــر مســـارات الانظمـــة السياسية وممارساتها .

الأغنية الحديثة .. انتكاسة ثقافية

قبل ان نخوض غمار حيثيات موضوعنا ، نود ان نستهل حديثنا بمقدمة عن الغناء الذي يمكن تعريفه على انه احد الابداعات الفنية الاكثر التصاقا ومعايشة وملامسة للمشاعر والاحاسيس الانسانية ، وبالتالي تأثيرا بها وتحكما في مساراتها . فالغناء هو الاقدر على تلوينها بالفرح والطرب الى حدود النشوة والتجلي ، والحزن والكآبة حتى البكاء وذرف الدموع . وهو قبل كل اعتبار واحد من المخرجات الثقافية لأية جماعة انسانية يعكس روحها وحسها ومزاجها ومدى شفافيتها وتجاوبها مع البيئة التي تعيش في كنفها ، وبالتالي درجة تأثيرها وتأثرها بها .

والاغنية أيا كانت هي وليدة اربعة عناصر رئيسة تتمثل في كلماتها ولحنها وادائها وتلقيها . وهي عناصر تتداخل مع بعضها لتحدد في النهاية مدى صدقها وثباتها وامكانية نجاحها وقدرتها على التواصل مع الأجيال ، ويمكننا ان نضيف اليها عنصرا خامسا هو روحها الوليدة من رحم ثقافة تنتمي اليها وتصبح جزءا لا يتجزأ منها . وقديما عرف العرب الغناء الذي كان عندهم قرين الشعر العربي الأصيل الأمر الذي جعل منه فنا مقبولا ومرغوبا فيه . وقد ذكر لنا تاريخ الأدب العربي كثيرا من القصائد والابيات الشعرية التي غنتها الجواري والقيان آنذاك . الا انه مع الأيام وجراء التقهقر الثقافي وبخاصة في مجال اللغة العربية ، برزت الاغنية ذات الكلمات العامية والتي اصبح لها "شعراء خاصون" بها ، وهي بالتالي اشكال والوان منها الغث ومنها السمين ، وتتناول في العادة موضوعات شتى في الحب والغزل والتغني في الوطن وامجاده وغير ذلك الكثير . وايا كانت هذه الاغنية فقد كانت لها شخصيتها الفنية وهويتها الانتمائية وروحها الشرقية وخصوصيتها ولونها ومذاقها العربي الشرقي الاصيل . ولسنا هنا بصدد تناول اشكالها او جوانبها الفنية الاخرى ، ولا نهدف الى ان نستعرض شيئا من تاريخها .

وعلى اعتبار ان الاغنية اصبحت تحتل مساحة متنامية من اوقاتنا وتذوقنا ورفاهيتنا وترويحنا وحياتنا بشكل عام ، فيهمنا ان تظل تخضع لمواصفات ومقاييس تحت مظلة ثقافية وطنية قومية . الا ان الرؤية شيء والواقع شيء آخر . فموجة الغناء الحديث المتلفزاو ما يسمى بالاغنية الشبابية والتي يطلق عليها المصطلح الغربي "فيديو كليب" ، اضافت عنصرا

اخر للاغنية طغى على كل العناصر الآنفة الذكر يتمثل في التقنيات الحديثة والخلفيات المصورة التي تتشكل بمجموعها من مرافقين ومرافقات للمغني او المغنية في اطار اجواء ثقافية وجغرافيات مختلفة لا تمت في الغالب بصلة الى ثقافة الوطن العربي ، كما يلاحظ انها سواء بقصد او بغير قصد آخذة في التسلل الى ذاكرة ابنائه الثقافية عاملة على تدمير موروثه الثقافي الشامل ليحل محله مستورد ثقافي اجنبي يعامل على انه يتماشى وروح العصر والحضارة والتمدن وينظر اليه نظرة اكبار واجلال على حساب النظرة الدونية للموروث الثقافي الوطني القومي .

ولكي ننتقل من العموميات والتجريد الى الملموس والمحسوس ، فاننا لا نجد ضيرا في اعطاء امثلة على سبيل التذكير لا الحصر . ان كثيرا من اغاني "الفيديو كليب" العربية الانتاج هذه تصور في عواصم اجنبية وليس لكلماتها ولا لألحانها علاقة حقيقية بهذه الامكنة غير ما يمكن ان يشتم من توهم البعض انها تكسبها "العالمية " وتضفي عليها مسحة من "الرقي الحضاري" ، ويمنحها تأشيرة دخول الى اذواقنا . ولا يقف الأمر عند هذا الحد فنلاحظ ان معظم هذه الأغاني تعتمد على آلات موسيقية غربية كالقيثار الاسباني على سبيل المثال ، كما اننا نشاهد الفريق المرافق "الكورس " وهو في الغالب يرتدي ملابس اوروبية تاريخية ذات علاقة ببلاطات اباطرة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، او ان هذا الفريق يرتدي ملابس حديثة وقبعات لرجال اعمال غربيين او رعاة ابقار ، او انه يؤدي رقصات تارة اسبانية ومكسيكية ، وتارة اخرى هندية ، وثالثة امام معابد بوذية في تايلاند ، ورابعة في غابات افريقيا السوداء ، او انه يسوق الدراجات النارية بملابس جلدية ضيقة عارية الذراعين محلاة بأساور وعقود وسلاسل . وبطبيعة الحال لن نتطرق هنا الى ما يمكن ان يوصف بكلماتها الهابطة المستوى ، او اعتمادها على عناصر اثارة نسائية جريئة في ملابسها وحركاتها .

في اعتقادنا ان سكوت الجهات العربية المعنية عن هذه الظاهرة ادى الى تفشيها واستفحالها عبر الشاشات الصغيرة التي تشكل اهم متنفس ثقافي للمواطن العربي وبخاصة الاجيال الشابة في عصر ضعفت فيه القراءة ووسائل الحصول على مصادر الثقافة الاخرى . واذا ما اضيفت الى هذه الظاهرة المستوردة ظاهرة اخرى كالتسميات باللغات الاجنبية ، واعتماد اساليب نظم الشعر بالاسلوب الغربي وانتهاج اساليب النقد الادبي الغربي وتكريسها مرجعية رئيسة ، فان هذا في اعتقادنا تشكل انتكاسة ثقافية قد تكون نجمت عن فراغ ثقافي

او فهم خاطئ للثقافة والحضارة والرقي وبالتالي فقدان الثقة بالـذات والمـوروث الثقـافي والتوظيف الخاطئ لحرية استيراد القوالب الثقافية الاجنبية وفرضها على المواطن العربـي بتسويقها عبر شاشات التلفزة العربية وترويج اتجاهات ايجابية لها لديه وهو في الحقيقة لا يملك جهاز مناعة تربويا لحماية نفسه منها .

وخلاصة القول ان الغناء لم يعد مزاجا فرديا ، ويفترض به ان ينبع من ثقافة الوطن وان يعمل على توطيد اسس هذه الثقافة والحفاظ عليها . وهناك قضايا وطنيـة اجتماعيـة نضالية وانسانية لا ينبغي الالتفاف عليها فـي معتـرك هـذا الـنمط مـن الغنـاء الاخـذ بالانتشار.ويفترض بالفن وبخاصة الغناء ان ينطلق من ثقافة محلية وان يصور أدق دقائقها ذلك انه الاخطر في التأثير . ولقد نحت الأغنية الحديثة منحى ثقافيا غير محلي أصـيل ولا قومي ، ولجأت الى استعارة القوالب الثقافية الغريبة عن الواقع العربي ، وهي بالتالي تقوم بعملية ترقيع ثقافية مشوه بذلك مساحة مرموقة من الثقافة العربية ، او انها مهمشة اياها . اضافة الى انها تكريس "لعلوية الثقافة الغربية ودونية الثقافة الوطنية القوميـة" . ونحـن نفترض ان تكون هناك مقاييس ومواصفات ثقافية وطنية وقومية لكثير من الفعاليات الفنية وفي مقدمتها فن الغناء بدعم واشراف من كل الجهات التي تهمها اصالة الثقافـة وثقافـة الأصالة.

ظاهرة المسلسلات المكسيكية

أصبحت المسلسلات المكسيكية الدرامية الناطقة باللغة العربية "المدبلجة" ظاهرة متكررة جسدتها قنوات فضائية وارضية ومحلية عربية عديدة تدخل البيوت العربية وتستقطب حولها مشاهدين ومشاهدات من كل الفئات العمرية والشرائح الثقافية والاجتماعية المختلفة . ومنذ ان بدأ البث الفضائي العربي ، فقد لوحظ انه ما من مسلسل مكسيكي درامي ينتهي الا ويتبعه آخر ، وان ما لا يقل عن عشر قنوات فضائية عربية تبث بصورة دائمة مثل هذه المسلسلات التي اصبحت على ما يبدو جزءا لا يتجزأ من خططها البرامجية .

وقبل الخوض في هذه المسلسلات نورد هنا على سبيل التذكير ان المكسيك هي دولة تقع في اميركا الشمالية ، وهي من مجموعة دول اميركا اللاتينية ، وتصنف بانها دولة نامية من دول العالم الثالث ، واهلوها خليط من السكان الاصليين والغزاة الاسبان الذين استوطنوها وحكموها الى ان استقلت عن اسبانيا . وجذورها الثقافية وكذلك اللغة الدارجة فيها اسبانية وهي اللغة الاصلية لهذه المسلسلات التي اصبحت ناطقة بالعربية .

والحقيقة التي نود ان نستهل بها حديثنا في هذا الصدد ، انه ما من حائل يحول دون اطلاع المواطن العربي على ما لدى الآخرين من فعاليات ثقافية وابداعية سواء كان ذلك رواية او مسرحا او شعرا او اية فنون اخرى . ولكن وبطبيعة الحال فانه يفترض ان تكون هناك معايير واسس وتحفظات لاختيار مثل هذه الفعاليات ، لا ان يترك حبلها على غاربه ، ولا ان تكون خاضعة فقط لمزاجات من يختارونها واهوائهم ، الامر الذي يحتم ان تكون هناك جهة او هيئة مختارة تمثل شرائح ثقافية واجتماعية وتربوية وفنية مختلفة يناط بها مهام الاختيار على اسس يفترض ان لا تتناقض واتجاهات القيم العامة السائدة في المجتمع العربي، ولا ان تخرج عن الاطارين القومي والايديولوجي لمجمل الثقافة العربية التي هي بطبيعتها محافظة . وثمة معايير اخرى تتمثل في ضرورة ان يكون هناك توزيع جغرافي متوازن للفعاليات الثقافية الابداعية المستوردة التي يتم اختيارها ، بمعنى عدم الاقتصار على جهة ما او ثقافة ما دون غيرها . وثمة تحفظات اخرى تخص عدم اعتماد عامل الربحية كأساس في الاختيار .لكن اهم تحفظ هنا يتمثل في ان لا تطغى هذه الفعاليات بمجموعها على الانتاجين المحلي والعربي .

وعودة الى المسلسلات المكسيكية لنتساءل ويتساءل معنا الكثيرون الغيورون علـــى الثقافة القومية بموروثها الأصيل ومعاصرها ، والمحافظون عليها من خطر مزاحمة الثقافات الاخرى وتراجعها القهقرى الى الصفوف الخلفية ، وافراد مكان الصدارة "للقـــادم الغريـــب". والاسئلة كثيرة في هذا الصدد يتصدرها تساؤل حول دواعي التركيز الى درجـــة الاختصـــار على المسلسلات المكسيكية دون سواها . اليس هناك ثقافات اخرى لها ابـــداعاتها يتشـــوق المواطن العربي للاطلاع عليها ؟ الا تشكل الابداعات الصينية واليابانية والكورية والافريقية غير العربية على سبيل المثال حلقة مفقودة بالنسبة لهذا المواطن الذي فرضـــت عليـــه ولا تزال ابداعات معينة لها اهدافها ومراميها التي لم تعد خافية على كل ذي بصر وبصـــيرة ، منذ ان كان هناك استعمار ثقافي ؟ وتخصيصا فهل موضوعات الحب والغرام والكيد للعشاق وتحقير الناس على خلفية فقرهم ، والسذاجة المتناهية في الانتقال المفاجىء من الفقر الـــى الغنى ومن القبح الى الجمال ، ومن البدائية الى الرقـــي الحضـــاري والعكـــس صـــحيح ، والصدف الأغرب من الخيال والتي لا توجد الا في مثل هذه المسلسلات – وهذه هي السمة الغالبة على فحوى هذه المسلسلات – نتساءل هل هذا فعل فقط ما ينقص المشاهد العربـــي وما يبحث عنه على الدوام ؟ الا تشتم من تكرار عرض مثل هذه المسلسلات رائحة الربحية من جهة ، والمساهمة في الهاء المواطن العربي عن قضايا اخرى خطيرة تتعرض لها امته العربية من محيطها الى خليجها ؟ . في اعتقادنا ان هذه الاسئلة وغيرها الكثير اما انها لا تحظى بالرد المناسب عليها ، او انها ستظل دون اجابة عنها لافتقار الجهات الموجهة اليها الى الحجة والتبرير ، او انها على الارجح ستظل في اطار غايات نفوس مروجيها .

ان الازمة الثقافية التي تعصف بالوطن العربي وتستفحل يوما بعد يوم اشمل واخطر من كونها تقف عند استيراد المسلسلات الاجنبية ايا كان منشأها وهـــذه مجـــرد عينـــة . فالوطن العربي يكابد امراضا ثقافية خطيرة نجمت اصلا عن انهيار جهاز المناعة الانتمائي ، اعقبه حالة من الفراغ الثقافي سمحت لكل ما هب ودب من الثقافات ان تهب عليـــه تحـــت ظلال غيبوبة كثير من الجهات التي يفترض ان تكون حارسا امينا علـــى اصـــالة الثقافـــة العربية ، وخفيرا يقظا في وجه هذه التيارات القادمة من كل حدب وصوب والتي يتنـــاقض الكثير منها مع اسس قيم الثقافة العربية ، وبخاصة افرازات تحديات العولمة وهيمنتها على مقدرات الشعوب مستهدفة اجتثاث معالم تميزها وخصوصيتها وتفردها ، وبالتـــالي تغييـــر خارطة مفاهيمها وقيمها وانتماءاتها ، ومنها بطبيعة الحال الشعوب العربية التي تتعـــرض

لكل هذا ، وفي كثير من الأحيان على ايدي شرائح مثقفة من ابنائها انساقوا وراء اوهام مجاراة روح العصر والانطلاق الى العالمية بالتخلص من مجمل الموروث الثقافي العربي الذي الصقوا به صفات التخلف والتحجر . وفي هذا الصدد فان الهموم الثقافية العربية كثيرة ، ولكن اخطرها على الاطلاق يتمثل في عدم الثقة بالنفس ، والايمان المطلق بالآخر الى درجة الذوبان فيه واتخاذ ابيضه واسوده مرجعية نهائية تحمل صفة القداسة .

وخلاصة القول ان اغراق الوطن العربي بالثقافات الاجنبية على حساب الثقافة العربية خطأ فادح بحق مقدرات الأمة وخطيئة لا تغتفر. والمطلوب ان تكون هناك استراتيجية ثقافية قائمة على معايير قومية وايديولوجية تحول دون هذا الافراط والتفريط ، وتعمل على تفعيل كل الجهود لتطوير آليات ومؤسسات وقوى بشرية تأخذ على عاتقها مهام الحفاظ على الجذور الثقافية موروثها الأصيل ومعاصرها والانطلاق بها بهدف اضافة اضاءات دائمة في سماء فضاءاتها، حتى يتكون وعي ثقافي عربي ، ويتطور حس انتمائي للوطن والارض والتاريخ والتراث غير قابل للاختراق . وقديما قال الحكماء ان طعام الغرباء لا يشبع ، وان الاثواب المستعارة تظل تفتقر الى الدفء ، وكذلك ثقافة الآخرين قد تكون فيها بعض المتعة والفائدة ولكنها تظل غريبة الوجه واليد واللسان .

عـــيـــد الـــحب

اذا كان عيد الحب الذي يصادف اليوم الرابع عشر من شباط تقليدا متبعا في كثيـــر من الاقطار الغربية ، وهو بطبيعة الحال مظهر من مظاهر الثقافة الغربية .... فـــان الحـــب بذاته ليس مقصورا على اناس دون سواهم .

فالحب عاطفة إنسانية من اسمى العواطف وانبلها اودعها الله قلوب البشـــر دون ان يفرق بينهم .

لكن اعتادت اقطار دون اخرى ، وشعوب دون سواها ان تخصص للحب يوما يحتفل به المحبون من خلال اظهار عواطفهم ومشاعرهم نحو احبائهم ومحبيهم ، فيتهادون بباقات الازهار والهدايا الاخرى ويخطون بطاقات يسكبون عليها ارق كلماتهم واعذبها شعرا كانـــت ام نثرا . وبهذا يتحقق للانسان حرية للتعبير عن مشاعره واحساساته دونما ادنى كبـــت او قهر .

واذا كان هذا اليوم غير معروف او متعارف عليه في كثير من بلدان الشرق الاوسط ، فليس ذلك لان شعوب هذه المنطقة لا تقدر للحب قيمة او انها لا تهتم به ، ولكن وبحسب اعتقادنا كانت هذه الشعوب غارقة وما زالت في اهتمامات البنية التحتية من متطلبات حياتها الانسانية ونعني بذلك معركتها المتواصلة من اجل تحررها وسيادتها وتحقيق حد معقول من الديموقراطية والحرية والمساواة ، ناهيك عن معركتها الاساسية لتحقيـــق الامـــن الغـــذائي والصحي والتربوي .

وعودة الى ذاكرتنا الثقافية التي تجتزن كنزا لا يفنى من مشاعر الحب اثرت ادبنـــا نثره وشعره على مدى عصوره ، وجنحت اشواق شعرائنا باسمى المشاعر وارقها ، حيـــث ما زال الحب يتواصل عبر الازمان من شاعر الى شاعر ومن قصيدة الى قصيدة ومن رواية الى اخرى .

ان للحب في حياتنا مساحة شاسعة في احاسيسنا ، ولكن ما ينقصه هو اطار تنتظم فيه كل هذه الاحاسيس والعواطف الجياشة . فليكن هذا الاطار هو يوما للحب تتصافى فيه القلوب والمشاعر وتتآلف ، ويجدد ما يمكن ان يكون قد تقادم الزمان عليه ، او يجلو ما اعتراه من صدأ الايام والليالي ، وليعبر فيه كل انسان عما يجيش في صدره من احاسيس ، كل بطريقته واسلوبه .

ونحن بهذا لا نستهدف تقليد الاخرين ، فنحن لنا ثقافتنا وتقاليدنا ونهجنا في الحياة ، وبامكاننا ان نلون خريطة اعيادنا كما يحلو لنا .

ما احوج الانسانية كلها الى يوم حب وما أحوجنا نحن الى هذا اليوم بكل ابعاده واعماقه ، لقد جلبت لنا التكنولوجيا والحضارة المادية فراغا روحيا ، وهيأت لنا عالما جليدي الاحاسيس والمشاعر ، فكثرت مشكلاتنا النفسية والاجتماعية ، واصبح العنف والقسوة هما طابعي هذا العصر ، حتى ان اعياد الحب في بلدانها طالتها براثن المادية هي الاخرى فاصبحت مواسم لتسويق البضائع والمنتجات والترويج لها ، ففقدت بذلك جزءا من عفويتها وبساطتها وحرارتها ومغزاها ، وكادت تصبح مجرد يوم مبهرج ليس الا .

لكننا نحن بحاجة الى يوم حب حقيقي واكثر ، فالحب ليس مقصورا على يوم واحد دون بقية الايام ولا اناس دون الاخرين ، ذلك ان الحب ليس له وطن معين ولا عنوان ، انه عطية الله للانسان على مر الازمان ، فلنقدر هذه العطية ولنجلها ، لعلنا نرتفع بانفسنا الى منزلة اسمى واعلى باعتبارنا بشرا حضاريين ، ولعلنا نقضي على هذه السنوات العجاف التي تحياها البشرية ونحياها نحن والتي لم يعد لها طعم الحياة ولا لونها ولا رائحتها .

ونحن في فلسطين خبرنا كل انواع الحب .. حبنا للوطن ، للارض .. للحبيب .. وللحبيبه ، وخبرنا كل اشكال التضحيات التي هي محك الحب الحقيقي .

ونحن في فلسطين ايضا نجاهر بمشاعر الحب التي نختزنها في اعماقنا ، ونفخر بها ، ولا يعترينا الشعور بالخجل من اشهارها على الملأ ، واذا كان لنا ما يجب ان نخفيه او نكبته او نتخلص منه نهائيا ، فلتكن مشاعر الكراهية والحقد . اما الحب فهو تاج على رؤوس المحبين والاحباء .

فليكن الحب نسيج حياتنا .... وليكن مشوارنا في هذه الحياة ... فالحيـــاة تنتهـــي لحظة رحيل الحب عنها ، ويصبح الانسان تمثالا لا روح . فلتخفق قلوبنا بالحب دائما وابدا للوطن .. للارض .. للحبيب .. وللحبيبة . وليكن كل يوم من ايامنا عيدا للحب .

الرأي .. والرأي الآخر

❋) وصفت التربية العربية ولا تزال بانها نمط تربوي سلطوي يعتمد اساسا علــى فــرض الرأي ولا يفسح مجالا للرأي الآخر ، بل ويقف منه موقفا معاديا في كثير مــن الاحيــان . وعلى هذه الخلفية فان الانسان العربي – وهو بطبيعة الحال نتاج هذه التربيــة – لا يعيــر الرأي الآخر وزنا ولا اهتماما ، وبمعنى اكثر تحديدا فان المساحة المخصصة للرأي الآخــر في مجمل فعاليات تفكير الانسان العربي ضيقة للغاية كونها اساسا لم تشكل عنصــرا مــن عناصر تنشئته الأسرية او تربيته المدرسية ، وبالتالي مسيرته المجتمعية . ويرجع الــذين يقفون وراء هذا الادعاء هذه الظاهرة السلوكية الى عدة اسباب تتصدرها طبيعــة التنشــئة الأسرية تحت ظلال "السيطرة الأبوية " التي تمنح الأب حق التفكير وابداء الرأي وحق رفض مناقشته كون هذا الحق يشكل اساسا من بنية رجولته وسيادته على الأسرة . وثمة ســبب آخر يخص الأسرة العربية التي تنتمي الى فصيلة مجتمع يسوده الكبار ويسوسونه ، وليس للابناء الذين ينظر اليهم في العادة على انهم "اولاد "مهما تقدم بهم السن حق ابداء الرأي او الاعتراض حيث يفسر في احيان كثيرة انه خروج على العرف والعــادة واصــول التربيــة وتجاوز لما هو مسموح في اطارها يصل الى حد "الوقاحة والتمرد او العقوق ". واذا كانــت الأسرة هي حجر الاساس التربوي فان المؤسسات التعليمية بكــل مراحلهــا ومــن خــلال مناهجها لا تفسح هي الأخرى مجالا لمنتسبيها في ابداء الرأي . فهي والحال هــذه نهجــا ومنهاجا تربية تلقينية . وتكمل الحياة الاقتصادية والسياسية في الوطن العربي اغلاق دائرة التربية العربية كونها اصلا تفتقر الى ابسط قواعد الديموقراطية واحترام التفكير المستقل او التعايش معه او السماح له بان ينمو ويترعرع ، وتحاول على الــدوام ان تقمعــه بشــتى الوسائل .

❋) في ظل هذه الاجواء تتشكل شخصية الانسان العربي الذي يعــاني ضــعفا فــي حاســة الاستماع الى الآخر ، ذلك ان مثله الأعلى وقدوته هما ذلك الأب المتسلط الذي ورث طباعه وسلوكاته وكذلك مدرسه الذي طبعه ببصمات ممارساته التلقينية ، وهو لا ينسى ايضا اوامر رئيسه في العمل ونواهيه . وبين هذا وذلك يظل الساسة الحاكمون بأمرهم الظل الظليل الذي يتفيأه ، والهواء الذي يتنفسه حتى النهاية .

❋) ولم يكن الاعلام العربي بكل اشكاله المرئية والمقروءة والمسموعة الا انعكاســا لهــذا المنهج التربوي . فساهم في تجسيد هذه الظاهرة كونه كان يطرح وجهة نظر واحــدة فــي

كثير من الاحيان بشأن قضية او اخرى ويتجاهل اية آراء معاكسة للرأي السائد والقائم في ما يخص الكثير من القضايا الهامة وحتى المصيرية . وهذا الرأي بطبيعة الحال هو الصادر عن الأنظمة السياسية او الجهات المجتمعية المتنفذة وتتبناه وترعاه وتدافع عنه عبر قنوات وجهات ملاصقة لها وتدور حولها . ومن طبيعتها انها تضيق ذرعا بالرأي الآخر وتعتبره معاديا لها وفي كثير من الأحيان توجه له تهمة الخروج على الصف اوان وراءه جهات او تيارات مشبوهة .

❋) وفي سنوات العقد الأخير من القرن المنصرم بدأت بعض القنوات الفضائية العربية بالذات – باعتبار ان الاعلام المرئي هو الوسيلة الأكثر شيوعا وتأثيرا في تكوين الاتجاهات او تغييرها – بتخصيص برامج لا تنطلق من رأي واحد وانما اكثر من ذلك . وهذه البرامج تتناول المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية والأدبية ، وهي مجالات تهم كلا من الوطن العربي بعامة والمواطن العربي بخاصة. الا ان تزاحم الاراء وتدافعها وتداخلها بالتالي قد تكون في هذه المرحلة قد شوشت المواطن العربي الى درجة بدأ عندها يتأرجح بين الشك واليقين الامر الذي يخشى معه انه لم يعد يقف على ارض صلبة تجاه كثير من القضايا .

❋) وبهدف ان لا يختلط الحابل بالنابل ، وحتى لا تضيع الحقيقة ويسود الشك بدل اليقين ، فلا يعني الرأي الآخر بأي شكل من الاشكال افساح مجال للاصوات المعادية اصلا كي تصبح ندا يتمتع بالشرعية ويتطاول على ما لا ينبغي ان يتطاول عليه . ويفترض ان يكون هناك معايير وحدود وحتى محاذير لكل الآراء الاخرى . وكمقدمة فلا يعني الرأي الآخر اختراقا لقداسة الرأي السائد او احترامه ، كما لا ينبغي له ان يحمل طابع الردة او التشكيك وبخاصة في مجالات التراث والقيم والتقاليد وفلسفة المجتمع السائدة . كما انه لا ينبغي لأصحابه ان يكونوا مسوقين لتيارات فكرية مستوردة من الخارج وبخاصة ان ثمة حملة واسعة النطاق هدفها الظاهر التحديث ومعايشة روح العصر ، ولكنها في كثير من الاحيان تختبىء خلف نوايا شريرة هدفها زرع بذور الشك في مجمل الثقافة العربية الاسلامية وزعزعة الثقة بها ، وبالتالي التمهيد لاحلال ثقافات اخرى مكانها تعمل على تسطيح العقلية العربية وفكفكة مواقف الانسان العربي وثوابته وافقاده كل عناصر المناعة الانتمائية التي ميزته طوال عصور الحضارة ، بهدف جعله مجرد انسان عديم التفكير متلق استهلاكي مقطوع الصلات والروابط بماضيه المجيد . وهي اهداف بدأها الاستعمار بكل اشكاله ، وتتبناها العولمة المعاصرة باعتبارها وريثة كل شروره وخطاياه وتجاوزاته ضد الانسانية .

*) وخلاصة القول ان الرأي الآخر هو بمثابة اضاءة باهرة في فضاءات الفكر والتفكير العربيين المعاصريين ، ونقلة نوعية نحو آفاق جديدة ، وتجسيد لأسس الديموقراطية التي تقوم اساسا على التعددية في الرأي والرؤيا واتجاهات التفكير في ظل اجواء من التفاهم والاحترام المتبادل . وهو ما كان ينقص المواطن العربي ان يسمعه علانية او ان يعايشه كيما تصبح لديه القابلية لسماعه والاستقرار في وجدانه واحترامه دون الالتزام بالعمل به على اقل تقدير . والرأي أيا كان هو نتاج تفكير لا ينمو ولا يؤتي اكله الا في ظل مناخات تشكل الحرية والمساواة بنيتها الاساسية . ويفترض به ان يكون من الرحابة واتساع الافق وبعد النظر بحيث يستطيع ان يتعايش مع الاراء الاخرى على قاعدة من الاحترام المتبادل بعيدا عن اجواء القمع والالغاء والطمس والتعتيم . واما الرأي الاخر فلا ينبغي له ان يكون تشكيكا بانتماءات قومية او التفافا عليها او تسويقا لفكر مستورد . وما لم يكن يحمل في ثناياه بذور الانتماء ، فانه يصبح العبث والهدم ليس الا .

الكفاءآت العربية المهاجرة

❋) تثير جائزة نوبل للكيمياء التي حصدها العالم العربي المصري الأصل المغترب مؤخرا العديد من الملاحظات ذات العلاقة بالواقع العلمي ومجمل السياسات التعليمية التعلمية في الوطن العربي . وحري بنا في مستهل حديثنا ان نثمن عاليا وغاليا هذا الانجاز الذي ولد في كل مواطن عربي مشاعر الاعتزاز والفخار القومية والتي انطلقت من حقيقة ان العقلية العربية ليست قاصرة ان تصل الى اعلى مراتب التطور العلمي والابداع في ما لو اتيحت لها الظروف المتاحة لغيرها . واذا كانت هناك من شائبة ما اثارت الشجون والاشجان في النفوس ، فهي بلا شك امنية كل عربي لو ان هذا الانجاز العلمي قد تحقق داخل الوطن العربي ونال التكريم العربي المفترض ان يستحقه .

❋) وتأتي اولى الملاحظات وهي تخص التوجه الذي ابدته جامعة الدول العربية بضرورة "اقتحام ملف الكفاءات العربية المهاجرة للاستفادة منها في تطوير الوطن العربي وهو على اعتاب الألفية الثالثة" . – وقد قدرت الجامعة هذه الكفاءات في آخر احصاء لها بمليون عالم عربي في شتى اصناف العلوم . – وهو توجه – وان كان متأخرا – الا انه في اعتقادنا واذا ما تم تفعيله في اطار استراتيجية مدروسة بعناية ومعدة ومبرمجة لاستدعاء هذه الكفاءات واستثمارها في بيئتها الاصلية التي يفترض ان تعيش في كنفها ، فما من شك انها سوف تسهم في احداث تغيير نوعي في الوطن العربي . وفي حقيقة الأمر ان هذا التوجه لا ينبغي له ان يكون فقط هو الأساس الذي تعقد عليه الآمال وتشد اليه الرحال . اذ لا يخفى على احد ان هناك صعوبات عديدة لاسترداد هذه الكفاءات سواء كان ذلك على صعيد عربي او على صعيد الاقطار المتواجدة فيها فعلا . ولعل اولاها عربيا على سبيل المثال لا الحصر ان هذا التوجه على ما يبدو كان لزوم الاحتفاء الارتجالي بالمناسبة ، وانه لم يلق الصدى المرجو له ، ومر على وسائل الاعلام العربي مرور الكرام ، شأنه شأن كثير من الشجون العربية .

❋) وبالرغم من كل ذلك فثمة التزامات كثيرة يفترض ان تسبق مثل هذا التوجه الذي ابدته الجامعة العربية يتصدرها التزام تفعيل سياسة عربية تهدف الى الحد من استمرارية هجرة الكفاءات العربية الى الخارج ، وهذا الكم السنوي من الخريجين الذين يؤثرون البقاء بعيدا عن اوطانهم الأمر الذي كانت محصلته افراغ المنطقة العربية منهم وحرمان الجماهير العربية من جني ثمرات ابداعات ابنائها الذين انفقت عليها "ما فوقها وما تحتها" من مدخراتها ، وكانت النتيجة هدرا اقتصاديا لمقدرات الوطن ، وضخا مجانيا غير مبرر يصب

في غير مكانه ليزيد الآخرين قوة وغنى ومناعة ، واما الوطن فيظل على حالــه متســربلا عباءة الجمود والتقوقع . وغني عن القول ان الكفاءات العربية المهاجرة قد حققــت علــى مدى عشرات السنين الماضية انجازات مدهشة لغير الامة العربية التي هي بحاجة الى كــل واحدة منها ، في حين ان الأمة العربية ما زالت تعاني تخلفا علميا وتقنيا كــون مناهجهــا وبرامجها واساليبها التعليمية على كل المستويات لم تســتطع ان تحــدث الثــورة العلميــة والانطلاقة المرجوة التي داعبت وما زالت مخيلات الكتاب والمفكرين والمثقفــين القــوميين المتعاطفين مع قضايا وطنهم وامتهم التي ما زالت غارقة في لجج ثقافات الاستهلاك والتلقي من الآخرين واعتماد عندياتهم مرجعية اولى واخيرة ، وكونها ما زالت اسيرة عقدة الاجنبي في كثير من شؤونها الحياتية والفكرية والثقافية والابداعية . وهنا لا بد لنا ان نشير ايضــا الى فشل التعليم في الوطن العربي في احداث التغييرات المفترض ان يحدثها في الســلوكات والنفسيات ، فظلت الثقة بالذات عرضة للاهتزاز والتزعزع وفي احيان كان ينظر اليها نظرة دونية وفي احيان اخرى كانت مفقودة .

*) ان مبدأ التنظير من ابراج عاجية علوية مرفوض ، ولكن حينما تكون القضــية تخــص مصير الأمة ومكانتها وكرامتها ورفعة شأنها ، فان كل صاحب رأي وفكر وتوجه مدعو ان يدلي بدلوه . ونحن هنا نود ان نشير الى ملاحظات قد تسهم في ما لو ان حلولا اوجدت لها – في تغيير الواقع العلمي والتعليمي التعلمي برمته ، وتتصدرها حقيقة ان التعليم في غالبية اقطار الوطن العربي ما زال محكوما لمناهج واســاليب تقليديــة تعتمــد التلقــين وحشــو المعلومات من ناحية ، وتغليب الكم على النوع من ناحيــة اخــرى .وهــذا ينطبــق علــى المؤسسات التعليمية بدءا بالمراحل الاساسية وانتهاء بالمراحل العليا . وفي هــذا الصــدد نشير الى ان سياسة الكم هذه لم تستطع حتى ان تحدث تغييرا ملموسا في عدد المتعلمين ، وظلت الأمية احدى اخطر المشكلات وبخاصة في قطاع الأناث . وثمة ملاحظة اخرى تخص ما يصرف على البحث العلمي في الوطن العربي الأمر الذي ظل معه شبه مشلول في هــذا الصدد ومعتمدا على غيره، وهذا بالتالي يعود الى انعدام سياسة خاصة في البحث العلمي لها كوادرها ومؤسساتها وميزانياتها وآليات تفريغ ووسائل تكريم حقيقي للباحثين والمبدعين ، وبالتالي قلة المؤسسات التي يمكن ان تتبنى هذه الابداعات بهدف تطبيقها والاستفادة منها . وثمة ملاحظة قد تكون هنا الأخيرة لكنها لن تكون آخر الملاحظات لضــيق المجــال وهــي تخص مباشرة الكفاءات العربية التي لا تلقى في اوطانها ما تلقاه لدى الآخرين من وســائل حياتية مرفهة وحوافز وتكريم واهتمام واحلال في المكان المناسب الأمر الذي يجعلها تفكــر على الدوام في الهجرة – والألم يعتصر مشاعرها واحاسيسها – وترك اوطانها للعمل فــي

بيئات تلبي متطلبات قدراتها وطموحاتها واستعداداتها ، او انها لا تفكر فـــي العــودة عنـــد استكمال الدراسة .

❋) وخلاصة القول انه لا يعقل ان يكون لدى الأمة العربية هذا الرصيد الهائل من الكفاءات والخبرات العلمية المتطورة وهي ترزح تحت نير التخلف العلمي والتقني فـــي كثيـــر مـــن قطاعات حياتها وتعيش عالة على الآخرين الذين تشكل انجازات الكفاءات العربية المهاجرة مساحة مرموقة من حضارتهم الزاهرة . والسؤال الذي يطرح نفسه : لو ان هذه الانجازات تحققت تحت ظلال الوطن العربي ولصالح المواطن العربي ، فماذا يمكن ان تكـــون النتـــائج سوى رسم صورة اخرى مشرقة للوطن يزهو من خلالها بسيادته واستقلاله وتحرره ورفعة شأنه . واما المواطن فليس ما يمكن ان يجنيه اقل من قفزة نوعية تترجم الى تجســـيد مـــا يصبو اليه من حريات عامة وديمقراطية وتكريس لمنظومة حقوقه الانسانية ، وقبل كل هذا وذاك الى مستوى لائق من الحياة الكريمة والرفاه .

المرأة العربية .. وفرضية العنف

❋) قد يكون موضوع ما يسمى بالعنف ضد المرأة العربية واحدا من اكثر الموضوعات اثارة للجدل والتباين في الآراء ، والذي يمكن ان يشكل قاعدة للنقاش المستمر غير مقصورة على ذكرى او مناسبة على اعتبار ان العديد من المؤسسات النسوية في بعض اقطار الوطن العربي تحتفل هذه الايام بذكرى يوم المرأة العالمي ، منتهزة هذه المناسبة لمعاودة طرح موضوع حقوق المرأة ومساواتها بالرجل بقصد انصافها كونها على حد ادعاء هذه المؤسسات موضع اضطهاد ، وهدفا يمارس ضده العنف على خلفية جنسوية في الدرجة الاولى .

❋) وبداية نود ان ننوه الى ان المرأة ليست هي الساحة الوحيدة التي تشكل مادة من خلالها تصب الانتقادات والاتهامات والادانات من قبل الذين واللواتي يقودون ركب التمرد على مجمل مقومات الحياة العربية الثقافية والابداعية والاجتماعية والفكرية والسلوكية ، والمطالبة بتغييره . وعلى ما يبدو ان هؤلاء قد اخذوا على عواتقهم مهام "عولمة" القضايا والمشكلات العربية ، او بمعنى آخر اتخاذ ما يدور في الغرب من تفاعلات وفعاليات اجتماعية كمرجعية نهائية ، او كخيار وحيد "للاصلاح والتغيير" اللذين ينادون بهما .

❋) في ما يخص موضوع العنف ، فنحن هنا نؤكد على حقيقة ان الوطن العربي جزء لا يتجزأ من العالم المتحضر شأنه شأن غيره يمر بمنظومة تغيرات حضارية ، وهو منفتح على مصراعيه في وجه كافة اشكال التطور والمتغيرات العلمية والتقنية والثقافية والسلوكية الاخرى الوافدة اليه من الخارج بخيرها وبشرها . لذا فليس من المستغرب ان تتأثر المجتمعات العربية بدرجات متفاوتة بالتفاعلات الجارية والتغيرات والظواهر السيكلوجية الاجتماعية بحديها السالب والموجب الحاصلة في مجتمعات اخرى ، ومنها على سبيل المثال موجة العنف التي ابتليت بها كثير من اقطار العالم وبخاصة تلك التي قطعت شوطا بعيدا في مضمار استخدام التقنيات المتطورة الأمر الذي ادى الى تفكك كثير من الاواصر العائلية والاسرية ، ونجم عنه بالتالي انشطار وشائج تماسكها وتبدل عاداتها وقيمها الاجتماعية وما افرزته من امراض نفسية واجتماعية . واذا كانت هناك "بعض مظاهر العنف العامة" في الوطن العربي فهي بلا شك وليدة الانغماس في شكليات الحضارة الغربية وفعالياتها، وجراء المتغيرات التي يمر بها وهي بالتالي ليست مقصورة على جنس دون آخر بمعنى انه لا ينبغي ان تلصق تهمة العنف بالرجل وحده . وهنا نود ان نؤكد على حقيقتين اولاهما ان

العنف بكل اشكاله لا يشكل ظاهرة ملموسة في الوطن العربي كما هو حاصل في مجتمعات اخرى ، وان الاحصائيات المختلفة تدل على انه لم يتجاوز او حتى يقترب من اية خطوط حمراء تفترض له . والحقيقة الثانية ان "العنف ضد المرأة" هو الآخر لا يشكل صفة من صفات الأسرة العربية ، ولا هو بذرة كامنة في اسس التربية العربية الاسرية الخاضعة لاعتبارات عقائدية تشكل مسارات امان وضوابط لها . الا اننا وما دمنا في هذا الصدد فاننا نؤكد وحسب الاحصائيات المقارنة مع ما لدى المجتمعات الاخرى وبخاصة تلك التي تشكل مرجعية للشرائح المحتجة على مجمل الحياة العربية ، ان الوطن العربي لم يفقد في غمرة التطورات السالبة التي افرزتها الحضارة الغربية بنيته التحتية في ما يخص كثيرا من علاقاته الاجتماعية وقيمه ومثله ومبادئه الاخرى . وتظل هناك على الدوام معايير متبعة تعمل على تلافي كل تدهور والحيلولة دون تردي المجتمعات العربية في مهاوي الضياع والتفكك وفقدان القياد، الامر الذي يقف سدا منيعا في وجه غائلة العنف وتفشي الامراض الاجتماعية الاخرى . واما ما يخص المرأة العربية ، فبرغم كل التقولات على اسس التربية العربية الحالية والموروثة ، واتهامها بانها "تحابي الذكورة على حساب الانوثة" او انها بطبيعتها "اضطهادية ومجحفة"، وتقوم على قاعدة "من التمييز الجنسوي" ، او ان المجتمعات العربية هي مجتمعات رجال فقط ولا مكان للنساء فيها او مكانة ، فان المرأة العربية تظل تتمتع بمكانة قلما تمتعت بها امرأة اخرى في مجتمع آخر .

❋) ان موضوع ما يسمى بالعنف ضد المرأة ذو شجون ، ويثير العديد من الملاحظات والتحفظات عليه كونه يطرح في اطار من المبالغات والتهويل وبشكل يوحي بأن هناك "غولا" يتربص لافتراس الأسرة العربية في قوالب دعائية عبر الصحف واليافطات والشعارات تصب جام غضبها على التربية العربية السائدة وتفتح النار على الرجل الشرقي الذي تتهمه بالتسلط ، وبنظرته الى المرأة على انها جارية او خليلة . وفي اعتقادنا ان مثل هذه المؤسسات والشرائح الاجتماعية والثقافية التي تخوض معركتها هذه لا تتوخى الدقة وتفتقر في كثير من الاحيان الى الموضوعية حول ما تدعيه ، او انها تخلط بين ما ينجم عن المشكلات العائلية والزوجية من تفاعلات سالبة وبين العنف من اجل العنف او على خلفية جنسوية من منطلق استضعاف المرأة واضطهادها . وهي في كثير من الاحيان تسلط الاضواء على السلبيات وتتجاهل الايجابيات في ما يخص ما حققته المرأة العربية من انجازات وتطورات عامة في شتى الحقول التي تخصها . وهذا يدفعنا الى القول بان هذه المؤسسات والشرائح التي اشرنا اليها تستمرىء الاستمرار في فرض رؤيتها في ما يخص المرأة العربية تبريرا لاستمرار وجودها من ناحية ، وفي ما يخص اسلوبها فمن ناحية

اخرى فانها تكرس آلية "الشكوى والاتهام" دون ان تطرح بديلا ايجابيا او ان تسعى جادة لفعل شيء غير طرح الشعارات .وهنا نذكر ايضا بان المرأة تشكل عنصرا اساسيا في تربية الذكور ، وتلعب دورا حاسما في تصميم سلوكهم الاجتماعي المستقبلي ونظرتهم للجنس الآخر . ونعود الى المرأة العربية لنؤكد انها قد قطعت شوطا كبيرا لا يمكن تجاهله في المجالات التعليمية والثقافية والتربوية والاقتصادية والسياسية ، وحقها في التعبير الحر عبر مؤسسات نسوية تشرف عليها هي بنفسها .

❋)وخلاصة القول ان المرأة العربية بخير ، وهي تتفيأ ظلال منظومة من التقاليد والقيم والمثل التي تجلها اما واختا وزوجة . ولا ينبغي بأية حال من الاحوال تناسي ان للمرأة طبيعة فسيولوجية خاصة تحول في احيان كثيرة دون ممارستها لكثير من الفعاليات والانشطة ، او انها تغيبها عنها لفترات . وهذا لا يحرمها أي حق من حقوقها ، او يقف حائلا دون احترامها وتقديرها واتخاذها شريكة في كل مجالات الحياة .

المرأة الفلسطينية
واقع ورؤيا

أصبح الثامن من آذار في كل عام يحتل مساحة مرموقة من تفكير المـــرأة بعامـــة والمرأة الفلسطينية بخاصة ، بغض النظر عن مدى تطابق الاهداف او تباينها ، ذلــك انهـــا ترى فيه مناسبة ذات شجون تتدارس فيها واقعها بكل ابعاده من جهة ، ورؤياها لمســـتقبل يمنحها المكانة اللائقة بها على اعتبار انها انسان بادىء ذي بدء ، وكونها نصف المجتمـــع او يزيد ، علاوةً على ما قدمته من تضحيات ونضالات لا يستطيع احد ان ينكرها .

ونحن مع المرأة الفلسطينية في سعيها لبلورة قضية حقوقها الانسانية والاجتماعية والاسرية والسياسية .

ونؤكد المرة تلو المرة ان المرأة هي عماد المجتمع وان المسؤوليات المناطة بهـــا وبخاصة فيما يتعلق بتربية الاجيال وتنشئتها وغير ذلك ، هي مسؤوليات خطيـــرة وعلـــى جانب كبير من الاهمية وربما تفوقت على مسؤوليات الرجل في هذا الصدد ، ونحن هنـــا لا نقلل من شأن المسؤوليات والمهام الاخرى لها ، ولكننا نسلط الضوء على تنشئة الانســـان باعتباره اغلى واعز ما تملك الاوطان .

وفي اعتقادنا ان اهم واخطر المجالات في كفاح المرأة الفلسطينية والعربية عمومـــا ينبغي ان يتركز على مجالي التربية الاسرية والتنشئة الاجتماعية .

وعلى حد اعتقادنا ان اهم مشكلة للمرأة تكمن في نظرة المجتمع لها ، جراء التقاليد والعادات والافكار المتوارثة جيلاً بعد جيل والتي قوقعت مكانة المرأة وهمشتها بل وقزمتها في مجتمع هو في الاصل "مجتمع رجال" ، وهنا تجدر الاشارة الا ان رجولية هذا المجتمـــع هي نسبية وتختلف وتيرتها من مجتمع عربي الى آخر واما في المجتمع الفلسطيني فثمـــة تباين بين شرائحه المختلفة . الا ان هذا لا ينفي ســـيطرة الرجـــل علـــى مقاليـــد الامـــور "وعشعشة" مفاهيم خاطئة في اذهان البعض منهم الامر الذي ادى الى معاناة كثير من النساء في نطاق الاسرة بنتاً او اختاً كانت ام زوجة ، وسواء كان اسباب هذه المعاناة هم الاباء او الاخوة او كانوا هم الازواج او حتى الابناء . وبطبيعة الحال ، وكمحصلة لكل مـــا اســـلفنا فقدت المرأة الكثير الكثير من حقوقها الاخرى خارج نطاق الاســـرة ، وبخاصـــة الحقـــوق الاجتماعية والسياسية ، واستثنيت من صنع القرار . ذلك ان الرجل داخل الاسرة هو نفسه

الرجل خارجها ، بل ربما يكون الاخير اكثر تحفظاً وانغلاقاً وحتى تشدداً علـــى اعتبـــار ان الرجال يشكلون معايير ومحكات لبعضهم البعض .

وفي اعتقادنا ان دور المرأة في الكفاح لرفع الظلم عنها ونيل ما تستحقه من حقوق هو دور ثلاثي الابعاد ويكمن جزء كبير من العلاج في المرأة نفسها :

❁) فالمرأة مطالبة ان ترفع كفاءاتها ومؤهلاتها التعليمية الى المستوى الذي يفرض احترام عقلها وتفكيرها وصواب قرارها ، على الرجل .

❁) ان تستغل هي هذه الكفاءات والمؤهلات وان توظفها كوسائل وآليات تربوية في تصحيح المسار التربوي السائد وفي تغيير مفاهيم التنشئة الاسرية والاجتماعية لاطفالها وبخاصـــة الذكور منهم على اعتبار انهم هم رجال المستقبل الذين تطالب هي بالمساواة معهم .

ولسنا هنا بصدد التذكير باهمية دور المرأة في التربية الاسرية ، فهو قـــد اصـــبح بدهية يعرفها كل ذي بصيرة وادراك .

ونود هنا ان ننوه الى ان المرأة تلعب دورا خطيرا في تجسيد التفرقة بين الـــذكورة والانوثة والميل الحاد للذكورة على حساب الانوثة ، وفي ذات الوقت لا ننسى دور العـــادات والتقاليد وغيرها في هذا الصدد .

❁) والبعد الثالث في هذا المجال ، هو معركة المرأة خارج اطار الاســـرة ، ونقصـــد بـــذلك معركتها لنيل حقوقها السياسية والاجتماعية الاخرى ، والتي نعتقد جازمين ان البعدين الاول والثاني هما اساس توجهها وسلاحها المنطقي والعقلاني لتحقق بهما مكاسب هي ضرورية للدفاع عن ذاتها ، وبقائها البقاء الامثل ، والذي تسعى الي تطوير نفسها حضاريا على كافة المستويات العلمية والتقنية والسياسية والاخلاقية والتربوية والثقافية .

ان انصار حقوق المرأة الفلسطينية من الذكور في الوقت الحاضر هم اكثر بكثير من ذي قبل ، وهذا مرده الى تغير كثير من المفاهيم التربوية والعلاقات الســـائدة فـــي نطـــاق الاسرة .

وبطبيعة الحال ، فان هذا لا يأتي الا عبر مناخ اسري يرتكز اساسا ويعتمـــد علـــى أمراة لها من التحصيل العلمي والثقافي ما يفرض احترامها ليس كأم وجبت طاعتها ، ولكن كأمراة متعلمة مثقفة مفكرة مدبرة ، والامثلة على ذلك كثيرة .

ان قضية تحقيق الحقوق السياسية للمرأة الفلسطينية هي تحصيل حاصل لما ذكرنـــا آنفا ، وهي في ذات الوقت قضية عادلة ، وهي ليست مكافأة لها على اساس انها ناضلت ، فالنضال واجب على كل مواطن وهو في النهاية شرف لا يكافأ الانسان عليه .

ولكنها في اعتقادنا تأتي على خلفية ما حققتة المرأة الفلسطينية وما هو متوقع منها انجازه ، من علم وثقافة ووعي وادراك وتحمل مسؤوليات .

وأما نسبة تمثيلها وتواجدها في المؤسسات السياسية فهو موضوع لا يتعلق بالمرأة الفلسطينية فقط ولكنه أمر ما زال محل جدال عالمي حتى في أرقى الاقطار حضارة وتقدما ، وان نظرة الى خرائط السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية في هذه الاقطار تدل على صدق ما اشرنا اليه ، ويبدو ان الامر يتعلق في قضايا غير الحقوق الانسانية والاجتماعية والسياسية ، وانما في امور تتعلق بالتكوين الفسيولوجي والبيولوجي لكل من الرجل والمرأة ، وهذا مجرد تخمين ذكي لايصل الى مرتبة الاعتقاد الجازم .

ونحن في سياق هذا الموضوع ، فأننا نود ان نطرح بعض الملاحظات التي نعتقد انها على جانب من الاهمية ، وانها يمكن ان تشكل منطلقات او مرتكزات لخطة عمل على طريق تحسين اوضاع المرأة الفلسطينية .

❀) ان التركيز على الجوانب السلبية لواقع المرأة ، دون اخذ الجوانب الايجابية لهذا الواقع بعين الاعتبار تشكل خطورة على تحقيق أي انجاز ، وهنا فمن الممكن ان تكون هذه الجوانب الايجابية نموذجا يحتذى ، او على اقل تقدير الحفاظ عليها ، والعمل على تطويرها .

❀) ان لتقنين العلاقات الاسرية (اخضاعها لمنظومة قوانين وانظمة وتشريعات) له هو الآخر محاذيره ، وليكن لنا من المجتمعات الغربية المتحضرة عبرة ، ذلك ان الاسرة هناك وحتى في ظل هذه القوانين ، كادت ان لم تكن بدأت بالانهيار كمؤسسة اجتماعية مظللة بدفء العلاقات الانسانية الحميمة .

❀) ان اسلوب المطالبة بحقوق المرأة ، لا ينبغي له ان يأخذ طابع الصراع بين الرجل والمرأة ، او التسلح بآلية التعصب النسوي (الفيمينزم) .

❀) ان نضال المرأة من اجل احقاق حقوقها ، لا يتم في معزل عن الرجل ، فكلاهما يكمل الآخر ، وان عمل أي طرف في معزل عن الطرف الثاني مآله تعقيد الامور ، والدوران في حلقة مفرغة تكون محصلتها الفشل في الوصول الى نتيجة .

❀) ان الدعوة الى المساواة بين الرجل والمرأة يجب ان يأخذ بعين الاعتبار طبيعة الاختلافات البيولوجية والفسيولوجية بينهما ، فالاعتزاز والافتخار بأنوثة المرأة ليسا ادنى او اقل شأناً منهما لدى ذكورة الرجل .

❁) ان مبدأ المساواة هذا لا يمنح الحق في الانطلاق بالحرية الى اقصى ابعادها ، فمفــاهيم الحرية الغربية وتطبيقاتها لا تتلاءم كلها مع طبيعة المناخات الايديولوجية السائدة في بلادنا .

❁) ان أي اصلاح يخص حقوق المرأة الفلسطينية ، يجب ان يأخذ بعين الاعتبــار القاعــدة النسائية العريضة في المجتمع الفلسطيني ، ونعني بها اولئك النساء اللواتي هن بعيدات عن اضواء المؤسسات والجمعيات وتصدرها ، ومن اجل هذا يفترض ان تكون هنــاك دراســات سابقة تتصف بالموضوعية والعقلانية ، بهدف معرفة مشكلاتهن وحاجاتهن وتوجهاتهن في كل الاتجاهات ، وهذا بطبيعة الحال يقتضي مجهودا مضاعفا من الخبرة والتقنية والمصداقية .

❁) واخيراً وليس آخراً ، فأن اختصاص المراة وقيامها بمهام ووظــائف فرضــتها عليهــا فسيولوجيتها وبيولوجيتها هما وسام شرف لها ، ونقطة اعتزاز تدين بها الاجيال على مدى الايام .

وخلاصة القول :

❁) ان حقوق المرأة الفلسطينية بكل اشكالها أمانة في الاعناق يجب ان تؤدى .

❁) ان دور المرأة الفلسطينية خطير وفعال في تحقيق هذه الحقــوق وهــو منــوط بعلمها وثقافتها ووسائل تربيتها للنشء الجديد على اسس سلوكية ومفاهيم تربوية جديدة .

❁) ان سن القوانين لحماية حقوق المرأة ضرورة حضارية وانسانية .

❁) ولكن الاهم من هذه القوانين ان تثبت المرأة ذاتها وان تفرض احترامها علــى الاسرة والمجتمع وان تكون لها قاعدة شعبية ترتكز اليها في تحقيق اهدافها ، وكل ما تصبو اليه .

يوم عربي .. للمرأة العربية

❋) تحتفل العديد من اقطار العالم بيوم اطلق عليه "يوم المرأة العالمي" وهو يصادف الثامن من آذار من كل عام. وعلى ما يبدو فهو يستهدف لفت الانظار الى منظومة التحديات التي كانت ولا تزال شرائح من النساء يشعرن انهن يواجهنها على كافة الصعد، علاوة على ابراز انجازات تم تحقيقها على مدى عام منصرم، او أهداف وضعت نصب الاعين بغية تحقيقها. وعلى ضوء ذلك كله استقراء ما يمكن أن يكون متوقعا على المدى المنظور.

❋) ومع أن هذا اليوم هو من نتاج التفكير الغربي الذي ورد الينا ضمن الكثير من المبتدعات الاخرى، أو بكلمات أخرى أنه جاء جراء ظروف محيطة خاصة بالمراة الغربية، فليس ثمة ما يحول دون الاحتفال به على المستوى العربي بعامة والفلسطيني بخاصة مع الاخذ بعين الاعتبار خصوصية المرأة العربية، وانه ليس بالضرورة أن كل ما تعانيه أو تحلم به وتسعى المرأة الاوروبية أو الامريكية او سواهما الى تحقيقه من أهداف يمكن ان ينطبق بحذافيره على المرأة العربية في الوطن العربي، ذلك انه لم يحن الوقت – وأغلب الظن انه لن يحين – لفرض ظلال العولمة على القضايا التي تخص النساء، واذا كانت بعض المشكلات والاهداف قد تقاطعت، فلا يعني هذا انها كلها تتقاطع نظرا لاختلاف مخرجات الفلسفة العامة التي تدين بها المجتمعات الانسانية المختلفة. وبهذا الصدد فثمة اصرار على ان لا تكون المرجعية هنا غير عربية ، ذلك ان المرأة العربية لا ينبغي لها ان تقارن اوضاعها مقارنة شاملة مع مثيلاتها في الدول الغربية المتطورة لعدة اعتبارات اهمها الفارق في الزمن الحضاري ، والمرتكزات الثقافية ، ومنظومة العادات والتقاليد والقيم والمثل السائد ، اضافة الى الاختلاف الكبير في اساليب التنشئة والتربية .

❋) وبداية يجب الاقرار ان هناك قضايا ساخنة تخص المرأة العربية بعامة والفلسطينية بخاصة لا ينبغي السكوت عنها او الالتفاف عليها او حتى تجاوزها ولعل اهمها واخطرها ان لا يظل المجتمع العربي "مجتمع رجال" فقط ، وهي قضية تخضع للمتغيرات في الوطن العربي وتسير في اتجاه ايجابي مقارنة مع فترات سابقة. فالمرأة العربية تحقق انجازات ومكاسب كثيرة في العديد من المجالات الامر الذي يقضي ولو شيئا فشيئا على بؤر التباين والتفاوت في المكانة والحقوق العامة ، وجراء تطور في النظرة العامة للرجل العربي تجاه علاقته بالمرأة على خلفية عدة اعتبارات اهمها التعليم والمكتسبات الثقافية واتساع مساحة الوعي العام ، وبهذا الصدد لا يمكن الاغفال عن منظومة الموروث العقائدي التي تلعب دورا هاما هي الاخرى .

❋) ولكن مما يلاحظ ان بعض الجمعيات والمؤسسات النسائية في بعض البلــدان العربيــة تطرح موضوعات كالعنف ضد المرأة او عدم نيلها حقوقها السياسية كاملــة اضــافة الــى موضوع المساواة العامة بين الرجل والمرأة كقضايا بؤر ساخنة ومحل شكوى دائمة. وفيما يخص العنف فهو في اعتقادنا لم يشكل ظاهرة والارجح انه لن يشكلها في المجتمع العربــي وذلك حسب الاحصائيات الصادرة عن المؤسسات المعنية ، ولعدة اعتبــارات تخــص قــيم المجتمع ومثله . وهنا يفترض بنا ان نجعل الخلافات الزوجية وما ينشأ عنها من نزاعــات بين الزوج والزوجة او المشكلات التي تنجم عن الفقــر والادمــان او تــدني المســتويات التعليمية والثقافية ، يفترض بنا ان نعزلها عن دائرة مصطلح العنف ضد المرأة كونها امرأة ، وان لا ننجر وراء التهمة الخطيرة غير المدافع عنها علميا ان الرجل العربــي يضــطهد المرأة ويمارس عليها العنف على "خلفية جنسوية" . في اعتقادنا ان هذا النهج خاطىء وهو تقليد دون تبصر لما يحدث خارج مجتمعنا العربي الذي تحتل صلة الرحم وعواطف الامومة والتوصية على الاناث مساحة مرموقة من ذاكرة ذكوره التربوية –وننوه الى اننــا ســنفرد حديثا مستقلا عن العنف في مرات قادمة– . واما فيما يخص الحقــوق السياســية فنضــال المرأة هنا مشروع ويفترض الا يعترض عليه أي معترض ، ومع ذلــك ننــوه ان المــرأة العربية لا تشكو وحدها هذا الوضع بل هي ظاهرة ملحوظة حتــى فــي ارقــى دول العــالم المتحضر . وفي مجمل حقوق المرأة بشكل عام فلا ينبغي ايضا تناسي ان للمــرأة وضــعا فسيولوجيا يحد من قدراتها مقارنة بقدرات الرجل ولكن بشرط ان لا يصل الامر الى التفرقة في الحقوق الاساسية .وبهذا الصدد ثمة مقولات كثيرة مشكوك بالنوايا التي تقــف خلفهــا والتي تتمثل في اللمز والغمز على كل ما هو شرقي يمس بمكانة الرجل العربي او الشــرقي بشكل عام .

❋) وهنا لا بد لنا ان نطرح بعض ما يفترض في اعتقادنا ان تكون عليه العلاقــات بــين الرجل والمرأة في مجتمعنا العربي بعامة والفلسطيني بخاصة . فقضية حقــوق المــرأة لا ينبغي لها ان تكون باي حال من الاحوال مدعاة للتمرد او التحريض المستندين الى صــراع على خلفية جنسوية ، او ان تكون تستهدف ابراز السلبيات دون الايجابيات . كما انه لــيس بالضرورة ان ما تشعر به شريحة من النساء من"قهر وقمع" يمكن تعميمه وتطبيقه على كل النساء . وفي اعتقادنا ايضا ان قضايا المرأة لا يمكن ان تحل في معزل عن الرجل في جــو من التشنج او التعصب الذين لا مبرر لهما والقائمين على سياسة شد الحبال تغذيها جهــات تتخذ من التعصب النسوي "الفيمانيزم" منهجا لها . فالحل هنا يفترض به ان يكون مشــتركا ومبنيا على اسس من التفاهم وهو بطبيعة الحال تــدريجي ويخضــع للمتغيــرات الثقافيــة

والتربوية والتعليمية والاقتصادية والتوعوية بشكل عام ومنوط بمـــا تســـتطيع المـــرأة ان تحققه من انجازات على ارض الواقع وعلى كافة الاصـــعدة تثبـــت مـــن خلالهـــا قـــدراتها وكفاءاتها . ومع ذلك نؤكد هنا على حقيقتين اولاهما ان دور المرأة الثلاثي الابعاد المتمثل في كونها زوجة واما وربة بيت ومدى نجاحها فيه هو الاساس في مكانتها العامة دون ادنى معارضة لمساهمتها في اطر القوى العاملة المنتجة الاخرى . وثانيتهما ان ما حصلت عليه المرأة العربية خلال نصف القرن الماضي مثير للانتباه ولا يمكن الاقلال من شأنه او اهميته ، والاهم من ذلك انه غير متوقف عند حد من الحدود ، وان مساحته العامة آخذة بالازيـــاد والتنامي مع الايام .

❋) وخلاصة القول ان معيار القوى الجسدية الذي كان يميز الرجل عن المـــرأة قـــد فقـــد مفعوله جراء كثير من المتغيرات الحضارية ، ذلك ان ثمة قوى اخرى عقلية وابداعية تلعب دورها ولا تميز في جنس مبدعها ذكرا كان ام انثى . وتظل المـــرأة هـــي العنصـــر الاهـــم والاخطر والاشمل في تربية الاجيال وتنشئتها وبخاصة الـــذكور منهـــا . وتظـــل بصـــماتها التربوية مطبوعة على ذاكرة هؤلاء الذكور وتتحكم في سلوكاتهم تجاه كثير مـــن الاشـــياء والمواقف والاشخاص . واخيرا وليس اخرا ، ان المرأة العربية تستحق ان يكون لها يـــوم عربي خالص يؤكد على عروبة قضاياها ووحدتها قبل عالميتها .

المعلمون .. أولا

اذا كان للشعب الفلسطيني ان يفخر ذات يوم ، وان يعتز بفئة من فئاته ، فهل هناك فئة احق وأولى بالاعتزاز والافتخار من فئة المعلمين ؟

فعلى مدى عقود نضالات هذا الشعب لتقرير مصيره وتجسيد هويته الانتمائية ذات الابعاد الوطنية والقومية والعقائدية ، اضاءت هذه الفئة المعطاءة فضاءآت شاسعة المساحة من تاريخ هذا الشعب ، وطبعت ابناءه بطابع المعرفة ، وجذرت فيهم قيم الانتماء والفداء للوطن والارض وازكت في ارواحهم شعلة النضال الوطني ، وهي بهذا كانت الطليعة قيادة وريادة .

وهل من مناضل او فدائي او شهيد او مثقف او اديب او عالم الا كان نتاج عطاء تفكيرهم وتدبيرهم ، وجهودهم المضنية ، واريحيتهم ، وفيض معين انسانيتهم الذي لا ينضب.

انها كلمة حق يفرضها علينا التزام ادبي واخلاقي نحوهم نستهل بها مقالتنا هذه ، لعلنا نوفيهم بعضا مما يستحقون .

ان العملية التربوية الفلسطينية (التعليمية التعلمية) بكل مركباتها وعناصرها وابعادها ، ونخص هنا العنصرين الانسانيين اللذين يمثلهما كل من المعلم والمتعلم تصبح مجرد نظرية تفتقر الى اسس التطبيق لو انها همشت دور احدهما على حساب الآخر ، فالمعلم هو اساس هذه العملية ، ولولاه لفقدت الوسيلة الانسانية الاكثر اهمية لتطبيقها ، وباتت مجردة من كل فاعلية . وهذا بطبيعة الحال يدفعنا الى التركيز على انسانية هذا المعلم وظروفه الحياتية على اعتبار انها هي البنية الاساسية لتكوين اي معلم وهي المتحكمة بنوعية ادائه وانجازاته بالتالي. ونحن ايضا لا ننكر ان المتعلم هو الهدف النهائي لهذه العملية ، ولكنه يحظر عليها ، وعلى مخططيها تنفيذها على حساب المعلم وانسانيته وكرامته وسعادته وسعادة ابنائه وابسط بسائط مقومات حياته الاساسية .

ونحن هنا لسنا بحاجة الى التذكير بمعاناة المعلمين الفلسطينيين طوال قرن من تاريخ قضيتهم ، ولا الى سرد قوائم شهدائهم ومصابيهم ومعتقليهم ومنفييهم ومبعدييهم وكل معذبيهم في الارض ، فهي حقائق ما زالت ماثلة في الاذهان ولا يمكن ان تنسى او تتناسى ، ولكن ما يهمنا هنا هو ان نلقي الضوء على الحقائق التالية :

*) على الرغم من ان المعلمين الفلسطينيين كانوا هم المشاعل التـــي احترقــت واضـــاءت دروب الآخرين الا انهم كانوا وما زالوا في ادنى درجات السلم الاجتماعي ، ولدى مقارنـــة هذا الوضع مع المجتمعات المتحضرة والمتطورة يتراءى لنا البون الشاسع ، فبناة العقــول والافكار ورواد القيم والمثل العليا ومجذروها هم الطليعة والمقدمة في كل حضارة ومجتمـــع متحضر .

*) ومن هنا واستمرارا للوضع الاول وعلى النطاق الاداري الذي كان المعلمون ضحية له ، حيث كابدوا المعاناة الادارية جراء الاوامر الادارية المحظور عليهم البتة ان يعارضـــوها ، وصمت الآذان عن سماع شكاويهم واقتراحاتهم ، وباتوا مغيبين عن ساحة صـــنع القـــرار التربوي الذين هم اولى الناس في المشاركة به .

*) واما على النطاق الوظيفي ، فقد حملوا ما لا طاقة لهم به فكانت "واجباتهم" التي غرقوا في خضمها على حساب حقوقهم التي حرموا الكثير منها .

*) واما على النطاق المعيشي فقد كانوا ، ولسنا هنا مبالغين ، اما انهم يتمركزون حول خط الفقر او دونه بدرجات وهذا بطبيعة الحال ينطبق على اؤلئك المرابطين على خطوط الخدمة او المتقاعدين منهم .

وهنا نقف عند هذه الحدود ولا نريد الاسترسال ابعد منها .

ولكننا ونحن نرسم خارطة معاناة هذه الفئة من المجتمع ، ونســلط الاضـــواء علـــى همومها واحزانها وواقعها المرير ، نؤكد ان كل جذور هذا الوضع قد نمت وترعرعت تحـــت ظلال انظمة وسلطات غريبة عن هذا الشعب ، كما نؤكد ان هذه الفئة لم تفقد ايمانها في يوم من الايام ، بان فجر الحرية والتحرر سوف يهل على هـــذا الـــوطن ، وان الخـــلاص آت لا محالة ، فها نحن اليوم نتفيأ ظلال سلطة وطنية هي من الشعب والى الشعب ، وهي المعقودة عليها الآمال في ان تمحو كل تراكمات الماضي السلبية وان تعيد الـــى هـــذه الفئـــة ســـابق كرامتها وان تبوئها المكانة اللائقة بها والتي تسحقها ، وان تنصفها ، فهذه الفئة هي الاقدر على تدعيم اسس الوطن ثقافة وتربية وسلوكا وقيماً ، وهي الاقدر على رعاية ابنائه الـــذين هم اغلى ما يملك هذا الوطن والسير بهم نحو مستقبل زاهر ، وغد عزيز مبني على العلـــم والايمان . وهي الواجهة الحضارية لهذا الوطن ، والمرآة التي يرانا الاخرون من خلالها .

يـــوم المعلم الفلسطيني

عندما تحيي الشعوب يوم المعلم ، فهي تعبر بذلك عن رقـــي فـــي اســـلوب تفكيرهـــا ومنهجها السلوكي ، وتفرز مساحة شاسعة من اولوياتها واهتماماتهـــا ، فـــالمعلم ويومـــه مفهومان تشكلا عبر العصور ، وتجسدا فاصبحا رمزا من رموز الحضارة الانسانية .

لقد تطور هذا المفهوم ليصبح طريقة حياة تتوالى على مدار الايام ، وليتحرر من كونه مجرد اقوال فارغة المحتوى ، او مجرد لحظات انفعالية لا تلبث ان تتلاشى بمجرد انقضـــاء هذا اليوم .

في التفكير الحضاري ، ولدى الانظمة المتطورة يعتبر المعلم رمزا من رموز الانسانية الحقة ، ومن اهم العناصر الفاعلة في صنع العقول والافكار ، وهو مربي العظام والعبـــاقرة في كافة المجالات ، فخلف كل عظيم وعبقري معلم لعب الدور الاهم في تجسيد هذه العظمة وبلورة تلك العبقرية .

واذا كانت الانسانية تتغنى بالحريات الاساسية والمفاهيم الديموقراطية وقـــيم العدالـــة والمساواة ، وتسعى جادة للوصول اليها ، فلنتذكر ان هـــذه القـــيم والاتجاهـــات الانســـانية الايجابية ما هي الا نتاج عقول المعلمين الذين غذوا بها طلبتهم على مدار العصور والازمنة ، فغدت بذلك النار المقدسة التي يستضاء بنورها ، ومن اتونها تنطلق الثورة علـــى الظلـــم والطغيان والشر والجهل والجهالة والتخلف .

ونحن في فلسطين باعتبارنا شعبا حضاريا ناضل في سبيل قيم انسانية كثيـــرة ، كـــان للمعلم الفلسطيني ولا يزال دور طليعي في قيادة هذا النضـــال ، ويـــوم تعرضـــت الهويـــة الفلسطينية للتذويب ، وكادت الأعاصير تقتلع جذور الانتماء لـــلارض والـــوطن والتـــاريخ والتراث ، تجلى في الساحة يومها المعلمون الذين حملوا الرسالة بكـــل شـــرف وامانـــة ، واخذوا على عاتقهم قيادة مسيرة هذا الشعب ، فاصبح الوطن مرسوما على شغاف القلوب ، وصفحات الوجدان .

واليوم ونحن في عيد هذا الانسان العظيم ينبغي ان يسأل كل واحد منا نفسه : من منـــا .. ايا كنا ، ومهما كنا لا يدين بالفضل لهذا الانسان العظيم ؟ وهل يمكن لاي منا ان ينكر اثر عطاءات هذا الانسان وعـــلمـــه وارشـــاداتـــه وتوجيهاته في تشـــكيل خـــارطة اتجاهاتنـــا وسلوكياتنا وعقلياتنا وبالتالي شخصياتنا وانساتيتنا ؟ فمن علمنا الانتماء والـــولاء للـــوطن والارض ؟ من زرع فينا بذور الانسانية الاولى وحب الخير وكل الاتجاهات الايجابية ؟ ومن

سافر بنا عبر جغرافيا الوطن وخلال ازمنة تاريخه المجيدة ؟ ومن بث فينا القوة والشجاعة واحترام الذات والثقة بالنفس ؟ ومن ... ومن ، انه المعلم الذي كاد ان يكون رسولا .

واعترافا بجميل هذا الانسان الذي املت الاقدار عليه مهام كثيرة وصعبة وخطيرة في آن واحد غير نقل العلم والمعرفة ، ذلك ان الوطن تعرض وما يزال يتعرض لايام حالكة فكانت نفحاته فضاءات اضاءت الدرب للاجيال ، فظل التواصل مع الارض والوطن والحق والتاريخ والتراث ... وظل الانتماء ، وظلت الهوية ، وظلت الجذور قوية لا تطالها الاعاصير العاتية عبر السنين العجاف .

واذا كنا نحتفل اليوم في هذه المناسبة ، فهي اعتراف منا بدور هذا الانسان القيادي ، وبافضاله التي لا تحصى على مر الاجيال ، لكن تقديرنا يجب ان يترجم الى واقع ملموس وقوانين تستهدف رفع المستوى المعيشي لهذا الانسان ، وتأمين اهم المقومات الاساسية لحياة معقولة ، كيما يتفرغ بكل حواسه وطاقاته وابداعاته لمسؤولياته المقدسة في تنشئة الاجيال وتربيتها ، وكيما تتاح له الفرصة لتطوير نفسه وتطوير العملية التربوية التي هو رائدها . اننا بقدر ما نكرم هذا الانسان يكون عطاؤه لنا ولاطفالنا ، ولكل الاجيال القادمة ، فاذا كان معززا مكرما كانت كل الاجيال التي يقودها معززة مكرمة . وليس هذا منة منا ولا احسانا ، ولكنه حق له في اعناقنا وجب سداده ، فمن حقه على مجتمعه ان يقف الى جانبه وان يأخذ بيده ، وان يكون صديقا له على الدوام .

ان الامم والشعوب التي لا تقدّر ولا تحترم الا اصحاب الاموال والنفوذ والسلطان وتتجاهل بناة العقول والافكار ، صناع الانسانية لهي شعوب ظالمة ، فاحترام المعلم واعلاء دوره في المجتمع والحياة هما معياران اساسيان لقياس الحضارة الانسانية والرقي البشري .

ويخطئ كل الخطأ من يظن ان المعلم جسر تمر عليه الاجيال وهو قابع في مكانه لا يتحرك ، ان المعلم هو الرائد ، وهو حامل المشعل والمقدم وهو حادي الركب الحضاري والثقافي ، فلتتكاتف كل الجهود لنصرته لكي يتبوأ المكانة اللائقة به ، والتي هو فعلا يستحقها بكل جدارة .

ونحن بهذا نكرم انفسنا ، ونبرهن على اننا شعب يستحق ويقدر القيم الانسانية حق قدرها .

المناهج الفلسطينية .. والمواطنة الصالحة
- التربية الانتمائية -

الورقة المشاركة في المؤتمر التربوي الثاني
حول المناهج الفلسطينية
(رؤى مستقبلية)

الذي تعقده كلية مجتمع المرأة / الطيرة

يومي الخميس والجمعة الثامن والتاسع من شهر نيسان 1999

إعداد وتقديم

أ. لطفي زغلول / نابلس

كاتب وشاعر
(عضو اتحاد الكتاب الفلسطينيين)
محاضر جامعي سابق

تعريف المنهاج من منظور انتمائي :

هو منظومة المعارف والمعلومات والخبرات والمهارات التي تسعى اية جماعة انسانية لنقلها لجمهرة متعلميها في كافة المراحل والمستويات منطلقة من فلسفتها العامة وتهدف الى جانب ما ذكرنا انفا :
(بناء انسان – وهنا نقصد الانسان الفلسطيني – متعلم تحت ظلال مظلة واقية من القيم الروحية والاجتماعية والثقافية ذات الابعاد الوطنية والقومية والعقائدية والانسانية) .

تعريف الانتماء :

هو البنية التحتية للمواطنة الصالحة وهو شعور غامر يستولي على الانسان يشده نحو فكرة او عقيدة او جماعة او ارض او ثقافة او لغة او تاريخ ، وهي عناصر قد تتجمع وقد تكون فرادى . وجراء هذا الشعور ينبري المنتمي للدفاع عنه الى درجة التضحية ذلك انه يمنح الاعتزاز ويحافظ على الهوية ويميز الشخصية الوطنية ويحفظ خصوصيتها من الذوبان في ذات الآخر . وفي مجال المناهج التربوية فهو عنصر هام في تصميمها وبنائها وهو مدخل ومخرج في آن واحد معا .

ويسعى المنهاج الانتمائي الى :

ايجاد جهاز مناعة قادر على حماية الانسان "المتعلم" من الذوبان في ذات الاخر باتخاذه مرجعية شاملة له ، وكذلك الحفاظ على الشخصية والهوية والاصالة الثقافية .

وفي حالة المنهاج الفلسطيني وزيادة على ذلك الالية القادرة على توحيد المشارب الثقافية للشعب الفلسطيني التي مزقها الشتات والمنافي .

وبكلمات اجرائية :

انسان فلسطيني راسخ القيم ، واثق بنفسه وشعبه وامته وتاريخه وتراثه ، مكلل بمشاعر الافتخار والاعتزاز بها .

المبررات :

1- تعرضت الشعوب العربية بعامة والفلسطيني الذي نحن بصدده بخاصة الى غزو استعماري شامل منذ قرون ، وقد تعرض شعبنا الفلسطيني لاكثر من ذلك "اقتلاع – تهجير – تشتيت – فقدان وطن – وفي بعض الاحيان فقدان هوية سياسية – زج في ولاءات سياسية وثقافية غريبة عنه" .

2- وفي الوقت الحاضر وعلاوة على ما ذكر تعرض الشعب الفلسطيني كغيره من الشعوب الى غزوات ثقافية كجزء متمم من المنظومة الاستعمارية ، زادت في غربته وزعزعة ثقته بنفسه وتراثه وتاريخه وامجاده وكافة مقومات حياته ووجوده .

3- وهو في هذه الايام يشهد موجة استعمار بثوب جديد تحت اسم "العولمة" التي تحاول ان تفرض كل ما لدى الاقوى على الاضعف ، وان تنسف كل المقومات والعناصر الوطنية والقومية وربما العقائدية ، وتجرد الشعوب ومنها لتلبسها ثوبا غير ثوبها .

4- وسواء كان هناك قصد او غير قصد فان تدفق المعرفة والمعلومات عبر الفضائيات والحواسيب التي تدخلنا الى عالم الانترنت غير المراقب والذي لم تستعد الشعوب النامية بعد للتعامل معه والتي لا تعرف حتى الان مدى خير معلوماته من شرها او ما هي تأثيراته الموجبة والسالبة . ولكن مما لا شك فيه ان لها تأثيرات سالبة خطيرة ذلك انها في احيان كثيرة معلومات مخطط لها "ودسمها لا يخلو من السم" .

كل هذا وغيره يدفعنا الى التركيز على موضوع الانتماء في مناهجنا الفلسطينية الجديدة اذا ما اردنا حقا ان تكون لنا هويتنا وشخصيتنا الخاصتان بنا .

امثلة على امراض اجتماعية متفشية في مجتمعاتنا العربية بعامة والفلسطينية بخاصة يفترض ان تعالج في المناهج الفلسطينية الجديدة :

1- التقليد الاعمى .
2- الترقيع الثقافي .
3- الخرافية والتواكلية .
4- عدم الثقة بالنفس .
5- التعميم .
6- النظرة الدونية لكل ما هو محلي .
7- الفهم الخاطئ للحضارة والتحضر.
8- الشعور بفوقية الاخرين "الاجانب" .

موضوعات خطيرة ترمز الى اللاإنتماء القومي :

1- اللغة العربية :

ان اخطر ما يواجهه المتعلم ويتعرض له ويحدث زعزعة في انتمائه القومي هو ان لغته العربية "واللغة من المقومات الرئيسة للانتماءين القومي والعقائدي" تحتل مكانة متدنية في التعامل معها والنظر اليها ، في حين ان اللغات الاجنبية وفي مقدمتها الانجليزية تتصدر الحياة وتحتل مساحة كبيرة منها وهي آخذة بالزحف على كل مجالات الحياة "المحال والعلامات التجارية- المواد الغذائية - الملابس - الادوات المنزلية - اسماء الفضائيات العربية - اسماء المأكولات- الشاخصات واللافتات التجارية وغيرها تسمى وتكتب باسماء وابجدية لاتينية ، ناهيك عن موجة تسمية الفتيات باسماء اجنبية" وهو في المدرسة يواجه بصدمة اخرى فقد اصبح على قناعة من ان اللغة العربية وهي لغة القرآن ولغته القومية - وسط ادعاء كل الدساتير العربية انها هي اللغة الرسمية - ليس لها أي تميز على الانجليزية على سبيل المثال. فعدد الحصص متساو من جهة ، وزيادة على ذلك يشعر ان الاهتمام بالانجليزية اكثر بكثير من العربية ، وربما انه اصبح على قناعة ان المدارس التي تعلم بالانجليزية ارقى بكثير من التي تعلم بالعربية ، وان مستقبل خريجيها افضل واكثر ضمانا ، واصبح يعلم ايضا ان معرفة الانجليزية واتقانها تزيدان في "رقيه وتحضره ومكانته الاجتماعية" اكثر بكثير مما تزيدان في علمه وثقافته .

2- جلد الذات :

وهي ظاهرة اخطر من كل ما ذكرنا حتى الآن وتتمثل في موجة من النقد اللاذع وعبارات السخرية والهزء والتهكم والسباب والشتائم تتردد على لسان المواطنين تجاه كل ما هو عربي او بحق العرب انفسهم . وهذا ما نسميه "بجلد الذات" . ولست هنا بصدد ذكر هذه الجمل والعبارات حفاظا على الكرامة العربية . وبطبيعة الحال فان اثر جلد الذات هذا يفت في عضد الامة ويستبيح هيبتها ويخفض مكانتها ويصمها على الدوام بالدونية .

3- ثقافة السوق :

ان ثقافة السوق التي تلعب دورا خطيرا واساسيا في تكوين اتجاهات المتعلم وهي هنا سالبة بطبيعة الحال اقل ما يقال فيها انها لا تشكل التربة الخصيبة التي يفترض ان تنمو بها التربية الانتمائية وتترعرع .

4- المناهج الحالية :

ان المناهج الحالية المطبقة في مدارسنا تظل مهمتها الرئيسة منحصرة في نقل المعلومة وحشو اذهان المتعلمين بها وذلك في معزل عن تكوين أي اتجاه انتمائي ، ذلك ان التكريس في المدارس على الحفظ والصم وتظل المستويات الاخرى تتناقص بدءا بالفهم ومرورا بالتطبيق والتحليل ويظل مستويا التركيب والتقويم - وهما في قمة سلم المستويات العقلية والابداعية والتفكير الناقد - مغيبين الى درجة كبيرة . وتكتمل الصورة القاتمة في تطبيق المناهج الحالية انها وجراء الاساليب المستخدمة في تطبيقها وضعف الوسائل والآليات المرصودة لذلك غير قادرة على توليد حتى الحد الادنى من الاتجاهات التربوية الانتمائية او حتى الاهداف المعلنة التي تظل في واد والمناهج في واد آخر .

وعلى خلفية كل ما ذكرنا آنفا تتبلور لنا صورة الراهن في مناهجنا التعليمية الحالية التي ليس لنا يـد فـي بنائها ، وفرضت علينا في ظروف سياسية خاصة بنكبة شعبنا وشتاته ، وكنا مجرد مسوقين لها ليس اكثر .

ما هو المطلوب :

وازاء كل ماذكرنا يطرح هذا السؤال نفسه . وفي اعتقادنا يمكن ان نجيب عنه باختصار ذلك اننا بحاجة الى مناهج تربوية قادرة :

- ان تحمي جمهرة متعلمينا في كل المراحل التعليمية من الغزو الثقافي الخارجي .
- ان تحافظ على منظومة القيم والمثل والمفاهيم المنبثقة من الاصـالة والتـراث ذات البعـدين القـومي والعقائدي .
- ان تقف في وجه العولمة الثقافية والتربوية التي تهدف اصلا الى ترسـيخ مرجعيـة ثقافيـة وتربويـة مستوردة .
- ان تغرس في المتعلم قيم الاعتزاز والافتخار والثقة بالنفس وتعززها وتعمقها .
- ولكي تتميز المدارس والمناهج وليكون لها مبرر في بقائها وتكون لها خصوصية يفترض ان تخرج من اطار النظرية المطلقة المجردة الى دائرة التوظيف والتفعيل والممارسة .

وعلى سبيل المثال ان كتابة المقالات والشعارات عن الارض ويوم الارض لا تجسد الانتماء لها ولا تعمقـه بالقدر الكافي فيما لو كانت هناك زيارات متكررة للارض بهدف "تنظيفها – تجريفها – حرثها – زرعهـا – سقايتها – رعايتها".

اما فيما يخص اللغة العربية فلا بد ان يكون هناك قرار سياسي يحميها من التغريب .

مواد دراسية تغرس الانتماء وتعمقه :

1- مواقف من التاريخ تجسد البطولة – العطاء – العدالة – العزة – المـروءة – النخـوة – الحميـة – النجدة – الاريحية ... الخ .

2- مواقف انسانية في التعامل مع الاخرين .

3- مقتطفات من جمالات اللغة العربية .

4- التراث كمادة دراسية .

5- انجازات حضارية .

6- شخصيات واعلام لها مكانتها واثرها على الجماهير .

7- الوحدة الوطنية – الوحدة العربية .

ملحوظة : هذه المواد تشمل الماضي والحاضر .

الوطن العربي .. وعصر المعلومات

***) يطلق الكثيرون على هذه الحقبة الراهنة التي يمر بها العالم تسمية عصر المعلومات ، جراء ما شهده من انفجار معرفي شمل كافة مناحي الحياة العلمية والتقنية والثقافية والاقتصادية والفنية وغيرها ، وقد ساعد على انتشار الثورة المعلوماتية هذه تطور الاجهزة والتقنيات الحديثة الفائقة الاداء في سرعتها ودقة انجازها . وكمحصلة لكل ذلك اصبح من المؤكد ان تتغير معايير العلاقات الانسانية ، وتلك التي تحدد اشكال التعامل بين الدول تبعا لحصولها او عدم حصولها على هذه المعلومات ، او على اصح تعبير مدى مساهمتها او عدم مساهمتها في صناعة هذه المعلومات ، ذلك انها اصبحت بمثابة ثروة وتطور ورقي ، ناهيك عن كونها سلاحا يعزز القوة والمنعة والمكانة للدول الحاصلة عليها ، علاوة على منحها اياها المبادرة والمبادأة في كثير من المجالات الحياتية .**

***) ونحن في الوطن العربي نتأثر كغيرنا بما يدور في العالم ، وفي العادة تهب علينا رياح التقنيات والمتغيرات الاخرى واسواقنا العربية زاخرة بالوسائل التقنية التي تمدنا بالمعلومات اضافة الى وسائل الاعلام السمعية والبصرية ، فالوطن العربي يبرهن مرة اخرى شأنها شأن المرات السابقة على انه مستورد ومستهلك لها ، دون ان تكون له يد في صناعتها او حتى انتقائها او المفاضلة فيما بينها ، ذلك ان انظمته السياسية لم تول منظومة العلم والتقنية والبحث العلمي ما يستحق من اهتمام ورعاية . فظل عالة على الاخرين في هذا المجال رغم مرور عشرات السنين على استقلاله عن الاستعمار التقليدي ، وهنا تجدر الملاحظة الى ان الوطن العربي كان غائبا منذ عصر الثورة الصناعية الاولى ، مرورا بالثورة التقنية ، فثورة الاتصالات ، فغزو الفضاء فعصر المعلومات الحالي لم يزل مشاهدا صامتا منفعلا لا فاعلا .**

***) وهذا بطبيعة الحال يدفعنا الى رفع اصابع الاتهام الى انظمتنا ومناهجنا التعليمية ، والبدء بمحاكمتها على خلفية مدخلات العملية التربوية برمتها ومخرجاتها بالتالي . واحقاقا للحق فاننا هنا نود ان نشير بداية الى الحجم الكمي او اعداد المتعلمين الذين تخرجهم المؤسسات التعليمية الثانوية والجامعية المتوسطة والجامعية ، فهي بلا شك اعداد هائلة ، وذات تخصصات مختلفة الا انها ومنذ اكثر من نصف قرن ظلت عاجزة ان تصل بالوطن العربي الى ادنى حد من التطور الصناعي والتقني ، ولعل الجامعات ومؤسسات التعليم العالي الاخرى تتحمل النصيب الاوفى من التقصير الفاضح ذلك انها كبقية المؤسسات**

التعليمية ، ما زالت تعتمد التلقين والحفظ وحشو المعلومات منهجا واسلوبا ، ناهيك عن افتقارها الى دوائر التعليم التطبيقي والمختبرات الحقيقية ومراكز البحث والتوثيق ، والى جانب كثير من الكفاءات العلمية ، ويبدو ان انشطتها تتركز على مجال الانسانيات اكثر من سواها ، ويتمثل هدفها في امداد الاسواق باعداد هائلة من الخريجين يسهمون في رفع معدلات البطالة السنوية ، وهي بالتالي لا تتمتع بأية مواصفات تؤهلها لاحداث ادنى تغيير في المجتمع . ولكي تكتمل الصورة القائمة للتعليم العالي في الوطن العربي ، فاننا بكل بساطة يمكن ان نضيف ان معظم الجامعات العربية لم تشارك حتى الان في بحوث علمية او تقنية حديثة ، واكتفت بدراسات ادبية ، علاوة على تقصيرها في عقد مؤتمرات علمية وتبني توصياتها تطبيقا وتنفيذا ومتابعة .

*) ونحن هنا لا ننسى دور الانظمة السياسية العربية في التقصير كونها متولية شؤون الصرف على المشروعات التي تعدها ، فقد ظل البحث العلمي التطبيقي في ادنى درجات سلم الاولويات والافضليات لديها ، في حين خصصت ميزانيات سخية لمشروعات التمنية التظاهرية ذات الطابع الترفي الاستهلاكي ، علاوة على التقصير في تكريم المبدعين الحقيقيين في شتى المجالات الامر الذي اضطر كثيرا منهم للهجرة الى خارج حدود الوطن العربي ، او عدم التفكير بالرجوع اليه . وعلى خلفية منظومة هذه التقصيرات كان من الطبيعي ان يعجز الوطن العربي عن رفد العالم بسيولة معلوماتية ذات شأن ، وعلى النقيض ظل مستوردا لها ، وعالة على ما يرده من الاخرين ، واذا ما اوردنا في الحسبان المدخولات الهائلة التي ترد على الوطن العربي جراء صادراته النفطية وغيرها ، تتعاظم صورة التقصير التي همشته في كثير من الميادين ، وحرمته نعمة الاستقلال الحقيقي ، وجعلته يدور في فلك التبعية وكرست ثقافته الاستهلاكية ، وغيّبت عنه روح الابداع الفاعل .

*) ان تقصير الوطن العربي في الوصول الى الحد الادنى من امتلاك المعلومات والتقنيات الحديثة او المساهمة في صناعتها كان له اثار خطيرة على المواطنين العرب في شتى اقطارهم ، فالنخبة الواعية منهم وعلى اقل تقدير تشعر بالمرارة كونها لا تملك الوسائل والاليات ولا الظروف الملائمة ، ومن ناحية اخرى يشعر الجميع وكأن المعلوماتية والتقنية اصبحتا حكرا او صفة لمجتمعات دون اخرى ، وان المصير هو التلقي وليس الابداع ، وفي ذلك بطبيعة الحال ما له من اثار نفسية تعمل على تكريس فوقية الاخرين ، وفي المقابل توسيع مساحة عقدتي الدونية والنقص ، واستمرارهما مع الاجيال القادمة . وعلاوة على كل ذلك لابد ان نشير الى الانفاق المادي الهائل الذي يتكلفه الوطن العربي لقاء الحصول

على هذه المعلومات والتقنيات التي تفرض عليه باعلى الاسعار ، الى جانب وقوعه ضحية كثير من حيل التجديد والتحديث الممارسة عليه والتي هي في كثير منها شكلية لا جوهرية .

*) واذا كنا هنا نطرح بعض الاثار السلبية للتقصير العربي فحري بنا ان ننوه الى منظومة الاثار السالبة ايضا لما يمكن ان تطرحه هذه التقنيات والمعلومات الواردة ، وعلى خلفية المناداة بالعولمة ، والحضارة الانسانية الواحدة المبنية على اسس وقيم علمية بحتة اصبحت تهدد الموروثات الوطنية والقومية للشعوب العربية وتطغي عليها هذه البدع والاشكال والعلاقات والقيم الواردة ، او التي يمكن ان تحدثه من تأثير فوري او بعيد المدى ، وبالتالي فانها تعمل على خلخلة جذور الانتماء المحلي على طريق العولمة ، وتسعى الى تفكيك اواصر مرتكزات الوطنية والقومية وكذلك الايديولوجية الاخرى ، وهي بالتالي تعمل على انهيار المناعة الثقافية المكتسبة للامة ، وتجردها من اهم خصائصها المميزة لها ، ونذكر هنا اننا لسنا ضد الثقافات والمعلومات والتقنيات الواردة ، ولكن يفترض ان تخضع لانتقائية دقيقة ، وننوه هنا الى بعض السلبيات على سبيل التذكير لا الحصر ، وهي تخص تراجع اللغة العربية في التسميات والمسميات امام استخدام اللغات الاجنبية والى استخدام الاساليب والتقنيات الغربية في ادابنا شعرا ونثرا الى حد محاربة الموروث الادبي العربي والامثلة كثيرة .

*) وخلاصة القول ، اننا في الوطن العربي نتوق الى تصحيح مساراته واتجاهاته كيما يحظى اولا وقبل كل شيء باحترام ابنائه له ، وكيما يواكب روح العصر ويتعايش معها بمفاهيم ومرتكزات نابعة من اصالة غير متنازل عنها تحت وطأة أي ظرف كائن ما كان . وان يكون مساهما في بناء الحضارة العالمية الانسانية وان يمدها بروافد من ثقافته وقيمه الانسانية كما كان على الدوام . وان الانظمة السياسية العربية مطالبة ان تواكب ثورة المعلومات وان تتعايش معها وان تكون شريكا مشاركا في ارساء اسسها على تراب الوطن العربي ، وان تضع بصماتها الثقافية وابداعاتها عليها ، وهي مطالبة بأن تكون للوطن العربي شبكاته المعلوماتية الصادرة والواردة ، فالحضارة عطاء قبل ان تكون اخذا . وبطبيعة الحال فان هذا يقتضي تخصيص ميزانيات حقيقية سخية لاعادة بناء المناهج التربوية لكافة المراحل التعليمية ولتأسيس دور البحث العلمي الشامل واستخدام الكفاءات العربية المهاجرة والعمل الحثيث على استدعائها ، بما يكفل لها حرية العمل والابداع . والاعلام العربي هو الاخر مسؤول مسؤولية خطيرة لتطوير نفسه ليصبح عالميا ينقل صورة الوطن العربي الى الاخرين ، ويسد الفراغ الذي يعيشه المواطن العربي فيلجأ للاخرين ويقع في كثير من الاحيان فريسة لنواياهم ومراميهم . وان كل ذلك لا يمكن ان يتم الا في اطار

تعاون عربي شامل يستهدف الحفاظ على الهوية القومية والايديولوجية كي لا يغـــرق فـــي محيطات المعلوماتية والثقافية الوافدة .

قرن جديد .. وألفية جديدة

❋) الى جانب كثير من الخصائص والمزايا التي يحظى بها الانسان المعاصر في هذا الزمان وبخاصة في القرن العشرين ، فانه يمكن اضافة ميزة اخرى فريدة لا تتكرر الا كل الف عام تتمثل في وداع قرن والفية معا ، واستقبال قرن وألفية جديدين . وقد يبدو الحدث من وجهة نظر البعض انه عادي ، اوا نها مجرد ايام واعوام تنقضي ويحل محلها اخرى مـــا دامـــت هناك شمس تغيب ليلا وتصحو على نهار جديد . وبرغم كل اتجاهات الاحاسيس والمشـــاعر المتعاكسة نحو هذا الحدث ، فانه يظل فريدا ويحمل في طياتـــه هيبـــة الـــزمن وجبروتـــه وديمومته وسحره . ففي المرة الاولى وحينما انتهى القرن العاشر وبدأت الألفية الثانيـــة ، ولدى الرجوع الى استقراء التاريخ فثمة حقائق تبرز لنا اولاها ان احساس الانسان آنـــذاك بالوقت والزمان لم يكن كأحساسه هذه الأيام ، ذلـــك ان المتغيـــرات الاقتصـــادية والتقنيـــة والسياسية والعسكرية وغيرها كانت في الماضي بطيئة الحدوث ، وان الأمس واليوم والغد بمجموعها كانت صورة طبق الأصل عن بعضها البعض ، تتكرر على الدوام . وربما كانـــت الأعياد والعبادات ايا كانت هي الأيام واللحظات الوحيدة التي يحســـب لهـــا حســـاب لـــدى الجماعة الانسانية . اما احساس الفرد بالوقت دقائقه وساعاته ، ايامه واعوامه فكان شـــبه معدوم .

❋) في اعتقادنا ان الثورة الصناعية قبل قرنين من الزمان ولاحقا الثورة التقنية الهائلة في القرن العشرين جعلا الانسان المعاصر يرتبط بالوقت والأيام والأعوام والقرون ارتباطا وثيقا . فهو يحمل ساعة حيث يحل وحيث يرتحل . وهو دائم النظر اليها ويتصرف بنـــاء علـــى معطياتها . وفي الحقيقة انها تتحكم به سلوكا وتصرفا . وهو ايضا يملأ بيتـــه بالســـاعات واجندات التقويم والمفكرات الأخرى التي تظل تربطه مع عجلة الوقت ودورة الزمان التي لا تنقطع لحظة بلحظة . وهو شاء ام ابى يظل في حقيقة الأمر مسيرا لها .

❋) واذا كان انسان الألفية الأولى ليس له وقته ، او ان احساسه بالزمن شبه معدوم ، فان انسان نهاية الألفية الثانية المقبل على الألفية الثالثة له وقته ، وتزداد يوما بعد يوم علاقته بالزمن الى درجة معها يصبح رهينة له .فهو يحسب عمره وســـلوكاته وســـائر فعالياتـــه الأخرى بالثواني والدقائق قبل الساعات والأيام . ان الحديث عن الانسان المعاصر وعلاقته بالزمن ذو شجون ويطول وهو متشعب يكاد يكون لا حدود له . لكن في اعتقادنا ان الانسان المعاصر المقبل على الألفية الثالثة يتصف بالقلق والاضطراب والخوف والانفعال والضعف

واحيانا كثيرة بالعجز امام التقنية التي اصبح عبدا لها واصبحت تتحكم في كل مناحي حياته وتسيره في حين انه هو الذي اوجدها . وهذه التقنية هي المسؤولة عن كل التغيرات التي شهدها العصر الحالي في القيم والمفاهيم والاخلاق وموازين القوى . وان احساس هذا الأنسان لا شك سوف يزداد عندما يدخل القرن القادم ، ويتوغل في ايامه واعوامه .

❋) منذ ولادة السيد المسيح عليه السلام وحتى الآن يكون قد انقضى عشرون قرنا والفيتان . ومما لا شك فيه ان هذه القرون انتهت وبدأت بأمان وسلام . لكن القرن العشرين وجراء كونه قرن التقنيات المتطورة التي اشرنا اليها آنفا تدور حوله شائعات في كل انحاء العالم ، ذلك ان "صفرين" فقط يهددان مجمل الحضارة الانسانية ، وبالتالي يبثان الرعب والقلق من المجهول الآتي في تفكير الانسان المعاصر . وهذا يعود بذاكرتنا الى الوراء يوم كنا نسمع اجدادنا وجداتنا وهم يكررون عبارة " تؤلف ولا تؤلفان" ويقصدون بان الدنيا لن تدخل ألفها الثالث ، او انها لن تكمل الفها الثاني . ان هذه المقولة الموروثة والمتداولة شعبيا حتى هذه الأيام ، ورغم انها مغلوطة لغويا ومشكوك في صحتها ، الا انها تتماشى وحالة الطوارىء والذعر التي تمر بها الانسانية استعدادا لحلول الألفية الثالثة وبخاصة القرن الحادي والعشرين على خلفية الصفرين او "مشكلة العام 2000 التي تشغل بال العالم وتحتل مساحة شاسعة من تفكيره وقلقه على مصير انجازاته الحضارية الرائعة . ومع اعتقادنا بأن العلم لا بد وان يتغلب على هذه المشكلة ، الا ان هذا نذير بأن مشكلات اخرى يمكن ان تواجه الإنسان في المستقبل وتهدد أمنه واستقراره جراء تطوره التقني واعتماده الكلي عليه .

❋) ونحن في الوطن العربي جزء من هذا العالم الكبير نتأثر بما يحدث فيه اكثر بكثير مما كان يفترض لنا ان نؤثر به . وقد لا تهم مواطننا العادي كثير من مشكلاته وأزماته ، ذلك ان تحديات وهوة كبيرة ما زالت تحول دون ان يسهم فعلا في فعاليات مراكز الاشعاع الابداعي ، وهذ1 لا يعود الى عجز في قدراته العقلية ، بقدر ما هو منوط بسياسات داخلية وخارجية تمارس عليه . فقد كانت لنا منذ مطلع القرن العشرين احلامنا وتطلعاتنا المستفيضة يوم استقبل اجدادنا هذا القرن وواجهوا تحدياته باصرار وايمان للوصول الى هذه الأحلام . اننا على اعتقاد بأنهم كانوا يحسبون الثواني قبل الدقائق وتلك قبل الساعات انتظارا لليوم الذي سيهل حاملا معه بشائر التحرير والحرية والوحدة . يوم تتحرر الأرض العربية والاقتصاد العربي والسياسة العربية والثقافة العربية . يوم تنتفي من بين ظهرانيه سياسات التسلط فتصبح للشعوب العربية كلمتها في ظل ديمقراطية حقيقية ومنظومة حقوق انسان شاملة . يوم تصبح له مناهجه العلمية وتقنياته وصناعاته وبحوثه ودراساته . يوم لا يصبح عالة على الآخرين . يوم تتحرر ارادة الأنسان العربي . لكن حلم الأجداد والآباء

اغتالته الانظمة السياسية العربية على مذبح الاقليمية والانفرادية والسياسات المتهالكة على الآخرين .

*) ان الوطن العربي سوف يدخل القرن الحادي والعشرين والألفية الثالثة واحلامه مهشمة . وكما كان قدر الأجداد والآباء ان يخوضوا نضالات شرسة ، فان احفادهم اذا ما ارادوا ان يعيشوا في أمن وأمان ، فان عليهم ان يعيدوا حساباتهم مع كثير من الاشياء المحيطة بهم . فليس غير الفرقة والانقسام في الرأي والاختلاف والتشرذم والتهالك على الآخر الى درجة تقديسه ، والخروج من الجلد ، وعدم الثقة بالنفس اوصلهم الى ما هم عليه في عصر لا يعترف الا بالاقوياء وبالتكتلات السياسية والاقتصادية والعسكرية . والوطن العربي لا ينقصه شيء من هذا على الاطلاق . لكن ما ينقصه هو قليل من الإرادة والنوايا الصادقة والعمل الجاد حتى يدخل القرن الحادي والعشرين والألفية الجديدة بأمان ، ولكي يكون لدخولهما معنى ، ويكون له فيهما مكان تحت الشمس لا على هامش الأيام والأحداث . ويكون صورة لا ظلا ، وصوتا لا صدى .

نحن .. والندوات العلمية

❋) بداية نود ان نتطرق الى العنوان فنلقي عليه مزيدا من الضوء ، فالمقصود هنا بالندوات العلمية مجمل المؤتمرات والايام الدراسية واللقاءات وغيرها التي تعقد تكريسا لموضوع علمي او تقني أو ثقافي او اقتصادي او أدبي او في مجال انساني او دراسة وبحثا في مشكلة ما او تأكيدا على حق وتجسيدا له ودفاعا عنه ايا كان ، او تلك الاحتفالات التكريمية لاشخاص ابدعوا وبرزوا في مجال ما ، ويفترض انها جميعا تتم باسلوب علمي . وهكذا تتعدد ميادين هذه الندوات اذ لا حدود لها . وفي العادة يقف وراء كل ندوة منها منظمون لها وهي تتراوح ما بين مؤسسة او جهة رسمية او غير رسمية وتشمل الوزارات والجامعات ودور العلم الاخرى او مراكز البحوث والدراسات والجمعيات المتعددة الاهداف . ويلاحظ ان الدعوات توجه الى المحاضرين فيها اما برسائل خاصة او عبر وسائل الاعلام . وفي العادة يمنحون فترة كافية من الوقت لاعداد بحوثهم او اوراقهم ، واما بالنسبة للمدعوين فهم اما ان يكونوا من جمهرة ذوي الاختصاص والاهتمام او اصحاب الشأن ، واما ان تكون الدعوات عامة مفتوحة للجميع ، وتستمر هذه الندوات ما بين يوم الى ثلاثة ايام في الغالب .

❋) مما لا شك فيه ان هذه الظاهرة هي احدى اهم آليات تطوير البحث العلمي وتشجيعه ، وهي وسيلة هامة في تبادل الخبرات ، واسلوب ناجع الفاعلية في حل المشكلات وايجاد ردود علمية لكثير من التحديات التي تفرضها المتغيرات على كافة الصعد الحياتية . وهي بنفس الوقت تضيء فضاءآت حضارية ، وتكسب القائمين عليها سمعة علمية مرموقة . وفي الاقطار المتطورة اصبحت الندوات العلمية المختلفة بكافة اشكالها وابعادها ظاهرة اساسية وجزءا لا يتجزأ من البنية الاساسية لشتى مضمارات الحياة ومجالاتها ، وان كثيرا من الانجازات والابتكارات والاختراعات والتقنيات الجديدة او الاساليب الحديثة في شتى المجالات تدين لها بالفضل ، ذلك انها من نتاجها . وفي الغالب يصدر عنها مجمل لاعمالها وتوصياتها بهدف ان تقوم المؤسسات والجهات المعنية بتطبيقها وتعميمها والاستفادة منها على ارض الواقع .

❋) وفي الوطن العربي اصبحت هذه الظاهرة منوالا يتكرر واصبح لها مواسمها وهيئات ترعاها وقاعات معدة باحدث الاساليب التقنية لعقدها . وهنا نؤكد ان ليس ثمة أي اعتراض يحول دون عقد مثل هذه الندوات في شتى ارجاء الوطن العربي الا ان هناك مجموعة من الملاحظات والتحفظات يمكن ان تثار في هذا الصدد ، ذلك انها اصبحت مظهرا من مظاهر

الترف والبذخ واستعراض الحال ومن مكملات الاناقة السياسية للانظمة السياسية وبخاصة في الاقطار العربية الغنية وحتى الاقطار غير الغنية وعلى هذه الخلفيات تحولت معظم هذه الندوات الى مجرد لقاءات احتفالية ابتعدت عن الهدف الاصلي الذي عقدت من اجله . ويعزز اعتقادنا هذا ان كثيرا من المشكلات التي عقدت لها ندوات شتى ما زالت قائمة ومتفشية ، ونذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر مشكلات التسرب ، واساليب التلقين في المدارس ، وضعف الاستيعاب لدى كثير من التلاميذ ، وضعف الاقبال على القراءة بوجه عام ، وتظل الجامعات اشبه بالمدارس تعتمد التلقين والامتحان الكتابي معيارين اساسيين في التقويم النهائي . وفي الاسرة تتكرر حوادث العنف المختلفة ، وهناك مشكلات البيئة والنفايات والمشكلات الصحية والاجتماعية والاقتصادية والفنية والرياضية الاخرى وهذه غيض من فيض .

❋) وفي فلسطين لا يختلف الحال كثيرا عن مثيلاتها في بقية ارجاء الوطن العربي ، اللهم اذا استثنينا عامل البذخ والترف . فعلى مدى الاعوام الخمسة الماضية او يزيد عقدت وسوف تعقد ندوات كثيرة تناولت بمجملها قضايا مختلفة الا ان هذه الندوات كانت في كثير من الاحيان تفتقر الى اوراق تتوخى الدقة العلمية المؤسسة اصلا على الموضوعية والعقلانية واعتماد مناهج البحث العلمي . وثمة امر اخر لا ينبغي الاغفال عنه يتعلق باسلوب ادارة هذه الندوات فهي على الاغلب تتكون من جلستين الى ثلاث جلسات في يوم واحد وتكون مسبوقة باحتفال افتتاحي ، و يمنح المحاضر مدة ربع ساعة ، وهي فترة زمنية جد قصيرة لا تسمن ولا تغني من جوع ، ولا تتسع لاية فكرة او رأي مهما قل حجمه او مساحته ويفرض على المحاضر ان يسلق موضوعه على نار ساخنة في اطار تعميمات وعموميات بعيدة عن اصابة الهدف . وفي احيان اخرى تكون الافكار المطروحة اجترارا لافكار ونظريات منسوخة من مصادر اجنبية او ترجمة لها ولا تمت للواقع بصلة . وثمة ملاحظة تتعلق بجمهور المدعوين الذي يأخذ بالتناقص مع توالي ساعات الندوة الى ان يصبح المحاضرون هم المدعوين فقط ، ويتركون قائمين لوحدهم .

❋) واذا ما انتقلنا من الشكليات والحيثيات الى النتائج والتوصيات فما من ندوة الا وطرحت مجموعة كبيرة من التوصيات وقد تتكرر جراء تكرر الندوات نفسها . ومهما يكن الامر فان نصيب هذه التوصيات ان تظل حبيسة الاوراق التي كتبت عليها ، ذلك ان الجهات التي يفترض ان تقوم بتنفيذها قد تكون مغيبة او غائبة او غير معنية او انها لا تملك الآلية والوسيلة والامكانية لتطبيقها على ارض الواقع وتقويمها ومتابعتها وتظل المشكلات تدور في دائرة مفرغة .

❋) وخلاصة القول ، ان البحث العلمي ضرورة حياتية وحضارية والندوات بكل اشكالها هي مظهر راق متطور من مظاهره ، ولكن بشرط ان يعد لها اعدادا جيدا مستندا الـــى اســـس علمية تضمن على اقل تقدير احترام الباحثين الحقيقيين وتكفل امكانية تطبيق ولو جزء من توصياتهم ، كما يفترض بها ان لا ترجح كفة الشكل والمظهر على المضـــمون والفحـــوى والجوهر. وفي الندوات التكريمية ان لا تكون انتقائية مزاجية تتحكم بها الجاهات والشانات والاعتبارات الاخرى التي تفرض تكرار التكريم لاناس دون اناس اخرين . واخيـــرا ولـــيس اخرا ، ان يكون هدفها حل المشكلات لا مجرد تسليط الاضواء عليها او تعريضـــها لمجـــرد النقد .

نحن .. والديموقراطية

❋) لعل اكثر المفاهيم جريا على السنة الشعوب في هذا القرن هو مفهوم الديموقراطية التي اصبحت متطلبا اساسيا من متطلبات البنية التحتية لحياة انسانية معقولة ومتوازنة ، وعاملا مؤثرا في تأمين حد معقول من الامن السياسي والاقتصادي والفكري والثقافي والايديولوجي والاجتماعي ، ولا نبالغ اذا ما اضفنا كلا من الامن الغذائي ، والامن الصحي .

❋) فما هي الديموقراطية ؟ وما اصل مصطلحها ؟ وما هي المزايا والخاصيات للمجتمعات الديموقراطية ؟ وهل تقتصر الديموقراطية على الحياة السياسية ؟ وما هي حقيقة اعراس الديموقراطية التي تتغنى بها الانظمة العربية ؟ وهل نحن مؤهلون لممارستها ؟

❋) بادئ ذي بدء ، نستهل حديثنا عن الديموقراطية باستعراض تعريفها :

– الديموقراطية مصطلح لغوي مركب من كلمتين يونانيتين (ديمو) بمعنى شعب ، و (كرات) بمعنى حكم ، فالمصطلح بكل بساطة يعني حكم الشعب .

– ومع مرور الايام وسّع الفلاسفة السياسيون هذا المصطلح ليصبح "حكم الشعب ، بواسطة الشعب ، لمصلحة الشعب . وهذا التعريف ينطبق اكثر ما يكون على الديموقراطية السياسية .

– ولكنه الان اصبح اكثر شمولا ليصبح "طريقة حياة واسلوب تفكير وسلوك ينتظمان كل النواحي الحياتية : السياسية ، الاجتماعية ، الثقافية ، الايديولوجية ، الفكرية وهو بمعنى اخر الديموقراطية الشاملة .

❋) وقبل الخوض في ابعاد الديموقراطية ، نود ان ننوه الى الملاحظات التالية :

– الديموقراطية طريقة حياة ، واسلوب تفكير ، كما اشرنا آنفا ، يفرضان نفسيهما جرّاء عوامل اجتماعية وثقافية وايديولوجية ، وقناعات توصلت اليها المجتمعات من خلال سلسلة طويلة ، ومضنية من التجارب .

– في حالة المجتمع العربي ذي التراث والتقاليد والعادات الخاصة به ، والتي تطبع ذاكرة مواطنيه الثقافية ، قد تلقى بعض اشكال الديموقراطية اعتراضات وممانعات ، كونها تخالف هذه المنظومة الثقافية المتوارثة عبر الاجيال .

– ثمة آليتان لترسيخ القيم الديموقراطية واتجاهاتها الايجابية :

اولاهما : التنشئة منذ الطفولة المبكرة "فالديموقراطية في الصغر كالنقش على الحجر" . تظل محفورة في الذاكرة الثقافية والسلوكية .

ثانيتهما : الاقتداء ، ذلك ان الجو العام ايا كان يفرض ذاته على الاخرين .
– ان الديموقراطية الاجتماعية تسبق الديموقراطية السياسية ، وهي تشكل البنية التحتية لها ، وهي في النهاية تحصيل حاصل لها ، وان انتفاء الديموقراطية الاجتماعية (التربوية والثقافية والفكرية) يضع علامات استفهام خطيرة على مصداقية الديموقراطية السياسية .
*) ولنكن الان اكثر تحديدا وتخصيصا ، ولننتقل الى الديموقراطية في الوطن العربي حيث كثر الحديث وما زال عن الديموقراطية مفهومها – اشكالها – اساليبها – مظاهرها – تطبيقاتها . وينشغل بها المنشغلون ، ولكل طروحاته واهدافه ومراميه ، ورؤآه التي تنبع من قناعاته وتوجهاته . ويحتدم النقاش والحوار حول الديموقراطية وتعقد الندوات والمحاضرات والمناظرات وغيرها ، ومما لا شك فيه انها تشكل مساحة مرموقة من تفكير الناس على كافة شرائحهم الاجتماعية ، ذلك ان الاحساس بالافتقار اليها عميق ، وآخذ في التعمق مع مرور الايام ، وان الشعور العام بضرورتها لا يختلف عليه اثنان يدركان قيمة الحياة العصرية .
وما من شك ان الافكار والآراء والنظريات قد اصبحت جاهزة ، لكثرة تراكمها على مدى الايام ، علاوة على ان وسائل الاعلام المقروءة والمسموعة والمرئية لم تنقطع لحظة واحدة عن تناول هذا الموضوع في اوقات مختلفة . حتى الانظمة العربية ، ومن منظورها الخاص ، لم تقصر هي الاخرى في تناولها ، والتبشير بها .
وخلاصة القول ان الحديث يدور على قدم وساق في منافسة شديدة واحيانا حامية الوطيس بين الشرائح الاجتماعية المتباينة الانتماءات للجماهير العربية فيما بينها من جهة ومع الانظمة الحاكمة من جهة اخرى .
*) الا ان شيئا واحداً ظل غائبا عن هذه الساحات الجدلية الفرضية والافتراضية وعن الوطن العربي بمؤسساته وممارساته وسلوكاته ، انه الديموقراطية نفسها ، والتي ما زالت في مرحلة الحلم بها ، اوانها على اقل تقدير لم تزل افكاراً في الرؤوس ، ولم تخرج الى حيز التنفيذ .
*) ثمة تيار آخر مضاد للفكرة السابقة تروج له اجهزة تابعة للأنظمة العربية التي لا تفتأ تصرح بأن الديموقراطية قد اصبحت حقيقة ، وانها تمارس كعادة يومية ، وتتمادى هذه الانظمة التي شطح بها الخيال بتأكيدها ان الديموقراطية قد اصبحت لها جذور وتقاليد عريقة وتجارب مكللة بالنجاح .
*) اننا لا نريد ان نناقش هذه الافكار غير الموضوعية لكننا نؤكد ان الديموقراطية ما زالت بعيدة عن الوطن العربي ، واحقاقاً للحق قد تكون هناك بعض المظاهر الديموقراطية

البسيطة والوقتية والمحدودة المجال في هذا القطر او ذاك . الا ان المحصلة النهائية تنفي صفة الديموقراطية عن الانظمة العربية من محيطها الى خليجها ، وعلى العكس توصف هذه الانظمة بأنها قمعية استبدادية لا تحترم مواطنيها في كثير من الاحيان وتعاملهم على انهم "رعايا لا مواطنون" .

❋) ونتيجة للتحديات التي تفرضها طبيعة العصر والاحداث ، بدأت بعض الانظمة العربية تشعر بضرورة تغيير صورتها في أعين مواطنيها ، فلجأت الى "تحديث" بعض اساليبها في اجهزة الحكم فأخذت :

- بالمناداة بضرورة مأسسة النظام على اسس ديموقراطية .
- "الترويج والتهليل" للانتخابات باعتبارها الالية الفضلى للمارسات الديموقراطية .
- "السماح" بالتعددية السياسية ، وتعدد الاحزاب .
- الادعاء بمنح الصحافة المزيد من حرية الرأي .

وبمعنى أشمل ، ادعت هذه الانظمة انها اصبحت ديموقراطية بين عشية وضحاها ، ولكن لدى استقراء "الواقع الديموقراطي" في الوطن العربي ، واستشفاف حقيقية ديموقراطية انظمته السياسية ، يتضح لنا ما يلي :

- انها ديموقراطية الحزب الواحد وهو في الغالب الحزب الحاكم الذي يستند اليه النظام .
- انها ديموقراطية الخمس تسعات (99.999%) في كثير من الاحيان .
- انها ديموقراطية الاقتراع او الانتخاب الذي تشكو احزاب المعارضة من نزاهته ، وتشكك بمصداقيته ، او انها على اقل تقدير تعرف نتائجه مسبّقا .
- انها ديموقراطية ليس للنساء اللواتي يشكلن اكثر من نصف المجتمع العربي ، حتى ادنى حد في التمثيل النيابي ، وبالتالي حرمان هذه الشريحة العريضة جدا والهامة من المشاركة فيها ، وعكس وجهة نظرها التي ما زالت مغيبة .
- انها ديموقراطية الصحافة الناطقة باسم النظام على كل الاحوال ، وهنا نود ان نذكر ان غالبية بقية وسائل الاعلام المرئية والمسموعة هي ملك الانظمة الحاكمة او تنطق باسمها . هذا علاوة على ان كثيرا من الصحف العربية تصدر خارج الوطن العربي لاسباب تتعلق بحرية الكلمة ، وامن الصحفيين .
- انها ديموقراطية "مركزية السلطة التنفيذية" المتحكمة بكل شؤون الحكم ، وصنع القرار .
- واخيرا وليس اخرا ، انها ديموقراطية "رأس النظام" الذي بيده الحل والربط ، واليه ترجع كافة الامور .

❀) وحري بنا في هذا السياق ان نستقرئ خارطة تركيبيـــة الـــوطن العربـــي الاجتماعيـــة والاسرية على وجه التحديد ، لعلها تلقي ضوءاً على واقع التربية والتنشئة الاجتماعيـــة ، وامكانية الوصول الى مجتمع ديموقراطي ، وباختصار شديد فان الاسرة العربية باعتبارهـــا الخلية الاجتماعية الاولى تغلب عليها الصفات التالية :

-) الطابع العشائري .

-) السيطرة الابوية المطلقة (مجتمع ابوي) .

-) سيطرة الكبار على الصغار (مجتمع كبار) .

-) تفضيل الذكور على الاناث (مجتمع رجال).

وثمة عادات وتقاليد متوارثة تعتبر من اساسيات التنشئة الاسرية منها :

-) استخدام اسلوب التلقين ، والطاعة العمياء.

-) احترام الكبار ، وتقبل آرائهم ، وعدم مناقشتهم فيها .

-) عدم السماح ، في الغالب بطرح الافكار والاراء ، ففي العادة ، فـــان الكبـــار يفكـــرون بالنيابة عن الصغار والاناث ، ويحددون ، لهم في الغالب ، مصائرهم .

وثمة آليات زجر ونهي تتصف بعض الاحيان بانها قمعية في حالة الخروج عن الخصـــائص المذكورة . فهناك " التوبيـــخ ، والضرب ، والحرمان ، والمقاطعة ، والوصـــف باوصـــاف العقوق والشذوذ والخروج على الاجماع" .

❀) في ظل هذه الاجواء والمناخات تتشكل في الغالب نواة الشخصية العربية التي يتقاذفهـــا محوران ، فمن ناحية ، التزامها بما لقنت به من اسس تربوية ، ومن ناحية اخرى تذمرها منها ، الا ان هذا التذمر لا يرقى الى درجة التمرد والرفض المطلقـــين ، وعلـــى الارجـــح تصبح هذه القوالب التربوية ، جزءا لا يتجزأ من شخصية المتلقي ، وهكذا يتكرر الحال .

اما بالنسبة للمحور الاول فيظل هو المحرك الاساسي لهذه الشخصية والذي ينتقل في العادة من جيل الى آخر ، والذي هو بطبيعته يتناقض مع الاسس الاولى للديموقراطية ، وللتربيـــة الديموقراطية .

❀) وانطلاقا من كل هذا ، فان الدعوة الى تطبيق الديموقراطية السياسية له محاذيره ذلـــك ان الديموقراطية هي في الاساس كل لا يتجزأ ، وان الديموقراطية التربوية او الاجتماعيـــة بمفهومها الاوسع ، تشكل القاعدة الرئيسة للديموقراطية السياسية .

ان الذين عاشوا تحت ظلال اجواء اسرية تسلطية وفرضت عليهم القوالب الفكرية الجاهزة ، وحرموا في الغالب من المشاركة في صنع القرار او الاعتراض والرد ضـــمن الاســـرة ، او احترام الرأي الاخر ، وفيما بعد في المؤسسة التربوية بكل مراحلها ، اننا نشـــك ان اولئـــك

الناس قادرون على تفهم كنه الديموقراطية الحقيقية ، وربما على الارجح فهموها بطريقتهم الخاصة .

❋) ان الديموقراطية نهج حياة شمولي ، بمعنى انها تشمل كافة مناحي الحياة ، ولابد من ان تتعاون العناصر الاربعة الرئيسة في زرع نواتها ، ورعايتها ، وحمايتها وهذه العناصر هي :

1) الاسرة : ذلك ان التربية الاسرية هي الاساس وتشكل البنية التحنية للثقافة الديموقراطية والسلوك الديموقراطي بكل اشكاله . وتتحكم في الغالب اساليب التربية ، والذين ينفذون هذه الاساليب بتكوين الشكل النهائي للمتلقي ، وبنوعية تفكيره وسلوكه . ومما لا شك فيه ان الاجواء التربوية الديموقراطية تسهم في نشأة اجيال ديموقراطية التفكير والسلوك .

2) المؤسسة التعليمية : بدءاً برياض الاطفال وانتهاءً بمؤسسات التعليم العالي ، وهنا يستكمل البناء الديموقراطي بأسس علمية وتربوية سليمة تؤهل المتلقي للمشاركة في سلوك ديموقراطي عام والحفاظ عليه . وهنا نود ان نؤكد ان المدخلات التربوية والتعليمية المبنية على اسس ديموقراطية ، تؤدي بالتالي الى مخرجات ديموقراطية على الارجح .

3) المؤسسات الخاصة : حيث تتم كل الاجرآءات فيها باسلوب ديموقراطي ، ذلك ان المشاركين فيها هم اصلاً الثمرة الطيبة للاسرة والمؤسسة التعليمية .

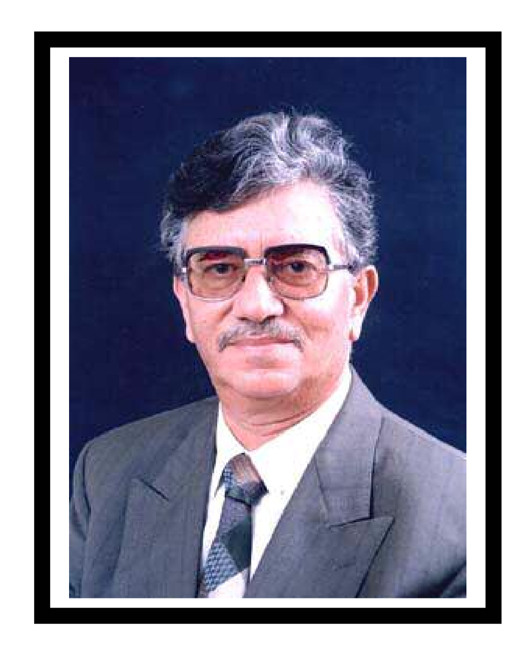
4) مؤسسات الدولة : ويفترض انها حامية الديموقراطية السياسية وراعيتها . فهي التي :

- تلتزم بتطبيق مواد الدستور نصا وروحا ، ولا تحاول الالتفاف عليها .
- تؤكد على سيادة السلطة التشريعية وحصانة منتسبيها .
- تخضع للقضاء ، وتحترم استقلالية القضاة واحكامهم الصادرة ، وتعمل على تنفيذها .
- تؤكد على التزامها واحترامها لمبدأ التعددية السياسية .
- احترامها لحرية الصحافة والنقد البناء الموجه لها ، وبخاصة للمستويات السياسية العليا .
- اعتمادها آلية لجان التحقيق في المشكلات او القضايا التي تلم بالامة ، والتزامها التام بتطبيق توصيات هذه اللجان .
- لجوؤها الى آلية الاستفتاءآت الشعبية في القضايا الخطيرة والهامة .
- اجراؤها الانتخابات العامة بنزاهة تامة .
- قبولها مبدأ الحوار والتناظر .
- اعتمادها مبدأ المنافسة في المناصب ، وتكافؤ الفرص .

٭) ان الديموقراطية تجربة انسانية فذة ، الا ان الطريق اليها ليست معبدة بالضرورة ، وان الوصول الى تثبيت نتائج هذه التجربة الانسانية ، يتطلب اجيالا وتضحيات ، اولاها التسلح بقيم احترام حق الاخرين في ابداء آرائهم ، والرضوخ الطوعي لرأي الاغلبية والنزول عنده ، وهذا لا يتسنى الا كثمرة لنضج سياسي واجتماعي وفكري وحد معقول من النمو الاقتصادي .

وختاما ، فان الوطن العربي نتيجة تطوره الثقافي والعلمي ، وترسخ قناعاته بحتمية تغيير الراهن ، لقادر ان يصل الى معادلة تضمن له الحرية والعدالة ، وفرض ارادته على مؤسسات النظام ، وبالتالي ان يحقق انجازا ديموقراطيا هاما مع الايام .

السيرة الذاتية للكاتب لطفي زغلول



- من مواليد مدينة نابلس - فلسطين .
- حاصل على شهادة ليسانس في التاريخ ودبلوم التربية العالي وماجستير في التربية "تصميم مناهج" .
- شغل عدة وظائف اكاديمية منها مساعد عميد كلية نابلس الجامعية ، ومحاضر في جامعة النجاح الوطنية ، وقبل ذلك عمل مدرسا حكوميا ومستشارا ومحاضرا في مركز شؤون المرأة والاسرة في نابلس ، وشركة سامكو .
- عضو الهئية الاستشارية لاتحاد الكتاب الفلسطينيين .
- حاصل على شهادة تقدير من وزارة الثقافة الفلسطينية لفوز نشيده "نشيد الحرية" الذي مثل دولة فلسطين على مستوى الوطن العربي.
- حاصل على درع الفوز على "نشيد الحرية" على مستوى الوطن العربي ، من المملكة الاردنية الهاشمية .
- حاصل على مجموعة شهادات تقديرية ودروع من العديد من المؤسسات الوطنية والاهلية .
- حاصل على ميدالية التربية والتعليم التقديرية على مجهوداته الادبية والشعرية .
- حاصل على شهادتين تقديريتين من الابتسامة الجميلة العالمية وعلى "علم الابتسامة الفلسطينية" تقديرا له على نشيد "الابتسامة الجميلة" الذي ترجم الى اللغة الإنجليزية .
- اختيرت قصيدته "رماح ومشاعل" وقررت في مناهج اللغة العربية الاردنية والفلسطينية والجامعية.
- اختارت وزارة التعليم العالي من شعره "نشيد الشباب" ليكون نشيدا لكليات فلسطين التقنية في الوطن.
- احيا عشرات الامسيات الشعرية في الوطن والخارج مع شعراء من اليابان وانجلترا وفرنسا واسبانيا وتركيا واليونان والمغرب ومصر من خلال المشاركة في فعاليات مهرجان الشعر الدولي لعدة سنوات ، واسفاره المتعددة .
- مثل الوطن في العديد من الاقطار (الاردن ، مصر ، المغرب) .
- يحرر زاوية اسبوعية في صحيفة القدس بعنوان "همسة" يتناول فيها قضايا سياسية وثقافية وادبية وتربوية .
- يشارك في العديد من الندوات السياسية والتربوية والتاريخية .
- له حضور واسع على شبكات التلفزة والاذاعة المحلية والعربية .
- نظم مجموعة كبيرة من الأناشيد الوطنية والتربوية وللاطفال ، وقد تم اعتماد اناشيده (المرشدات والرياضة والكشافة) .
- ترجم العديد من قصائده إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية .
- له موقع على شبكة الإنترنت .
- ترجم له في معجم "اعلام مدينة نابلس في القرن العشرين" .
- تم تلحين مجموعة من قصائده واناشيده الوطنية مؤخرا .

- تناولت ثلاث دراسات جامعية شعره بالتحليل والدراسة :

1- دراسة في شعر لطفي زغلول، بإشراف د. محمد جواد النوري .
2- دراسة في ديوانه "لا حباً.. الا أنتَ" بإشراف د. وليد جرار .
3- المرأة في شعر لطفي زغلول ، بإشراف د. زهير إبراهيم .
- تناولت دراستان للدكتور عبد الرحمن عباد لديوانيه :
1- اقرأ في .. عينيك . 2- هيا نشدو للوطن .
- تناولت دراستان مجموعته الشعرية الجديدة "مدار النار والنوار" للدكتور عادل الاسطه ، والدكتورة يمنى جابري .

الإصدارات الشعرية والنثرية

1) المجموعتان الشعريتان : منك .. اليك (1994) :
- **ايام .. لا تغتالها الايام**
- **على .. جدران القمر**

2) لا حبا .. الا انت - شعر (1996)
3) المجموعتان الشعريتان : لعينيك .. اكتب شعرا (1997) :
- **لانك .. انتِ انتِ**
- **انتِ .. اولا**

4) اقرأ في .. عينيك : شعر (1998)
5) هيا .. نشدو للوطن : اناشيد وطنية ،
ط1 (1998) ، ط2 - ط3 (1999)
6) مناجاة : قصائد روحانية (1999)
7) المجموعتان الشعريتان : قصائد .. لامرأة واحدة (2000)
- **على اجنحة الرؤى**
- **معا .. حتى الرحيل**

8) كلمات لا تعرف الصمت : خمسة اجزاء (مقالات سياسية)
9) همس الروح : شعر (قصائد روحانية) (2003)
10) الكاتبات الفلسطينيات والانتفاضة :
مترجم عن الانجليزية (1992)
11) اقول .. لا : نصوص شاعرية (2001)
12) هنا كنا .. هنا سنكون : شعر (2002)
13) مدار النار والنوار : شعر (2003) .
14) طل القمر : اغنيات ، قصائد باللغة الدارجة
واغنيات اطفال باللغة الدارجة (مخطوطة) .
15) ليالي النار والياسمين : شعر (مخطوطة) .
16) موال في الليل العربي : شعر سياسي (تحت الطبع).
17) انتماء : مقالات في الثقافة والادب (مخطوطة) .
18) اغنيات لاطفال بلادي : شعر (مخطوطة).